التعصب... من زاوية جدلية

د. فؤاد زكريا

عرفت البشرية خلال تاريخها الطويل ألوانا متباينة من التعصب : فقد حفظ لنا الشعر معلومات هامة وقيمة عن التعصب القبلى ، وسجل التاريخ – وما زال يسجل – حالات لا حصر لها للتعصب الوطنى أو القومى ، وعرف تاريخ الفكر ألوانا من التعصب الدينى أو الطائفى • وشهدت المجتمعات ، وخاصة فى عصرنا الحديث ، ضروبا متعددة من التعصب العنصرى أو العرقى • وفى هذه الحالات كلها كان التعصب يمثل انتماء زائدا الى الجماعة التى ينتسب اليها المرء ، وارتباطا بها يصل الى حد الاستبعاد التام للآخرين او كراهيتهم او التعالى عليهم •

والواقع أن التعصب ، بوصفه ظاهرة بشرية خالصة تنتمى الى مجال العلاقة بين انسان وانسان ، يمكن ان يعالج بمناهج وأساليب متعددة ، تبعا للزاوية التى نتأمله منها • ففى استطاعة علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، والعلوم البيولوجية – فى استطاعة هذه العلوم كلها أن تلقى أضواء كاشفة على ظاهرة التعصب ، وأن تساعد الانسان على ازالة هذه الغشاوة التى أعمت بصيرة البشرية ردحا طويلا من الزمان • ومع ذلك فان المعالجة الفلسفية لهذه الظاهرة تستطيع أن تكشف عن جوانب خفية واساسية منها ، وأن تزيح النقاب عن تلك البناءات الكامنة التى قد لا يتنبه اليها أى علم من العلوم السابقة حين يستنفد طاقته فى معالجة المشكلة من زاويته الخاصة ، ومن خلال مفاهيمه ومناهجه المميزة • فهناك اذن أبعاد لمشكلة التعصب أعمق من تلك التى تتناولها العلوم الخاصة – وحين أقول أعمق فلست أعنى بذلك حكما تفضيليا ، بل ان كل ما أقصده هو العمق بمعناه الأصلى ، لا المجازى ، أعنى عمق القاع بالقياس الى السطح • هذه الأبعاد العميقة التى تكمن من وراء كل معالجة علمية خاصة لمشكلة التعصب ، تتكشف للتفكير الفلسفى وحده ، وربما كان أصلح منهج يتبع فى الكشف عنها هو ذلك المنهج الذى أثبت انه خصب ومثمر فى معالجة الموضوعات الانسانية على وجه التخصيص ، وأعنى به المنهج الجدلى أو الديالكتيكى •



ان التعصب ، كما هو واضح ، يتضمن عنصرين ، احدهما ايجابى والآخر سلبى فالعنصر الايجابى هو اعتقاد المرء بأن الفئة التى ينتمى اليها ، سواء أكانت قبيلة أم وطنا أم مذهبا فكريا أو دينيا ، أسمى وأرفع من بقية الفئات • والعنصر السلبى هو اعتقاده بأن تلك الفئات الأخرى أحط من تلك التى ينتمى اليها • وقد يبدو من الأمور البديهية أن يكون هذان العنصران متلازمين ، اذ أن اعتقاد فئة معينة بتفوقها يعنى آليا أنها تنظر الى الفئات الأخرى كما لو كانت أقل منها قدرا • ومع ذلك فان هناك نوعا من التميز بين وجهى التعصب هذين ، على الرغم من ارتباطهما الوثيق •

ذلك لأن المشكلة التى عانت منها البشرية طوال الجزء الأكبر من تاريخ التعصب فيها كانت مشكلة الوجه السلبى للتعصب • بل ان مفهوم التعصب ذاته يرتبط فى أذهان معظم الناس بهذا الجانب السلبى • ذلك لأن الشخص المتعصب هو ، قبل كل شيء ، ذلك الذى يحتقر فئة معينة أو يتحامل عليها • صحيح أن هذا التحامل ينطوى ضمنا على اعتقاد بأنه أرفع من تلك الفئة التى يتحامل عليها ، أو أنه برىء من نقائصها ولكن هذا لا يعدو أن يكون اعتقادا مضمرا فحسب • وفضلا عن ذلك فكثيرا ما يكون سبب التحامل على الآخرين هو نوع من الحسد الخفى الدفين لهم ، أو الاعتقاد بأنهم يتمتعون بمزايا يعجز المرء عن بلوغها • وعلى أية حال فان كراهية الآخرين هى الصفة الغالبة على المتعصب ، أما استعلاؤه بنفسه فهو صفة ثانوية ، على الرغم من كونها نتيجة لازمة ، فى معظم الأحيان ، عن كراهية الآخرين •

فالتعصب اذن هو فى أساسه نظرة سلبية الى الغير • والمتعصب يتجه بتفكيره أساسا الى الآخرين فى حقد أو حسد أو احتقار ، ويميل الى الحاق الضرر بالغير أكثر مما يميل الى تأكيد مزاياه الشخصية أو كسب منفعة لنفسه • وليس فى هذا ما يدعو الى الاستغراب ، اذ أن الجانب الايجابى فى هذه العلاقة الجدلية لا يؤدى بالضرورة الى التعصب • فتأكيد المرء لذاته ، أو اعتقاده بسمو الفئة التى ينتمى اليها ، لايترتب عليه بالضرورة ازدراء للآخرين • ولقد سمعنا كثيرا عن تلك الفلسفات التى تؤكد



الأرستقراطية والاستعلاء ، ولكنها ترفض التعصب وكراهية الآخرين بوصفها مظهراً لا يتمشى مع وثوق المرء بنفسه وبقدراته • فالرفيع والنبيل حقا ، عند نيتشه ، لا يكره الآخرين ولا يتعصب ضدهم ، لأنه لا يحتاج من أجل تأكيد ذاته الى مقارنة نفسه بغيره أو التسلق على أكتاف الآخرين • ومن جهة أخرى فان تأكيد الذات ، فى الفلسفات التى تنحو منحى ديمقراطيا ، يزداد بالتكاتف مع الآخرين والتسامح معهم ، لا بالتفوق على حسابهم •

ومعنى ذلك أن الوجه الايجابى فى علاقة التعصب ، وهو تأكيد استعلاء الذات لا يمثل جوهر التعصب ، وأن النظرة السلبية الى الآخرين هى الطـابع المميز لذلك النوع الشائع من الانحراف •

***

ولا جدال فى أن تلك النظرة السلبية الى الآخرين ترتكز على اعتقاد بوجود نوع من الشر الكامن فيهم ، والذى يبرر به المتعصب تحامله عليهم • ولعـل أول ما يطرأ بالذهن هو أن يبادر الى الكشف عن زيف هـذا الاعتقـاد بوجود الشر فى الآخرين ، ويبحث عن أسباب نفسية أو اجتماعية تدفع الناس الى التحامل على غيرهم بهدف تبرير استغلالهم لهم ، أو ايجاد منفذ لشعورهم هم أنفسهم بالاثم أو بالعجز أو بالاخفاق • ومن المؤكد أن ظاهرة التعصب تنطوى على شىء من هذا كله ، ولكن العلاقة بين المتعصب وبين من يتحامل عليه هى فى معظم الأحوال أعقد من أن تفسر من خلال هذا الفهم الذى يسير فى اتجاه واحد ، والذى يرتكز على القول بأن التعصب علاقة بين ظالم ومظلوم • وهذه العلاقة المعقدة لا يمكن التعبير عنها ، أو فهمها ، الا من خلال منهج جدلى •

ولعل تعقد هذه العلاقة يتكشف بوضوح لو ضربنا لها مثيلا مستمـدا من بلد التعصب المتسق والمنظم ، أعنى من الولايات المتحدة : فقد راعنى فى الأيام الأولى من زيارتى لهذا البلد أن أجد كثيرا من الشرقيين يتحدثون عن الزنوج بنفس اللهجة التى



يتحدث بها الامريكيون عنهم ، ويتجنبون الأحياء والمساكن التى يسكنها « الملونون » ، مع أن بلادهم الأصلية تتخذ موقفا مستنيرا من مشكلة الاضطهاد العنصرى ، وتنتقد الأمريكيين البيض انتقادا مرا على تعصبهم • وحين أتيحت لى فرصة الاطلاع عن كثب على أحوال الزنوج ، تكشف لى السبب بوضوح : فقد وجدت فى حياتهم بالفعل عناصر منفرة ، وكانت الأحياء التى يسكنونها أقذر من أحيـاء البيض الى حد يدعـو الى الاشمئزاز ،كما كان مسلك الكثيرين منهم ، على المستوى الشخصى ، ينم عن قـدر غير قليل من الانحلال •

عند هذا المظهر الانحلالى يتوقف التفكير الذى يسير فى اتجاه واحد ، فيحكم على الأقلية الزنجية بالشر الكامن ، ويجد مبررا للتفرقة التى تمارسها الأغلبية البيضـاء ضدها • ولكن التفكير الجدلى يستطيع أن يتوصل ، من وراء هذا المظهر السطحى ، الى التعقد والتشابك الحقيقى الذى تنطوى عليه علاقة التعصب • فانحطاط الزنجى ليس سببا للتعصب ضده فحسب ، بل هو قبل ذلك نتيجة لهـذا التعصب • وممارسة التعصب تزيد من تدهور الجماعة التى يمارس ضدها التعصب ، وبذلك تكتمل عناصر الحركة الجدلية فى علاقة التعصب : اذ أن من يمارس الاضطهاد يعمل — عن وعى أو بغير وعى — على ابقاء من يضطهده فى حالة يكون فيها جديرا بان يضطهد ، وكلما ازداد الاضطهاد وطال أمده ، اشتد التدهور الذى يبرر الاضطهاد ويخلق له المعاذير ، وازداد التباعد والاستقطاب بين طرفى علاقة التعصب •

ومثل هذا يقال عن شكل آخر من أشكال التحامل : هو اتهام الأقليات بالتقوقع والتساند والتكاتف فيما بينها ، على حساب تعاونها وتضامنها مع الأغلبية • ففى هـذه الحالة بدورها تؤدى ممارسة الأغلبية للاضطهاد الى رد فعل لدى الأقلية يتمثل فى مزيد من الانطواء على ذاتها والحرص الشديد على مصالح أفرادها ، وهذا الحرص يدفع الأغلبية الى مزيد من الاضطهاد ، فتقابلها الأقلية بمزيد من الأفعال « الدفاعية » التى تزيد من

كراهية الأغلبية لها ، وهكذا تتوالى الحركة الجدلية حتى تصل الى تضاد بين قطبين لا سبيل الى التوفيق بينهما ٠

فهل لا يوجد سبيل لكسر هذه الحلقة المفرغة ؟ وهل يتحتم أن يظل طرفا هذه العلاقة فى تباعد وتنافر يتزايدان بلا انقطاع ؟ ان المنطق السليم يقنعنا بأن المشكلة ليست مما يستعصى حله ، وبأن هذا الحل لابد أن يبدأ بجهود تبذلها الأغلبية - لا لأنها هى الأفضل ، بل لأنها هى المسيطرة ، وهى التى تملك زمام المبادرة ٠ فمن المؤكد أن تسير الحركة الديالكتيكية فى الاتجاه العكسى ، وأن يتضاءل التباعد والتنافر ، اذا خطت الأغلبية خطوة تقربها من الأقلية ، وتعيد اليها ثقتها بنفسها ، وعندئذ يحق لنا أن نتوقع خطوة مماثلة من الطرف الآخر ، ويستمر التقارب باطراد ، فيسحق فى طريقه بذور التعصب ٠

***

ان من الشائع ، عند تحليل الهيكل البنائى للتعصب ، أن يقال أن التعصب ينشأ عند الأغلبية ضد الأقلية أولا ، وأن تعصب هذه الأخيرة ليس الا رد فعل دفاعيا تقوم به لحماية نفسها من الاضطهاد الذى تمارسه عليها الأغلبية ٠ ولا جدال فى أن هذا النمط ينطبق بالفعل على الأغلبية الساحقة من حالات التعصب التى عرفها تاريخ البشرية ٠ غير أن هناك حالات قليلة يكشف التحليل الجدلى عن خروجها على هذا النمط المألوف : أعنى حالات يبدأ فيها التعصب لدى الأقلية ، وتضطر الأغلبية الى القيام بردود فعل دفاعية ضدها ، أو الى ممارسة تعصب مضاد أشد عنفا من التعصب الأصلى ٠

وقد شهد عصرنا الحاضر نموذجا فريدا لهذا اللون من التعصب فى روديسيا وفى جنوب أفريقيا ، حيث تمارس أقلية بيضاء من أصل أوروبى اضطهادا جماعيا شاملا ضد أغلبية أفريقية من سكان البلد الأصليين ٠ ذلك لأنه ، على الرغم من وجود أوجه تشابه قوية بين هذا النوع من الاضطهاد العنصرى وبين نظيره فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فان بينهما فارقا بنائيا لا يصح تجاهله ، هو أن الأول تعصب عدوانى من الأقلية تجاه الأغلبية ، على حين أن الأغلبية فى الحالة الثانية هى التى تمارس التعصب على أقلية مغلوبة على أمرها ٠ ولا شك فى أن تعصب الأقلية ضد الأغلبية أشد ألوان التعصب شراسة ، اذ أن هذه الأقلية تدرك أنها - من الوجهة العددية على الأقل - فى مركز الضعف ، ومن ثم فهى تعوض ضعفها باتخاذ جميع التدابير الكفيلة بابقاء الأغلبية المضطهدة فى حالة لا تسمح لها بالانقضاض عليها ٠ ومن هنا كانت أقسى أنواع التعصب العنصرى التى يعرفها عصرنا الحاضر هى تلك التى تمارسها الأقلية الحاكمة فى روديسيا وجنوب أفريقيا ضد الأغلبية الملونة من سكان البلاد الأصليين ٠

على أن تاريخ اليهودية يمكن أن يعد مثلا صارخا ، امتد عبر مئات طويلة من السنين ، لهذا اللون الفريد من تعصب الأقلية ضد الأغلبية ، ومن الجدير بالذكر أن الأقلية اليهودية لم تكن ، فى أية حالة من الحالات ، أقلية حاكمة مسيطرة على زمام الدولة ، كما هى الحال بالنسبة الى الأوروبيين فى روديسيا وجنوب افريقيا ، وانما كانت



أقلية ضعيفة ، من الوجهة السياسية ، ومع ذلك فقد كانت وهي في حضيض الضعف تمارس نوعا من الاستفزاز يدفع المجتمع الذى توجد فيه الى اضطهادها رغما عنه .

ذلك لأن أسطورة شعب الله المختار ، مهما قيل عنهـا ، تقوم بدور حقيقي في التراث اليهودى ، صحيح أن المستنيرين من أبناء هذا التراث يحاولون تفسيرها بمعان غير عنصرية ، ولكن هناك شواهد قاطعة على أن هذه الأسطورة تكون جزءا لا يتجزأ من التكوين العقلى لليهودى العادى ، وتدفعه الى أنواع من السلوك لابد أن تؤدى آخر الأمر الى التصادم بينه وبين مجتمعه .

وحتى لو قيل ان المجتمع يتخذ الأقلية اليهودية الموجودة فيه « كبش فداء » يفرغ فيه شعوره بالخيبة أو اليأس أو الاخفاق - وهو أمر لا يمكن للباحث الموضوعى أن ينكر حدوثه فى حالات معينة على الأقل - فان وقوع الاختيار على الأقلية اليهودية بالذات ، طوال ألوف السنين ، لكى تكون « كبش الفداء » هذا ، هو أمر يدعو الى التامل العميق ، ويدفعنا الى البحث عن جذور التعصب فى هذه الأقلية ذاتها ، قبل ان نبحث عنها فى المجتمع المحيط بها .

فالتحليل الجدلى لظاهرة الاضطهاد العنصرى لليهود يثبت لنا أن هذا الاضطهاد

فى حقيقة الأمر رد فعل من جانب الأغلبية على الأقلية ، انه فى حقيقته اضطهاد مضاد أما الاضطهاد الأصلى فهو ذلك الذى تمارسه الأقلية اليهودية ـ وهو بطبيعة الحال اضطهاد صامت مستكين حين تكون هذه الأقلية فى مركز الضعف ، ولكنه ينقلب الى وحشية مخيفة حين تتحول الى مركز القوة ، كما هى الحال فى مذابح فلسطين المشهورة ... وعلى ذلك ، فلو شئنا أن نصحح الرأى الشائع عن التعصب ضد اليهود ، لقلنا عنه انه تعصب مضاد ، أو انه فى معظم حالاته رد فعل ، أما الفعل الأصلى ، والتعصب الأساسى ، فيرجع الى خرافات وأساطير استفزازية عنيدة ظلت على الدوام تكون جزءا لا يتجزأ من التراث اليهودى .

ولعل أبلغ دليل على ما نقول هو أن اليهود ـ مهما كان مقدار ضعفهم فى مجتمع ما ـ يرفضون الاندماج فى هذا المجتمع ، ويعدون هذا الاندماج علامة على انهيارهم ، فيعملون على مقاومة هذا الانهيار بكل ما يملكون من قوة . ذلك لأن الاندماج فى الأغلبية والحصول على نفس حقوقها على قدم المساواة هو الحلم البعيد الذى تكافح من أجله الأقليات المضطهدة فى جميع أرجاء العالم ـ وحسبنا شاهدا على ذلك كفاح زنوج أمريكا فى سبيل المساواة فى فرص العمل والتعليم والحقوق السياسية ، وسعيهم الدائب من أجل أن يسمح لهم المجتمع بأن ينصهروا فيه ويكونوا جزءا لا يتجزأ منه ، أما فى حالة الأقلية اليهودية فان الاندماج يعد فى نظرها أفظع الجرائم التى يمكنها أن ترتكبها فى حق ذاتها ، انه خيانة للتراث اليهودى ، وضياع لكل ما هو مميز «للشعب المختار» . ومن هنا كانت صعوبة التعامل مع الأقليات اليهودية ، وحتمية تحول هذا التعامل الى اضطهاد حتى فى المجتمعات التى لم تكن تنوى ممارسة هذا الاضطهاد أصلا : اذ أن هذه المجتمعات لو منحت الأقلية اليهودية حقوقها المتساوية وعملت على ادماجها فيها واذابتها ذوبانا تاما ، لقوبل هذا الادماج بمقاومة عنيفة منها ، ولو تركتها تعيش على هامش الجماعة الكبيرة لارتفع صراخها بالشكوى من الاضطهاد !

وواقع الأمر أن وجود نوع من الاحساس بالظلم والاضطهاد كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من القوة الدافعة التى ساعدت اليهود على التماسك والاحتفاظ بتراثهم على مر العصور ، واذا وعينا هذه الحقيقة جيدا ، لتبين لنا أن الوصول الى تسوية نهائية على أساس التعايش السلمى مع دولة قائمة على أساس عنصرى مثل اسرائيل ، هو أمر يكاد يكون فى حكم المستحيلات ، ليس فقط بسبب الأطماع المتزايدة التى تنتمى الى صميم بناء هذه الدولة ، بل لأن قادتها يدركون ان حالة السلام الدائم هى أكبر خطر يمكن أن يتعرض له كيان الشعب اليهودى فى اسرائيل . فهذه الحالة كفيلة بأن تقضى على الدينامية العدوانية النشطة لدى هذا الشعب ، وتهدد تماسكه الداخلى وتضامنه مع الطوائف اليهودية فى الخارج ، وتمزق المتناقضات التى ينطوى عليها هذا التجمع المصطنع الذى لا يوحده الا الشعور بالخطر . ولما كانت تصريحات القادة اليهود ، على مر العصور ، تكشف عن وعيهم المكتمل بهذه الحقيقة ، فاننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بأن دولة مثل اسرائيل لن تكف عن اثارة القلاقل والمشاكل من حولها ، حتى لو تهيأت لها فى المنطقة كل أسباب السلام ، وذلك على الأقل من أجل الاحتفاظ بتماسكها وفاعليتها عن طريق الاحتفاظ بجذوة الاحساس بالخطر متقدة على الدوام .

***

وأخيرا ، فلعل اهم الأسئلة التي يثيرها التفكير الجدلي في ظاهرة التعصب ، هو السؤال عما اذا كان التعصب منتميا الى البنـــاء الأعلى Superstructure ، أم الى البناء الأدنى أو الأساس infrastructure ، أعني عما اذا كان التعصب ظاهرة تفسر بذاتها ، أم لا تفهم الا من خلال ظواهر أخرى أكثر أولوية منها •

ونستطيع أن نقول ، بوجه عام ، أن التعصب كان يفسر بذاته في العصور القديمة التي كانت كل الأسس فيها خافية ، وكانت الأبنية العلوية فيها هي كل شيء • أما في عصرنا هذا ، عصر الكشف عن الأسس الخبيئة ، وفضح الأسباب الحقيقية المستورة ، فقد أصبح التعصب يرد دائما الى أصول أخرى أسبق منه وأقدر على تفسيره •

ولقد قام علم النفس بدور هام في الكشف عن الجذور العميقة للتعصب في النفس البشرية وسوف يجد القارىء بين مقالات هذا العدد ايضاحا كافيا للجهود التي قام بها علم النفس في هذا الصدد • ولـكن الذي يعنينا هنا هو أن تفسيرات علم النفس ذاتها تعد في نظر الكثيرين منتمية الى البناء العلوى ، على الرغم من أنها تتركز على الجـذور الخفية ، اللاواعية ، لظاهرة التعصب • أما البناء الأساسي ، الذي يقدم تفسيرا كافيا لهذه الظاهرة ، فهو في نظر هؤلاء البناء الاقتصادي • فالتعصب ، تبعا لهذا التفسير لا يعدو أن يكون مظهرا من بين مظاهر استغلال الانسان للانسان ، سـواء في المجتمع الزراعي أم في المجتمع الصناعي • انه التبرير الأيديولوجي للاضطهاد الواقع على فئات معينة يستغل المجتمع طاقتها دون أن يمنحها حقوقها المشروعة •

وليس في وسعنا أن نجزم ان كان هذا التفسير صالحا للانطبـاق على كل حالات التعصب التي شهدها البشر على مر التاريخ ، ولكن الأمر المؤكد هو أن النظرة الفاحصة الى مظاهر التعصب في عالمنا المعاصر تقنعنا بأن هذا هو التفسير الأكثر انطبـاقا على الواقع الذي نعيش فيـــه ، فالحكم على الزنوج بالدونيــة هو الذي يجعل الأغلبيـــة البيضاء في أمريكا ، والأقلية البيضاء في روديسيا وجنوب أفريقيا ، تستغل عملهم بأبخس الشروط ، وتبرر لنفسها ذلك بضمير مستريح • والاعتقاد بأن الشعب اليهودي شعب مختار وعده الله منذ ألوف السنين بأرض فلسطين هو الذي يبرر للصهيونية طرد العرب من ديارهم واستغلال من بقي منهم أسوأ استغلال بوصفهم مواطنين من الدرجة الثـانية •

***

فاذا صح أن التعصب ، في عالمنا المعاصر ، هو في أساسه تبرير ظاهري لعلاقة الاستغلال التي تمارسها فئـة قوية على فئـة أخرى تحتل ـ لسبب أو لآخر ـ مركزا أسوأ ، كانت النتيجة الحتمية المترتبة على هذا هي أن الكفاح ضد التعصب لا يمكن أن يكون كفاحا اصلاحيا يتم على مستوى الوعظ الأخلاقي ، بل هو في أساســه كفـــاح أيديولوجي واجتماعي وسياسي يؤلف جزءا لا يتجزأ من اطار أوسع ، هو نضال الانسان المعاصر في سبيل التحرر من كافة أشكال الاستغلال •

ثورة القرن العشرين على المذاهب العنصرية في القرن التاسع عشر

لعل من غريب المصادفات أن يكون أكبر داعية من دعاة التفرقة العنصرية ، مفكرا فرنسيا انتسب ـ بحكم مولده ، وجنسه ، وبيئته ـ الى « الحضارة الفرنسية » التى طالما نادت بالحرية والاخاء والمساواة ! ولعل من عجيب المفارقات أيضا أن يكون واضع الأصول الأولى للفلسفة النازية العنصرية هو هذا الرجل الفرنسى الذى لم يكن يمت الى الأصل الألمانى بأدنى سبب ٠٠ أما هذا المفكر الجرىء الذى أخذ على عاتقه هدم مبدأ المساواة ، فى مجلداته الأربعة الضخمة التى نشرها فى الفترة مابين عام ١٨٥٣ وعام ١٨٥٥ ، تحت عنوان : « **رسالة فى تفاوت الأجناس** » فهو الفيلسوف الفرنسى الهيجلى الملحد : **آرتور دى جوبينو** A. de Gobineau (١٨١٦ ـ ١٨٨٢) ٠ **وقد حاول جوبينو فى هذه الدراسة أن يحذو حذو الهيجليين فى اثبات تفوق الأجناس الجرمانية (الشمالية) على غيرها من الأجناس ، ولكن لا بطريقة جدلية مثالية ، بل بطريقة فيزيائية واقعية ٠ ولم يقتصر جوبينو على القول بانعدام التساوى بين السلالات البشرية ، بل لقد اعتبر الجنس الأوروبى أرقى الأجناس ، وجعل على رأس هذه الأجناس جميعا الجنس الجرمانى (الأشقر)** وكانت حجته فى ذلك أن الجنس الجرمانى ـ فى ذاته ـ هو الذى يخلع على أهله ضربا من التفوق الجسمى والمعنوى ، وبالتالى فان من حق هذا الجنس أن يقود العالم !

ولم يجد جوبينو أدنى حرج فى القول بأن من حق الجنس الأوروبى ـ باعتباره أرقى الأجناس ـ أن يتحكم فى الأجناس الأخرى ـ باعتبارها أجناسا سفلى ـ ! ولو أننا أردنا للمدنية الحديثة ـ فيما يقول جوبينو ـ أن تقوم على تحقيق التماثل بين سائر البشر ، لانتهينا الى ضرب من الانحلال (أو الانحطاط العام) : لأننا عندئذ سنجد أنفسنا بازاء نزعة انسانية وهمية تقول بوجود « تطابق » تام بين العقول البشرية ، ولكنها فى الوقت نفسه تفضى الى الخلط بين الأجناس خلطا شائنا يضع الأجناس العليا فى خدمة الأجناس السفلى !



د. زكريا ابراهيم

والحق أن هذا الخلط ـ فيما يقول جوبينو ـ لم يكن يوما سوى مجرد قضاء على القيم النبيلة : بدليل ان الامتزاج الذى تم فى عهد الاسكندر الاكبر لم يكن الا سببا فى انهيار الحضارة اليونانية الرومانية ! وأما المحاولات قام بها المحدثون ، من أجل تمدين الشرق ، أو حمل الثقافة الغربية الى أهل البلدان المتخلفة فى شتى بقاع العالم ، فهى – فى رأى جوبينو – مجرد محاولات يائسة لم تلبث فى النهاية أن باءت بالفشل ! ومن هنا فان المناداة بحضارة انسانية عالمية هى مجرد « حلم خيالى » تكذبه خبرة الشعوب الأوروبية فى بلدان الشرق ! والأدنى الى الصواب ـ فيما يزعم جوبينو ـ أن نعمل على تكوين صفوة أرستقراطية مختارة ، تضم تلك القوميات التى تنتسب الى أرقى الأجناس !

ولم يكن من الغريب أن يبقى اسم جوبينو مجهولا فى فرنسا ذاتها ، فما كان لمعقل الثورة الفرنسية أن يتقبل مثل هذه الفلسفة العنصرية المتطرفة التى حملت بشدة على كل نزعة انسانية تقول بالمساواة . والظاهر أن جوبينو نفسه لم يلبث أن فطن الى استحالة ذيوع فلسفته بين بنى قومه، بدليل أنه كتب الى أحد أصدقائه (عام ١٨٥٦) رسالة يقول فيها : « ترى هل كتب على أن أنتظر ريثما يقدر لآرائى أن تعرف طريقها الى فرنسا ، مترجمة عن اللغة الانجليزية أو اللغة الألمانية ؟ » . ولم يجانب جوبينو الصواب : فان صيته قد ذاع ـ فى ألمانيا ، حتى لقد تأسست فيها جماعة عرفت باسم « جماعة جوبينو » أخذت على عاتقها أن تقنع الألمان ـ وهؤلاء لم يكونوا فى حاجة الى اقناع طويل ـ بأنهم أرقى الأجناس ، وأنهم أنقى سلالة من سلالات الآريين . ثم ظهر نيتشه فحاول أن يدافع عن عقيدة امتياز الجنس الآرى ، وترددت على لسانه آراء شبيهة بما ذهب اليه جوبينو ، خصوصا فى قوله بارستقراطية الاجناس ، وبامكان قيام جنس أعلى ، أو نوع راق ، يكون جديرا بأن يطلق عليه اسم « الجنس الأعلى » أو « ما فوق الانسان » !

ظهور « انجيل العنصرية » على يد تشمبرلين

ولم تكد تمضى على اليوم الذى تأسست فيه « جماعة جوبينو » خمسة أعوام ، حتى ظهر كتاب ضخم يعد « انجيل العنصرية » ألا وهو كتاب « دعائم القرن التاسع عشر » (باللغة الألمانية) للكاتب الانجليزى هوستن ستيوارت تشمبرلين . وقد ولد تشمبرلين من أب انجليزى كان ضابطا كبيرا فى الجيش البريطانى ، ولكنه وقع تحت سيطرة بعض المؤثرات الالمانية ، فدفعه اعجابه بعظمة الجنس التيوتونى الى التخلى عن الجنسية الانجليزية ، والتجنس بالجنسية الالمانية . ولم يلبث أن اقترن بابنة ريتشارد فاجنر ، فأصبح يعد نفسه منذ ذلك الحين ألمانيا خالصا ينحدر من أصل ألمانى خالص ! وحينما نشر تشمبرلين كتابه الذى أودعه دفاعه الحار عن العنصر الجرمانى ، لقى هذا الكتاب رواجا كبيرا ، وأثنى عليه الكثير من النقاد ، حتى لقد قيل ان القيصر نفسه كان يقرأ هذا الكتاب على أبنائه ، كما كان يقدمه لضباطه ويأمرهم بأن يعملوا على نشره بين أرجاء الوطن الالمانى الكبير ! وحسبنا أن نعود الى كتاب « كفاحى » الذى ألفه هتلر ، لكى ندرك الى أى مدى أثر كتاب تشمبرلين على زعيم الحركة النازية فى ألمانيا .

والفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا الكتاب الضخم هى أن الحضارة الحديثة — فى أوروبا كلها — وليدة العمل الذى قام به التيوتون : أعنى أنها ثمرة للعمل الجرمانى الآرى . فالعنصر الجرمانى قد استطاع أن يمزج الحضارات المختلفة (من يونانية ورومانية وغيرها) ، وعن هذا المزج اجتمعت له مدنية قوية اقام على دعائمها حضارة القرن التاسع عشر . وكما أن حضارتنا الحديثة ليست الا ثمرة للامتزاج الذى حدث بين العناصر الجرمانية القديمة فكذلك التيوتون هم أيضا ليسوا الا ثمرة للامتزاج الذى حدث بين العناصر الجرمانية القديمة ، والسلافية ، والسلتية . وأنقى مزيج لهذه العناصر الثلاثة هو ذلك الذى نجده فى ألمانيا ، ولهذا فقد كان الالمان هم **الشعب المختار** !

وليس ثمة أمارات جسمية خاصة تميز الجنس الألمانى : فليس بلازم أن يكون الالمان طوال القامة أو زرق العيون ، أو بيض البشرة ، وانما هم يتميزون بصفات خاصة لا تمت بأدنى صلة الى تلك الصفات الجسمية المزعومة . « فالألمانى — كما يقول تشمبرلين — انما هو ذلك الذى تدل أفعاله على أنه ألمانى ، كائناً ما كان الأصل الذى ينتسب اليه » !

تشمبرلين يحمل على الجنس اليهودى

ولكن ، ما هى أظهر الصفات التى يتميز بها الطابع الألمانى ؟ انها ليست سوى الايمان الراسخ بمبدأ الزعامة المقدسة : أعنى الخضوع للزعيم خضوعا مطلقا ، واطاعة أوامره طاعة عمياء . فلو وجدنا هذه الخصلة لدى الايطاليين أو الفرنسيين ، لكان علينا أن ندخل هؤلاء أيضا ضمن جماعة « التيوتون » ، مهما تكن موطنهم الأصلية التى ولدوا فيها .. وعلى ذلك فان الجنس — فى رأى تشمبرلين — خلق أو طباع ، لا مجرد دم أو وراثة . واذا غير **نفسيته العنصرية** Racial psychology ، فانه يكون بذلك قد غير أيضا جنسه أو عنصره . « وليس أيسر على الانسان من أن يصبح يهوديا : اذ حسبه فى هذا أن يديم الاتصال بجماعة من اليهود ، وأن يطالع الصحف اليهودية » !

بيد أن تشمبرلين يعود فيقول :

« ان الرجل الذى ينتسب الى جنس نقى خالص لا يمكن أن يفقد شعوره بالعنصر الذى ينتسب اليه مطلقا . والسبب فى ذلك أن ثمة ملاكا حارسا يذكره دائما بعنصره ، ويرافقه دائما فى حله وترحاله ، ويحذره حينما يتهدده خطر الضلال ، ويجبره على الطاعة ، ويضطره الى القيام بكثير من



نيتشة

الأعمال الجليلة التى ما كان يجرؤ على القيام بها • فالجنس (أو العنصر) يعلو بالانسان على نفسه ، ويمده بقوى غير عادية ، بل بقوى خارقة للطبيعة وانها لحقيقة أكيدة تظهرنا عليها التجربة المباشرة أن لنوع الجنس أهميـــة كبـيرة ، وقيمـة حيوية عظيمة » •

والأجنـاس البشرية ــ فى نظر تشمبرلين ــ مختلفة أشد الاختلاف ، ان فى الخلق والصفات أو فى القوى والملكات• وقد ترتب على هذا الاختلاف أن أصبح هناك جنس راق يتميز بصفات «فطرية» سـامية ، وجنس منحط يتسم بصفات «فطرية» وضيعة • **ومن الأجناس المنحطة التى تنتسب الى النوع الأخير ــ فيمـا يرى تشـمبرلين ــ الجنس اليهودى• وآية ذلك أن اليهود هم الشعب الذى لم يستطع يوما أن يعيش على وفاق مع أى شعب آخر من أجل ذلك فقد ظلوا دائما أبدا « شعبا غريبا أجنبيا بين كل الشعوب ••• »** • وقد استجاب الأوروبيون لداعى المحبة والاخاء ، ففتحوا الأبواب أمام اليهود ، وعندئذ لم يلبث اليهود أن اندفعوا كماينـدفع العدو المنتصر ، **فاكتسحوا كل المناصب واستلبوا جميع المراكز** ، ثم رفعوا من بعد **أعلامهم التى هى غريبـة عنا كل الغـرابة** (على حد تعبير تشمبرلين) •• « **والحق أنه أينمـا تركت القـوة لليهود ، فانهم لابد من أن يسيئوا استعمالها•• أليس اليهود هم ذلك الشعب الذى جعلت منـه طبيعته جنسا ميالا الى الربا والجشع والطمع ، فى حين أن شريعة موسى تحرم الربا تحريما قاطعا ؟• ان اليهودى لهو من الـكراهية للرجل الأوروبى ، بحيث أن صغار الأطفـال الذين لم تؤثر بعـد الحضارة فى نفوسهم ليقدرون ان يشموا رائحـة اليهودى عن بعد » •**

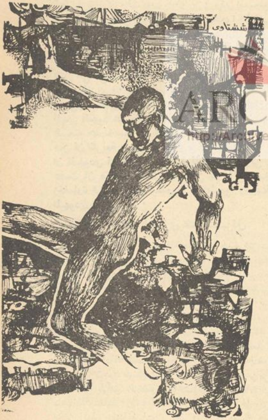
اخطاء المذهب العنصرى عند تشمبرلين

ولو أننا ألقينا نظرة فاحصة على هذه المزاعم الكثيرة التى ذهب اليها تشمبرلين ، فقد لا نجد صعوبة كبرى فى الوقوف على المتناقضات العديدة التى تردى فيها ــ ان من حيث يدرى أم من حيث لا يدرى ــ فهو أولا قد قال ان الجرمان هم أرقى البشر ، لأنهم ثمرة لخير امتزاج تم بين « الأجناس النبيلة » ، ولـكنه لم يلبث أن قال ان جـلائل الأعمال وقف على أهل (الاجناس النقية الخالصة) ثم عاد بعد ذلك فقـال ان من الممكن أن يتغير الجنس ، لا عن طريق امتزاج الدماء فحسب ، بل أيضا عن طريق الاتصال الاجتماعى بشعوب ذات (عقلية بدائية) • والظاهر أن تشمبرلين لم يكن يحفل بهذه المتناقضات ، فان ما كان يعنيه هو أن يجد **أسطورة** يستلهمها مبدأ العنصرية الذى يدعو اليه ، دون أن يشغل نفسه ــ ان فى كثير أو قليـل ــ بضـمان التوافق المنطقى لمذهبـه العنصرى ! وقد اهتم كثير من علماء الأجناس بالكشف عما فى هذه المزاعم من أخطاء علمية ، ومغالطات تاريخية ، ولكنهم لم يجدوا حرجا من الاعتراف بأن قوة هذه الفكرة العنصرية لم تكن ترجع الى صدقها أو مطابقتها للواقع ، بل كانت ترجع الى ما فيها من قدرة على التأثير • ولا غرو ، فقـد أثبت التـاريخ البشرى أنه كثيرا ما تكون الفكرة الخاطئة نفسها ، قوة كبيرة توجه شعوبا بأكملها ، فتنقاد لسحرها فى حماسة وقوة ، دون أن تدرك ما فيها من خطأ ، وما يشـوبها من العنـاصر الأسـطورية • وهكذا كانت دعـوة تشـمبرلين العنصرية هى الوحى الكبير الذى استلهمه رجالات النازية ، وكأنها الانجيل الجديد الذى آمن به الشعب الألمانى فى تقديسه للزعامة الهتلرية !

والواقع أن الحضارة الغربية قد بقيت ــ الى عهد غير بعيد ــ أسيرة لأوهام الجنس ، بدليل أن أهل النرويج كانوا الى عهد قريب يتحدثون عن عداوتهم لأهل السـويد ، وكأن هؤلاء وأولئك لا ينتسبون الى جنس واحد بعينه ، كما ظل أهل انجلترا يكنون العداء لأهل ايرلنده ، كما لو لم تكن دماء واحدة هى التى تسرى فى عروق هؤلاء وأولئك ، فضلا عن اندلاع نار الحرب بين أهل بادن وأبناء الألزاس (خلال الصراع الذى قام بين الألمان والفرنسيين) على الرغم من انتماء كل منهما الى فرع واحد من فروع الجنس الألبى •• الخ• ولم يكن من شأن الزيجات المختلطة التى طالما تمت بين الأجناس الأوروبية عبر التاريخ الغربى الطويل أن تخفف من حدة تلك العداوات الجنسية ، بل ظلت العقلية الأوروبية أسـيرة لـ «**انجيل الجنس النقى**» gospel of the pure race على الرغم من قيام الشواهد العلمية العديدة على بطلان ذلك الزعم !

وقد كان من بين العوامل التى أدت الى تفاقم **الروح العنصرية** فى العالم الغربى ازدهار الدراسات الأنثروبولوجية : فقد اهتم الباحثون الاجتماعيون بدراسة المجتمعات البدائية ، والوقوف على عادات أهل الحضـارات المتخلفة ، وخرجوا من هـذه الدراسات بنتيجة هامة مؤداها أن ثمة **عقلية بدائية** mentalité primitive (على حد تعبير ليفى بريل : Lévy-Brühl) تميز أهل تلك الحضارات، وأن هذه العقلية لا تعرف « المنطق » التقليدى

الذى تخضع له العقلية الأوروبية ! وراق للبعض منهم أن يرجع اختلاف الحضـــارات الى اختلاف السـلالات ، فكان من ذلك أن تأصل **وهم الجنس** فى أذهان الكثيرين ، حتى لقد خيل الى البعض أن ثمة سمات بيولوجية معينة هى التى تتحكم فى أنماط الثقافات المختلفة ، وكأن طول القامه أو قصرها ، وبياض البشرة أو سوادها ، وتفرطح الأنف أو تدببهـــا (وغير ذلك من السـمات البيولوجيــة) هى السر فى تنوع الحضـــارات واختلاف العقليات! وفات هؤلاء أن الثقافة culture ظاهرة اجتماعية لا شـــأن لها بخطوط الطول والعرض ، ولا علاقة لها بمسائل الجنس واللون والدين ... الخ . فما كان لأى مجتمع بشرى أن يقوم على بعض الآليات البيولوجية الصرفه ، أو أن يخلو تماما من كل أثر من آثار التنظيم الاجتماعى . ومن هنا فقد راح علماء الاجتماع - فى مطلع القرن العشرين - يحملون على التصورات الجنســية الصرفة ، ويعملون على تفنيد مزاعم المؤمنين بانجيل العنصرية ، مستندين فى ذلك الى دراســات علمية دقيقة ، آخذين على عاتقهم تبديد ذلك الوهم القائل بارتباط أنماط السلوك البشرى بأية صورة محددة من صور « التركيب البيولوجى » .



... « الثقافة » - لا « الدم » - هى مفتاح فهم السلوك البشرى

وهنا قد يحق لنا أن نتوقف وقفة قصيرة عند بعض الدراســات الاجتماعيه الحديثة لأنماط الثقافة ، حتى نقف على الدور الكبير الذى قامت به هذه الدراسات فى زعزعة « وهم الجنس » ، والكشـف عن زيف مزاعم أهل « العنصرية » . والحق أن اهتمام الباحثين الاجتماعيين بدراسة الحضارات البدائية لم يلبث أن أقنعهم بانه ليس ثمة مجتمعات بشرية تصـدر فى سلوكها عن « آليات بيولوجية » صرفة ، وكأن أنماط تنظيمها الاجتماعى ، ولغتها ، وديانتهـا ، وعاداتهـا ، متضمنة منذ البداية فى صـميم تركيب خلاياها الأصلية ! ولو كان للتفسير الجنسى أو البيولوجى أى أساس علمى ، لكان فى استطاعتنا أن نفهم أية ظـاهرة اجتماعية بردها الى أصـــولها الفسيولوجية فى تكوين أصحابها . ولكن التجربة العلمية لم تكشف عن وجود أى اختلاف فى نظام « الأيض » metabolism ، أو فى افرازات الغدد الصماء (أو ما الى ذلك) ، بين جماعة وأخرى ، أو بين جنس وآخر ! ولو أن علماء الأحياء ، ووظائف الأعضاء ، والتشريع ، وعلم الأجنة ، استطاعوا أن يثبتوا لنا - بحق -

وجود « اختلافات فسيولوجية » جوهرية بين أهل الجماعات المختلفة ، أو بين أبناء الأجناس المتنوعة، لكان في وسعنا أن نفسر « **التاريخ الثقافى** » للبشرية بأسرها ، عن طريق العودة الى الدراسات البيولوجية للأجناس البشرية المختلفة • ولكن أحدا لم يستطع — حتى الآن — تفسير اختلاف الأنماط الثقافية للجماعات البشرية بردها الى عوامل « الوراثة الجنسية » • وربما كان فى استطاعتنا أن نمضى الى حد أبعد من ذلك فنقول — مع بعض الباحثين الاجتماعيين — بأن مفهوم « **الوراثة الجنسية** » : Racial inheritence أدخل فى باب « الأسطورة » منه فى باب « الحقيقة العلمية » • فالوراثة ظاهرة علمية تصدق على العائلات والجماعات الصغيرة ، ولكنها لا تكاد تعنى شيئا حين نكون بصدد شعوب بأسرها أو مجتمعات كبيرة (منتشرة فى أرجاء شاسعة من الأرض) • فليس هناك موضع للحديث عن « التجانس البيولوجى » لأية جماعة من الجماعات، خصوصا فى عصر لم يعد فيه للجنس النقى أى وجود !

وقد لا نجانب الصواب اذا قلنا ان ما يجمع بين أفراد أية جماعة من الجماعات ، ليس هو « **الدم المشترك** » ، أو « **الوراثة الجنسية** » المشتركة ، بل هو تقاسم الأفراد لأفكار مشتركة، ومعايير اجتماعية واحدة ، هى « **حضارتهم** » أو « **ثقافتهم** » التى تؤلف بين قلوبهم ، وعقولهم •• فليس السلوك البشرى ظاهرة بيولوجية تتكفل بتفسيرها عناصر الوراثة أو عوامل الجنس أو دوافع الغريزة ، بل هو ظاهرة اجتماعية تخرج عن كل « **اطار بيولوجى** » أو « **فسيولوجى** » صرف ، لأنها تستند — أولا وبالذات — الى القيم الحضارية والمعايير الجمعية وشتى أنماط الثقافة• وليس أدل على صحة ما نقول من أن الأطفال الشرقيين الذين تتبناهم بعض الأسر الغربية ، ينشأون فى أوساطهم الاجتماعية الجديدة كما ينشأ غيرهم من أبناء تلك البيئات ، ويتصرفون فى شتى المواقف كما يتصرف غيرهم من الأطفال الأصليين المولودين فى المجتمع الغربى • فهؤلاء الأطفال يعتنقون السمات الثقافية المميزة للمجتمع الغربى ، ولا يبدو عليهم أى أثر من آثار المجتمع الشرقى الذى هو فى الأصل مجتمع آبائهم وأجدادهم • وليس أدل على خطأ الزعم القائل بأن « **الثقافة هى مجرد مركب بيولوجى موروث** » ، من أن شعوبا بأسرها قد استطاعت عبر التاريخ أن تعتنق حضارة شعوب أخرى مختلفة عنها تماما من حيث الجنس أو اللون أو الموقع الجغرافى •• الخ • فليس فى التكوين البيولوجى للانسان ما يلزمه باعتناق نمط معين من أنماط السلوك ، أو ما يضطره الى اصطناع أسلوب خاص من أساليب الحياة ! ولهذا فقد ذهب علماء الاجتماع المحدثون الى أن المنجزات الروحية والثقافية للحضارة الغربية لا ترتد بأى حال من الأحوال الى أى امتياز عضوى أو تفوق بيولوجى وراثى !

••• ليس ثمة فوارق جذرية بين العالم الغربى والعالم اللاغربى !

وهذه باحثة أمريكية معاصرة تحاول فى دراسة اجتماعية مقارنة الوقوف على « **طبيعة العالم اللاغربى** » :
فنراها تكرس العديد من الصفحات للحديث عن بلدان الشرق الأوسط ، والمجتمعات الأسيوية ، وحركة التحرر الافريقى ، وثورة الصين الشعبية، وموقف أمريكا اللاتينية من الحضارة الغربية ••• الخ ، لكى تخلص من كل هذه الدراسة الى القول بأن الحركات القومية فى العالم اللاغربى لم تجىء مؤيدة لصيحة الخطر التى أطلقها البعض فى مستهل القرن العشرين حينما حذروا من خطر « **امتداد موجات الملونين** » ، أو انتشار وباء « **الجنس الأصفر** » ! والحق أن شعوب العالم الأفرو — أسيوى لم تعد تتطلب من الغرب سوى الأخذ بيدها فى سبيل العمل على تحريرها من الجوع ، والفقر ، والمرض ، والأمية ، مع ترك الحرية لها فى اختيار نظامها السياسى ، وتحقيق التعاون بينها وبين برلمان الغرب على النحو الذى يتراءى لها • وقد عملت أنظمة المجتمع الدولى الحديث على خلق جو من الاخاء الانسانى بين شعوب العالمين الغربى واللاغربى ، فكان من ذلك أن فهم الانسان الغربى دوره الحيوى فى العمل على مساعدة الانسان الافريقى أو الأسيوى فى مضمار التصنيع والتقدم التكنولوجى والتخطيط الاقتصادى ••• الخ • ولا شك أن « وثيقة حقوق الانسان » قد كانت بمثابة اعتراف عالمى واضح بحقوق شعوب تلك المنطقة فى تحديد مصيرها ، واستغلال أراضيها ، وحكم نفسها بنفسها ، دون أن تكون لأية دولة أجنبية أدنى وصاية عليها ، و أى حق فى التدخل فى شئونها •••

وتختم فيرا مايكل دينز V.M. Deans دراستها القيمة للعالم اللاغربى بقولها : « **صحيح أن هناك تنوعا كبيرا بين الحضارات ، كما سيكون هناك دائما أبدا مثل هذا التنوع فى المستقبل ، ولكن من المؤكد انه ليس ثمة فوارق أساسية**

تفصـــل الموجـــودات البشرية التي تؤلف تلك الحضارات بعضها عن البعض الآخر • وســـواء أكانوا بيضا أم سودا ، حمرا أم صفرا ، هندوكيتين أم بوذيين ، مسيحيين أم مســـلمين ، وثنيين أم ملاحدة ، فان سكان العالمين الغربي واللا غربي — رجالا ونســاء — يصدرون في سلوكهم عن آمـال واحدة ، ومخاوف مشتركة ، ويستشعرون في قرارة نفوسهم مطامح مشتركة وقلقا مشتركا • وليس ثمة فارق أساسي يفصل العالم الغربي عن العالم اللاغربي ، اللهم الا اذا اســـتثنينا ذلك التقدم الزمني الذي ظفر به الغرب في مضمار المنجزات التكنولوجية • ولكن هذا الفارق نفسه قد أخذ يتضاءل الآن يوما بعد يوم ، وربما أمكن التغلب عليه تماما في المستقبل القريب ، حين تصبح الوسائل التكنولوجية الحديثة في متناول العالم اللاغربي على أكمل وجه • والحق أن الثورة الصناعية هي أكبر عامل للمســاواة في العصر الحديث : فانها لا تعرف اية تفرقة تقـــوم على اختلاف الجنس أو اللون • وهذا هو السبب في أنها تخدم كلا من الديموقراطية والشيوعية بفعالية متساوية ، دون ادنى تمييز • واذن فان الثورة الصناعية هي الكفيلة وحدها بازالة سائر الحواجز بين المتقدمين والمتخلفين • » (ص ٢٦٨ من الكتاب المشار اليه) • وأما اذا قيل ان الأسلحة النووية التي اخترعتها التكنولوجيا الغربيـــة الحديثـــة قد تصبح هي المسئولة يوما عن دمار العالم كله (أو على الأقل تحطيم وسائل التصنيع في المستقبل) كان رد الكاتبة الأمريكية على هذا الاعتراض أن على العالم اللاغربي الذي أنجب رجالا مثل غاندي (وغيره من دعاة الســلام) استخدم السياسة الأخلاقية المعادية للعنف non-violent moral suasion من أجل العمل على محاربة الأسلحة النووية بقوة ذلك السلاح الروحي الفعال •

••• اختفـــاء العنصرية الألمانيـــة بعد الحرب العالمية الثانية

••• بيد أننا لو قصرنا النظر على العـــالم الغربي نفسه ، لوجدنا أن الكثير من الباحثين — خصوصا ابان الحرب العالمية الثانية ، ان لم نقل قبلها وبعدها — قد ذهبوا الى التفرقة بين الجنس الألماني وغيره من الأجناس الأوروبية الأخرى ، بحجة أن العقلية الألمانية كانت وما تزال عقلية عنصرية تميل الى تمجيد الذات ، وحب الحروب ، والميل الى معاداة الآخرين ، والأخذ بأســـطورة القومية المتطرفة •• الخ •• ألم تكن ألمانيا هي البادئة بالعدوان في الحرب العـــالمية الأولى ، ثم في الحرب العالمية الثانية ؟ ألم ينصب الألمان من فردريك الثاني ، وبسمارك ، ثم هتلر من بعد ، أبطالا تعبدوا لهم ، ووقعوا تحت ســـيطرتهم ، وانقادوا لسحر زعاماتهم ؟ ألم تظهر في كتابات لوثر ، وفشته ، وهيجل ، ونيتشه ، وتريتشكه Treitschke ، واشبنجلر Spengler ، وغيرهم من مفكري الألمان ، نزعات اســـتبدادية جمـــاعية ، واتجاهات قوميـــة تدعو الى تمجيد الحرب ؟ (٢) •

••• لقد نشر الفيلسوف الأمريكي (الأسباني الأصل) سنتايانا santayana عام ١٩١٦ كتابا بعنوان : « **الصلف في الفلسفة الألمانية** » : وفيه يثبت لنا أن تاريخ الفلسفة الألمانية الحديثة ليس الا تاريخ **جنون العظمة** megalomania ، أو هذاء الاعجاب الشديد بالذات ! وكانت حجة سنتايانا في ذلك أنه الســـمة الأساسية التي اتسمت بها الفلسفة الألمانية في العصور الحديثة هي تأكيد التمركز الذاتي ، واعطاء الصـــدارة للذات على الكون • وسواء نظرنا الى فلســـفة ليبنتس في « المونادات » monades بوصفها عوالم صغيرة منفصلة متمركزة في ذاتها ، أم اتجهنا بأبصارنا نحو ثورة كانت الكوبرنيقية التي تعد العالم مشروطا بالقوى النقدية للذهن البشري ، أم ركزنا انتباهنا في مثالية فشته التي تقوم على الوعي الذاتي للفرد ، مع مايقترن به من وضع للأنا في مقابل اللا — أنا ، أم اهتممنا بدراسة مثالية هيجل التي تعمد الى التوحيد بين الفرد والكون عبر عملية الديالكتيك ، أم تحولنا الى النظر في فلســـفة نيتشه التي تفسر التفكير البشري كله باعتبـــاره مجرد حيلة أو صـــنعة في خدمة ارادة القوة ، فاننا في كل هذه الحالات لا نجد أنفسنا بازاء نزعة موضوعية تنظر الى الفرد البشري على أنه جزء صغير من أجزاء الكون ، بل بازاء نزعة ذاتية تقوم على الصلف والكبرياء والأنانية وتمجيد الفرد البشري ! صـــحيح أن مفكرا مثـــل جوته Goethe كان داعية من دعاة النزعة العالمية ، فضلا عن أنه كان من أنصار مذهب وحدة الوجود ، ولكن شخصية فاوست التي قدمها لنا لم تكن في الحقيقـــة سوى مجرد تعبير عن حركة الفرد الديناميكية التي لا تهدأ ، في سعيه المستمر نحو اشباع ذاته ، ومن ثم فان فكر جوته لم يخل من طابع ذاتي في قوله بتمركز الفرد حول ذاته •

ولكن ، هل نقول باســـتحالة تقويم الروح الألمانية ، بسبب هذه النزعات الذاتية ، والقومية ،

والعنصرية ، التى طالما سادت العقلية الألمانية ؟ كلا فقد جاءت جميع الشواهد – على أعقاب سقوط الحكم النازى واحتلال ألمانيا – مكذبة تماما لهذا الزعم • وآية ذلك ن ألمانيا التى أنجبت دعاة الحرية والسلام من أمثال هردر، وكانت ، وجوته، وشيلر ، وهمبولت Humboldt ، وغيرهم ، لم تلبث أن استجابت لدعاى الديموقراطية ، فتخلت عن أحلامها العسكرية وأوهامها العنصرية ، وأصبحت أقدر على تصحيح ماضيها وتوجيه مستقبلها • وليس من شك فى أن الروح الألمانية التى وقعت تحت سيطرة الحكم النازى (باتجاهاته العنصرية المتطرفة وجرائمه الحربية المستنكرة) هى بعينها الروح الألمانية التى استطاعت أن تدين مجرمى الحرب ، وأن تثور على جرائم الماضى ، وأن تتحرر تماما من براثن الحكم الاستبدادى المطلق ! •

هل تكون الصهيونية بعثا جديدا للعنصرية فى القرن العشرين ؟

وهنا قد يقول قائل : « اذا كان القرن العشرون قد شهد انهيار النازية الألمانية ، وفناء النزعات العنصرية الآرية ، فاننا نراه اليوم يشهد نزعة نازية جديدة قوامها الحركة الصهيونية العالمية ، ورائدها الدعوة العنصرية السامية ، على نحو ما تمثلها دولة اسرائيل فى الشرق الأوسط • » وليس من شك فى أن اليهود قد استغلوا عطف العالم عليهم ووقوفه الى جانبهم ضد شتى الحركات المعادية للسامية : anti-semitisme ، من أجل العمل على المضى فى سياستهم العدوانية ضد العرب ، وتنفيذ مخططاتهم التوسعية على حساب الشعب الفلسطينى • ولم يستطع سارتر نفسه أن ينكر تعاطفه مع الشعب اليهودى الذى ذاق الأمرين من ويلات التعذيب النازى (ابان حكم هتلر) ، ولكنه لم يستطع أيضا أن يخفى اشمئزازه من تلك « العنصرية » التى تمارسها اسرائيل فى سياستها « الامبريالية » المعادية للعرب • ومن هنا فقد أكد سارتر متانة تلك الروابط التى تربط اليسار الفرنسى بأخوته العرب ، كما أعلن استنكاره فى الوقت نفسه لكل من « العنصرية » و « الامبريالية » على السواء •

وهذا جورج فريدمان – الكاتب الفرنسى اليهودى الذى زار اسرائيل قبل العدوان الأخير – يصرح بأنه التقى يوما بأحد كبار رجالات اسرائيل ، فوجد لديه عداء صريحا لكل سلام مع العرب ! وكانت حجة هذا المسئول الاسرائيلى : « أن أكبر حيلة يمكن أن يوقعنا فيها العرب هى أن يعقدوا سلاما معنا ! ، لأن مثل هذا السلام لن يلبث أن يقضى على الرابطة الوحيدة التى تجمع بين طوائف الاسرائيليين وأحزابهم : ألا وهى كراهيتهم جميعا للعرب ! فالسلام لن يعنى – بالنسبة الينا – سوى انبثاق المتناقضات ، وظهور شتى ضروب النزاع ، بين أبناء الوطن اليهودى الواحد • » ! ••• ومثل هذا التصريح ان دل على شىء ، فانما يدل على أن **العنصرية اليهودية** مازالت هى المحرك الأول لكل سياسة اسرائيل فى الشرق الأوسط •

ولكن من المؤكد أن العالم المعاصر الذى وقف فى وجه العنصرية الآرية الألمانية ، لن يتردد اليوم فى مواجهة العنصرية السامية الصهيونية ، بقدر أكبر من الشدة والحزم والصرامة • ولا شك أن المجتمع الدولى قد أصبح من الوعى – اليوم – بحيث أنه ليعرف كيف يميز محبى السلام عن صانعى الحروب ، وكيف ينتصر لدعاة التعايش السلمى ضد دعاة العدوان المسلح ! والحق أنه لن يكون ثمة سلام أكيد ، ما لم يكن ثمة سلام مشترك يعم العالم أجمع ، ولن يكون هناك رخاء لأية بقعة من بقاع العالم ،مالم يكن ثمة رخاء عام يسود أرجاء العالم كله ! ولا غرو ، فقد أصبح العالم – اليوم – وطنا كبيرا تجمع بين أجزائه المختلفة روابط التواصل ، والتبادل ، والمشاركة ، فليس فى الامكان أن تختفى « العنصرية » من العالم تماما ، اللهم الا اذا ثارت كل بلدان المجتمع الدولى ضد تلك العنصرية الصهيونية التى تقوم على أساليب البربرية النازية الغاشمة • وقد لا نجانب الصواب اذا قلنا مع هـ • جـ • ويلز H.G. Wells ان تاريخ العالم كله لم يعد سوى مجرد سباق بين التربية والاصلاح من جهة، والحرب والنكبة من جهة أخرى • » • فلو كان لنا أن ننتصر للقيم – فى هذا الوطن العالمى الكبير – لكان علينا أن نقوم قومة رجل واحد ضد كل صوت ينادى بالحرب ، أو ينطق باسم العدوان ، أو يرتفع داعيا الى العنصرية ! وسيأتى المستقبل القريب باذن الله مؤكدا لثورة أبناء القرن العشرين ضد العنصرية ، والامبريالية ، والتحزبات القومية ، والحركات الاستبدادية ، وشتى النزعات « اللا – انسانية » فى كافة صورها ••



التعصب .. بين الضرورة والضرر

د. أحمد فائق

على وفرة كتابات فرويد وعلى تنوع ما طرق من موضوعات ، يقف مؤلفه الصغير « سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا » بين هذه المؤلفات كأكثر ماكتبه طرافة . ويرجع السبب فى ذلك الى أن القراءة السطحية لهذا المؤلف تعطى عدة انطباعات تنعكس تماما وتنقلب رأسا على عقب بعد قراءة ثانية أكثر تعمقا . فالقراءة السطحية تعطى انطباعا بأن فرويد يحاول بنجاح أن يطبق كشوفه فى ميدان العلاج النفسى للأفراد على ظاهرة التجمع والقيادة ، كما يعطى انطباعا بأنه مهتم بتنفيذ الآراء التى تأخذ بأصالة ما يسمى « بغريزة التجمع » ، ووضع نظرية أخرى فى أصل نشأة التجمع . فضلا عن كل ذلك يبدو الكتاب للوهلة الأولى دراسة لسيكولوجية المجتمع على نسق دراسة سيكولوجية الفرد . ولكن الكتاب فى الحقيقة - وفى عمقه الأصيل - يختلف عن ذلك تماما ، سوف يتضح من القراءة الأكثر تعمقا أن فرويد قد وجد فى دراسته لبنية التجمع مايؤكد نظريته فى البناء الفردى وليس العكس . كما سوف يتضح أنه قد وقع على مبدأ نظرية أكثر تطورا فى سيكولوجية الفرد من تفنيده لأصالة « غريزة التجمع » . وأخيرا ، وهو مايعنينا بوجه خاص فى هذا المقال ، سوف يتبين أن فرويد قد وقع فعلا على نقطة الاختلاف بين سيكولوجية المجتمع وسيكولوجية الفرد وأنه كان فى تناوله للفرد والمجتمع أقرب الى الفهم الجدلى لطبيعة العلاقات بينهما بحيث استطاع فى ثنايا الكتاب أن يبرز عددا من القضايا الاجتماعية الهامة بأسلوب جد فريد ، ومن أهمها قضية التعصب .

تعريف التعصب :

التعصب لغة تشتق من مصدر يفيد معنى

« التجمع حول » • والتصرف فى المصدر يتيح استعمال المعنى فى شتى التفصيلات • لذلك يعد التعصب مظهرا «للالتفاف حول» أو «التمسك ب••» ، ويحتاج الأمر الى تحليل لهذا التعريف من زاوية خاصة • فالالتفاف حول •• والتمسك ب ••• يعنى وجود قوة من اثنتين أو كلتيهما معا واحده تجذب الملتفين الى ما يتعصبون له وأخرى تضغط عليهم من خارج لتدفعهم نحو عنصر التعصب • وقد تناول فرويد هذه الزاوية تناولا فريدا :

يبدأ فرويد نظريته برفضه فكرة أصالة النزوع الى التجمع أو غريزة التجمع مستندا الى ملاحظاته على النظريات السابقة وخاصة نظرية لوبون وماكدوجل • فتصور هذه النظريات لسيكولوجية الحشد والتجمع والمجتمع والمؤسسات تقوم على أساس أن حاجة الفرد الى القوة والفرصة لاشباع رغباته المقيدة تأتيه من خلال انضمامه الى غيره • الا أن فرويد ينبه الى أن الانضمام الى الآخرين قد يكون هو ذاته عاملا على ضعف احساس الفرد بقوته والى اضطراره الى ضبط الكثير من رغباته التى قد يشبعها لو كان وحيدا• ويضرب لذلك مثالا من مؤسستى الكنيسة والجيش • فانضمام الفرد الى تجمع دينى يرتقى بالنزوعات ويعطى صورة مختلفة تماما عما صوره أصحاب مبدأ غريزة التجمع • كذلك الأمر فى الجيش حيث يؤدى الانخراط فيه الى عكس ما يقال عن التجمع وهو التنظيم والانضباط •

لذلك يبنى فرويد نظريته على عكس ونقيض نظرية التجمع • فالانانية المفرطة لدى الوليد والطفل والتى تجعله ينفر من أن يشاركه أحد فى أمه وغيرها من ممتلكاته تقف عقبة جوهرية ازاء كل مفهوم عن اصالة النزوع الاجتماعى • الا أن غريزة حفظ الذات ـ أو ايروس كما يسميها فرويد ـ تجعل الوليد مضطرا الى الخضوع لرغبة أهله فى أن يتنازل عن انانيته • فعدم رضائهم عن أنانيته يشكل لديه خطرا أكثر مادية من خطر التنازل عن نرجسيته • وهذا الموقف فى حد ذاته مشكل : فالانانية مسلك نابع من غريزة حفظ الذات ، ولكن تحت ضغط هذه الغريزة لابد للطفل أن يتنازل عن أنانيته • ولنركز على هذا التناقض ونتركه معلقا الى حين لأهميته لنا عند دراسة مستقبل ظاهرة التعصب •

ونتيجة الحاح الأهل على هذا التنازل تكون ضبط العداء الذى يشعر به الطفل الى منافسيه وهم عادة الأخوة • لذلك يقوم الشعور الاجتماعى فى الواقع على ضبط العدوان والنزوع الى التدمير وارساء قواعد الحب والنزوع الى البناء ـ أى تكوين وحدات أكبر • بمعنى آخر أن ظاهرة المجتمع هى ظاهرة نقيضه لظاهرة الفرد • فالفرد أميل الى الأنانية ، التى يؤدى تهديدها الى زيادة مشاعر العدوان تجاه من يهددها • فاذا لم يتم ضبط هذه المشاعر العدوانية الناتجة عن التخلى الجبرى عن الأنانية لتكوين المجتمع ، فانها تصبح خطرا يهدد المجتمع بالتحلل والانهيار • ويقول **مصطفى زيور فى ذلك** : « **اننا نعلم أن العدوان طاقة انفعالية لابد لها من منصرف ، ولا مناص من ان تتخذ لها هدفا تفرغ فيه شحنتها الزائدة • وفى الظروف الاجتماعية العادية ، يجد العدوان منصرفا فى أنواع النميمة وتجريح الغير أو فى النكتة اللاذعة • وعندما يصل العدوان الى درجة بالغة من الشدة أو عندما تتخاذل اساليب ضبطه ، فانه يميل الى الفتك فتكا مباشرا بمصدر النقمة• أما اذا استحال الوصول الى مصدر النقمة ، فان العدوان يلتمس هدفا آخر يصبح بمثابة كبش الفداء** • » وهذه العبارة تشير الى النقطة الثانية التى نتركها معلقة حاليا لنفيد منها فى تناول قضية مستقبل التعصب ، وهى دور المجتمع فى خلق مسارات للعدوان تتجه به الى الخارج بدلا من ضبطه لتصريفه فى الداخل بما يدمره •

ولما كان الشعور الاجتماعى يتطلبه كبت العداء تجاه الآخر واحلاله الحب بدلا منه ، فقد صور فرويد هذه الصلة على أنها رباط ليبيدى يربط بين الفرد والآخر • وأساس الرباط الليبيدى أن الشخص يتنازل عن حبه لذاته فى مقابل مايحصل عليه من حب الآخر له • الا أن هذه العملية لا تتصور بدقة فى الأحوال العامة الا من خلال عملية نفسية أخرى هى التعيين الذاتى Identification • فكما يقول فرويد : « **الجماعة الأولية •• هى عدد من الأفراد استبدلوا بذواتهم موضوعا واحدا اصبح أنا مثاليا لهم ثم توحدوا معا أو عينوا ذواتهم بعضهم ببعض** • » بمعنى آخر ، أن كل فرد يجد فى رفيقه فى المجتمع ذاتا مشابهة لذاته اذا كان قد استبدل بأناه زعيما أو عقيدة أو هدفا سبق لرفيقه أن استبدلها هو الآخر بأناه • فالشعور الاجتماعى يأتى من تخلى الفرد ـ بدرجة ما ـ عن أناه وأنانيته ليجعل بديلها زعيما أو عقيدة أو هدفا • فاذا اتفق لعدد من الأفراد أن قاموا بنفس العملية أمكن أن يرتبط بعضهم ببعض بشعور حب قوى وأن يتوحد كل

واحد فى الآخر . وتثير هذه العملية قضية هامة هى : ضرورة قيــام العلاقة الاجتماعية الحقة من خلال زعيم أو عقيدة أو هدف موحد بين الأفراد ، حيث تكون هــذه القيمة الموحــدة بينهم سبيلا لتوحدهم بعضهم ببعض وفى نفس الوقت تكون هذه القيمة الموحدة حائلا ومنفذا للعدوان تصرفه الى خارج الجماعة بدلا من انطلاقه الى الداخل . وهذه القضية الثالثة تنضم الى القضيتين السابقتين لتنضــع أمامنا مشكلة عامة هى : مســتقبل التعصب .

وعندما تناولنا تعريف التعصب وتعرض فرويد للعنصر الأساسى فيه وهو العدوان المنصرف الى خارج الجماعة علقنا ثلاثة قضايا هى :

(أ) الانانية الفردية مسلك نابع من غريزة حفظ الذات ، ولكن تحت ضغط هذه الغــريزة ذاتها لابد للطفل أن يتنازل عن أنانيته . وبالتالى يمــكنه أن يتحول من الأنانيــة الى الاجتماعية . بمعنى آخر أن نفس الغريزة التى تهــدد الروح الاجتماعية تكون مصدر الروح الاجتماعية .

(ب) أن المجتمع يخلق مسارات تنطلق منها طاقات العدوان الى خارجه لأنه اذا تعطلت هــذه المسارات تحولت طاقة العدوان الى الداخل تهدد تكوين التعصب حيث تمتص هذه الأهداف الخارجية التماسك الاجتماعى . هذه المسارات هى قاعدة طاقة العــدوان فتنشأ صلة تعصب ضدها تكون بمثــابة قوة الضــغط الخارجى لتماسك المجتمع وتنشــأ صلة تعصب للرفاق تكون بمثــابة قوى التماسك الداخلى .

(جـ) أن القائد أو العقيدة أو الهدف المشترك يصــبح أنا مثاليا بديلا عن الأنا الأصلى للأفراد وبالتالى أن يتساووا ويتوحدوا بعضهم ببعض من خلال القائد أو العقيدة أو الهدف .

هذه القضايا الثلاثة تضع مشكلة عامة نصوغها فى هذا السؤال : اذا كان التعصب هو الشق السالب للتماسك الاجتماعى والشكل الذى تتحول اليه الأنانية المكفوفة الى خارج المجتمع ، واذا كان التعصب قوة التماسك الاجتماعى التى تضــغط على الأفراد من الخارج بعد أن كانت قوة فى داخل كل فرد تهدد روابطه الاجتماعية بالآخرين ، فان سؤالا هاما يتشكل : ما هو مستقبل هذه الظاهرة التى تحمل كل هذا التناقض ؟ ونضيف الى ذلك الملاحظة الثالثة وهى : ما دور القائد والعقيــدة والهدف فى تحديد مستقبل التعصب ؟

يزيد مصــــطفى زيور هذه القضية تحديدا بتحليله لسيكولوجية التعصب تحليلا أكثر اسهابا نوجزه فى هذه النقاط :

١ ـ التعصب رد فعل حيث يكون الفعل هو التخلى عن الأنانية .

٢ ـ التعصب هو نقل عدوانية الأفراد نتيجــة التخلى عن الأنانية الى خارجهم .

٣ ـ التعصب دفاع نفسى ضد رغبة فى الأنانية اضطر الفرد الى كبتها .

٤ ـ التعصب يعيد للفرد أنانيته بشكل آخر حيث يؤدى الى طرح كل ما يكرهه فى ذاته على مايتعصب ضده ليبقى لنفسه ولرفاقه كل مايرضاه عن ذاته بل وكل ما يمكن أن يجــده طيبا فيمن يتعصب ضدهم .

٥ ـ التعصب توحد وتعيين ذاتى بالرفاق عن طريق التنــازل عن الذات الأنانية واحــلال ذات مشتركة بينه وبينهم بدلا عنها .

اذا عدنا الى سؤالنا لنجيبه ســـوف نجد ان الاجابة المباشرة تقوم على ثلاثة عناصر أساسية :

(أ) استحالة استمرار التماسك الاجتمــاعى بفعل قوة التعصب .

(ب) أن التعصب يعد ضرورة فى المراحــل المبكرة من البناء الاجتماعى .

(جـ) أن التعصب يعــد خطـرا على البنــاء الاجتماعى اذا ظل القوة الرئيسية فيه .

. فالتماسك الاجتماعى القائم على التعصب مهدد باستمرار نظرا الى أنه يحتاج الى درجة متزنه من تصريف العــدوان الى الخارج بالاضافة الى درجــة متزنة من التعويض النرجسى من الجماعة فضلا عن الاتزان بين تصريف العدوان والتعويض النرجسى . مثــال ذلك أن اليهود يتماســكون اجتمــاعيا على أساس التعصــب لأنفسهم ضــد الاضطهاد الواقع عليهم من الخارج وعلى أساس التعصب ضد الآخرين اللذين يعــدون فى عقــائدهم أقل شأنا منهم . وبالتالى فان هذا التماسك يحتــاج أولا أن يقــع اضطهاد فعلى على اليهود حتى تكون هناك مبررات لاستمرار تعصبهم لأنفسهم، ثم يحتاج الى استمرار تفوقهم على الآخرين حتى يحصــل اليهــودى من تعصبه على تعويض نرجسى لتخليه عن نرجســيته لمجتمع اليهود ؛ وأخيرا يحتــاج الى أن يكون قدر الاضطهاد الواقع عليهم ـ اذا أمكن أن يكون واقعا

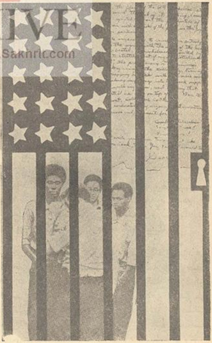
عليهم جميعا بنفس الدرجة ـ مساويا لقدر تفوقهم على مضطهديهم • لذلك يعد البناء الاجتماعى القائم على التعصب بناء فى خطر مستمر يتهدده من ثلاثة جوانب :

اولا ـ قوة الجـــذب الطبيعيــة الى استعادة النرجسية الذاتية الممتصة فى المجتمع •

ثانيا ـ امتصاص التعصب للعدوان امتصاصا منتظما حتى لا ينصرف الى داخل الجماعة •

ثالثا : استمرار التعويض النرجسى لكل الأفراد من نشاط المجتمع •

وفى المراحــل المبــكرة لتـكوين المجتمع يكون التعصب ضروره لانه السبيل الوحيد امام افراد ليسوا بعد على معرفه أو اطمئنان بعضهم لبعض• حينــد يصـبح هدف التعصب مجالا اوليا ملائما لتصريف العدوان الى الخارج • وبتوجيــه العدوان الى هدف التعصب يصبح من الممكن للمجتمع ان يامن شر التحلل فترة تسمح له ببناء عنــاصر تماسك أكثر رقيـا اهمهـــا الاهداف المشتركة والعقيدة الموحدة والقيادة • فاذا حدث ذلك أصبح العدوان المنصرف الى التعصب ذا وظيفة أخرى هى حماية العقيدة وتحقيق الأهداف • بمعنى آخر ، اذا ما تمكن المجتمع من تحديد أهداف له وبنــاء عقيدة فيه أصبح فى حاجة الى طاقته العــدوانية التى كان يصرفها فى التعصب لتكون هى وقوده لتحقيق الأهــداف وحمــاية العقيدة • وبالتــالى تصبح الحاجة الى التعصب أقل أهميةمن ذى قبل• بل ويصبح التعصب كأساس للتماسك الاجتماعى خطرا على المجتمع لأنه سينفذ قدرا كبيرا من طاقة لازمة لتحقيق أهداف المجتمع •



تبقى لدينا نقطة أخيرة فى قضية مسـتقبل التعصب هى دور العقيدة والهدف والقيــادة فى مستقبل التعصب • ان القيادة المتمثلة فى شخص بذاته أو عدة أشخاص حتى ولو كانوا أشخاصا اعتباريين ، تقوم بدور هام فى تطوير التعصب المهدد للمجتمع • فالقائد يصبح أنا مثــاليا أى بديلا عن أنا الفرد ، ولابد لهذا القائدـ كى يصبح قائدا ـ أن ينجح فى أمرين : الأول أن يكون أنا مثاليا لجميع الأفراد بحيث يشعر كل فرد بأن صلته بهذا القائدـ ولو عن بعدـ مساوية لصلة باقى رفاقه والثــانى أن يمثل هــذا القائد ويكثف ديناميه التعصب لدى كل فرد • **ومثال ذلك أن القــائد العسكرى النــاجح لابد أن يكون عادلا مع جميع أفراد قوته، بل لابد وأن يكون النصر ـاو الهزيمةـ**

التى يحتمل مجيئها على يديه قسمة عادلة للجميع، فضلا عن أنه يركز ويكثف فى ذاته طموح كل فرد من أفراد قوته · ولا شك أن هذه الفكرة تتجلى بوضوح فى شخصية موسى ديان الذى يأتون به فى كل هجوم يريدون أن يشنوه على الدول العربية حتى ولو لم يكن هو صاحب الخطط والافكار · اذن ، فوجود قيادة يعد مرحلة أرقى فى التعصب حيث يتجسد التعصب فى شخص يسمح بأن يجعل التعصب كذلك يوجه ضد شخص · ولكن الخطورة فى ذلك أن انهيار هذا القائد كفيل بانهيار كامل للمجتمع ككل أى بالنكوص الى المرحلة السابقة على التعصب البدائى· وقد أشرنا الى ذلك فى مقال لنا عن الحرب النفسية فقلنا : « لا يبقى بعد ذلك ·· الا تنبيه ثم تحذير ، أما التنبيه فهو الى مكامن الخطأ فى تقدير العدد · لقد قدر العدو أن الرئيس هو محور انية الشعب ومكمن اغترابه ولم يكن ذلك بالتقدير السليم · لذلك تحمل الشعب الهزيمة وأفاق الى انيته · أما التحذير فهو محاولة اقامة الانية على التوحد بشخص ، فهذه الانية قد تبدو فى مظهرها قوية ولكنها فى جوهرها تكون ضعيفه فضلا عن تعرضها السريع للخطر · »

والمستوى الأكثر رقيا للتطور من التعصب وتمثل القيادة فى الأنا ، هو اقامة العقيدة · فالعقيدة تحل محل القائد وتصبح من جانب على مبعدة من الهزيمة المادية النهائية وتكون من جانب آخر ذات بعد زمنى غير محدود بعمر شخص ، فضلا عن كونها قادرة على اعطاء الجميع احساسا بصلة متساوية بها وهو ما يستحيل على القائد مهما بلغ أن يعطيه للأفراد · وأهم من كل هذا ، أن العقيدة تخلق أهدافا نرجسية وتعويضية هامة تحمى المجتمع ـ مهما حدث له ـ من نكوص الأفراد الى نرجسيتهم الأولى · واستكمالا لنفس الفكرة السابقة قلنا : « اذا كنا جادين فى شن حرب نفسية على اسرائيل علينا أن ننبه الى أهمية تدعيم مفهوم الدولة الاشتراكية فى ضمير الشعب حتى لا تهتز الانية بسهولة ؛ وعلينا أن ننتبه الى الانيه الاسرائيلية المعاصرة قائمة على التوحد فى شخصية قادتها العسكريين وساستها للذين يدعون مهارات ودهاء أمام جماهيرهم · »

تعقيب :

اذا كان التعصب هو رد فعل للأنانية وحيلة نفسية لكبت نقيضه فى الذات ، واذا كان التعصب ظاهرة قائمة على اتزان مستحيل بين النرجسية والغيرية ، فان الموقف الذى نمر به حاليا فى نضالنا يحتاج الى تامل جرىء · من الواضح أن اسرائيل تحاول جاهدة أن تنتقل من مرحلة التعصب والاستهداف للتعصب الى مرحله الزعامة، بل لقد أخذت تنتقل بسرعة الى مرحلة الزعامة غير الشخصية وذلك من خلال تنظيماتها الدستورية · والخطوة التى تحاول أن تخطوها الآن هى الحصول على دوله معترف بها أو مسلم بوجودها حتى تقطع خط الرجعة على النكوص الى التكوينات البدائية للمجتمع الاسرائيلى · وليس هذا بالأمر السهل ـ بالرغم من دقة التخطيط له وقوة عزيمة تنفيذه ـ فعناصر النكوص لا زالت قائمة فى شكل رغبات التوسع والعنف والغرور· وفى نفس الوقت كانت نكسة ١٩٦٧ ايذانا لأذهاننا بأن تتفتح وتدرك طبيعة بنائنا الاجتماعى· ولا شك أن خطر التعصب كان يتربص بنا ولازال، كما أن فرصة الانتقال الى التوحد بالعقيدة يلوح لنا ويجذب المستنيرين منا · والصراع القائم حاليا بيننا وبين عدونا خطير · فان لم نسرع الى التوحد بالعقيدة فسوف نكون أمام طريقين للنكوص ، اما للتعصب والردة الى شكل بدائى يسهل للعدو ضربه ، واما الى فقدان التماسك والصراع الداخلى· أما اذا رفعنا شعار العقيدة التى يمكن للأغلبية التوحد بها ـ وهى الاشتراكيه ـ فسوف نكون أسبق من عدونا نحو تماسك اجتماعى صلد وسوف نبقى فى مأمن من عدوانه · فضلا عن ذلك فان التوحد بالعقيدة الاشتراكية يتيح لنا الكثير· فمن جانب سوف نتماسك تماسكا واضح المعالم دون حاجة الى اختيار العدو ذاته كبش فداء لنا · وبالتالى سوف نحرمه من فرصة تدعيم تماسكه على أساس اضطهادنا له · ويترتب على هذا أخطر ما فى هذا الصراع الا وهو تحول المعركة معه من تكتيك يخدم جزئية تاريخية الى استراتيجية تخدم كلية تاريخية هى انتصار الاشتراكية · وحينئذ سوف تظهر داخل تكويناته الاجتماعية عناصر تؤيدنا لأنها سوف تتوحد بنفس ما تتوحد به وتنفصل عن التجمع المبنى على شعور وهمى بالخطر الذى يهدد الاسرائيلى بوصفه اسرائيليا ·

وأخيرا نصل الى ضرورية وضرر التعصب من باب خلفى · ان انتصار الشعب المصرى بوصفه شعبا عاملا متوقف على قدرته على دفع عدوه الى التعصب فى الوقت الذى يتحول هو فيه من التعصب الى الايمان بعقيدته الاشتراكية · وبذلك يمنع عدوه أو يؤخره عن التماسك ويتيح لنفسه أو يسرع بالتماسك ·

علم الاجتماع ومشكلة الأقليات

د. محمد الجوهري



الاقليات عبارة عن جماعات عنصرية ، او لغوية ، او دينية ، او قومية تعيش وسط جماعات اخرى ، ولكنها لا تشارك مع ذلك مشاركة كاملة فى الثقافة العامة السائدة التى تنتمى اليها وتعتبر جزءا منها .

وهناك وجوه كثيرة متعددة لمشكلات الاقليات ، لا تنطبق جميعها بالضرورة على كل جماعة من جماعات الاقليات داخل البلد الواحد . كما انه من الواضح انه ليست كل اسباب مشكلات الاقليات من طبيعة واحدة . ولكن بوسعنا مع ذلك ان نضع بعض التصنيفات العامة لمشكلات الاقليات .

التعصب والتمييز العنصرى

لعل اول المسائل التى يجدر بنا التصدى لها استيضاح الفرق ـ ان كان موجودا ـ بين التعصب والتمييز العنصرى . هناك بصفة عامة اتجاه عداء هو الذى يطلق عليه فى بعض الاحيان التعصب prejudice تجاه كل جماعات الاقليات . وربما كان المضمون الحقيقى لهذا الاتجاه هو الخوف فى بعض الاحيان ، وقد ينطوى فى حالات اخرى على الاحتقار والنفور . وليس من الضرورى ان يتحول هذا الاتجاه الى اجراءات عملية فعالة للتمييز بين جماعة الاغلبية من ناحية وجماعة او جماعات الاقلية من ناحية اخرى .

اما عندما تحرص الاغلبية على الحفاظ على تفوقها على جماعات الاقلية وابقاء تلك الجماعات فى منزلة ادنى فاننا نكون بصدد تمييز لابد وان يستند بالضرورة الى بعض الاجراءات العملية التى تحقق هذا الهدف .

ولعلنا نشير فى هذا الصدد الى المعنى الخاص لكلمة تمييز discrimination فى اللغات الاوربية . فهى وان دلت على القدرة على تبين الفروق والتعبير عن الاذواق المختلفة ، الا ان هذا المعنى ليس هو المقصود من استخدام الكلمة فى مجال العلاقات بين الجماعات . فالتمييز هو حرص افراد جماعة الاغلبية على منع افراد جماعات الاقلية من الحصول على نفس الفرص التى يحصلون هم عليها باعتبارهم اعضاء فى الاغلبية .

وينقسم التمييز على وجه العموم الى اربع فئات رئيسية هى : التمييز فى العلاقات الاقتصادية ، وفى المعاملات والحقوق القانونية ، وفى الامور السياسية ، واخيرا فى العلاقات الاجتماعية .

وسنقتصر هنا على تلك الانواع من التمييز الراجع الى اعتبارات عنصر الفرد ، أو لغته ، أو دينه ، أو قوميته لا الى قدراته الخاصة أو سلوكه ، أو شخصيته ، أو ثروته او اى شيء آخر .

التعصب والتمييز العنصرى عبر التاريخ :

ليست افكار التعصب ووسائل التمييز العنصرى بالشيء المستحدث على المجتمعات الانسانية . فقد جرت عادة نفر من المفكرين من فلاسفة واجتماعيين على التسليم بالافكار القائمة على التمايز العنصرى . وقد اتخذت هذه الافكار فى اطوارها المختلفة مظاهر متباينة .

فاتخذت فى أحد الاطوار مظهر الشعوبية التى كانت مالوفة فى المجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة فى مصر وفارس وعند اليونان والرومان . وقد شهد التاريخ الاسلامى ظاهرة الشعوبية فى بعض مراحله كما هو معروف للجميع .

والسمة المميزة لمعظم الآراء العنصرية فى تلك الفترة هى التعبير فى الواقع عن حاجات سياسية اجتماعية . اذ كانت مظهرا من مظاهر تقديس الجماعة لنفسها ، ولجنسها بالذات ، عملا على الحفاظ على التماسك الداخلى للجماعة وعلى وحدتها ازاء الجماعات الأخرى .

ثم عرفت الانسانية فى تاريخ لاحق بعض المحاولات التى استهدفت استغلال النصوص الدينية فى خدمة الآراء العنصرية . وان كان بعض رجال الدين المسيحى قد تصدوا لمحاربة هذا الاتجاه بين زملائهم .

وفى خلال العصور الوسطى الاقطاعية وجدت الآراء العنصرية وظيفة جديدة تؤديها حيث حرص النبلاء على تبرير استغلالهم لطبقة العبيد والفلاحين على اساس عنصرى . وذلك بالترويج لتلك الاسطورة التى ترجع اصلهم الى حام بن نوح ، الذى لعنه والده ودعا على سلالته بالعبودية .

ثم استغلت الآراء العنصرية لخدمة غرض آخر نتيجة بعض الظروف الاجتماعية الاقتصادية الجديدة التى واجهتها البشرية . فكانت مواجهة الشعوب الاوروبية التى هاجرت الى العالم الجديد لشعوب وطنية ادنى مستوى فى سلم التطور الاجتماعى والثقافى داعيا لتلك الشعوب الى وسم هؤلاء الوطنيين بسمة التخلف . وتلقت النظريات دفعة جديدة . ووجدنا بعض فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر – امثال دافيد هيوم ، وتين ، ورينان – ينكرون تساوى الاجناس البشرية فى قدراتها وملكاتها العقلية . ويستبعدون أن يكون الزنجى أو الهندى الامريكى مساويا للاوروبى النوردى .

وفى أوائل القرن التاسع عشر وبعد الثورة الصناعية والثورة البورجوازية الفرنسية ويقظة الروح القومية فى بعض البلاد الاوروبية الاخرى وجدت الآراء العنصرية مجالا جديدا . اذ حاول بعض المفكرين تمييز افراد الطبقة الواحدة على اساس عنصرى فى ضوء التفاوت العنصرى بين الطبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا .

ومن الجدير بالذكر انه من السمات المميزة لتلك الفترة ذلك الخلط المشهور بين الجنس واللغة والثقافة . حيث استخدمت اللغة خطا فى تقسيم البشر الى سلالات . كالربط بين اللغة الحامية والجنس الحامى . مع ما اثبتته البحوث فيما بعد من خطأ اتخاذ الاشتراك فى اللغة دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد . فليس ضروريا ان يشترك جميع المتكلمين باللغات الحامية فى نفس الصفات الجسيمة ، ولذلك لا يمثلون جنسا بالمعنى العلمى الدقيق. فانتشار اللغات مرتبط بالانتشار الثقافى والعمليات الثقافية تتخذ مسارا قد يختلف وقد يتفق مع تيارات الهجرات والاختلاط الفيزيقى . (انظر مزيدا من التفصيلات عن موضوع الخلط بين الجنس واللغة والثقافة عند : أحمد الخشاب ، دراسات انثروبولوجية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ص ٣٤٨ – ٣٩٢)

بعض وسائل التمييز العنصرى :

اتفقنا من قبل على ان التمييز عبارة عن التعصب مترجما الى بعض الوسائل العملية التى تستهدف تفوق جماعة الاغلبية وابقاء جماعة الاقلية فى المستوى الادنى . والواقع ان الوان التمييز الاجتماعى فى اساسها هى تعبير عن علاقات القوة فى المجتمع . وهى المصب لكل أنواع القيود « الشرعية » أو « الفعلية » التى تعكس هذه العلاقات .

ولهذا نجد الميل الى القضاء على ضروب التمييز او الرغبة فى فرض بعضها انما هو محصلة لبعض التغيرات التى تطرأ على البناء الاجتماعى وعلى هيكل السلطة السياسية . فالآراء الخاصة بالمساواة أو عدم المساواة تختلف من مجتمع لآخر ، وهى خاضعة للتغير دائما ابدا .

فطالما كانت هناك فئات اجتماعية ، وطالما كان هناك اعتراف بالعادات أو القانون كسند للمفاضلة فى المعاملة بين الافراد ، فان التمييز لا يتحقق الا اذا عومل الفرد بشكل تعسفى ، اى خلافا لمبدأ المساواة المعترف به بسبب انتمائه الى جماعة او فئة اجتماعية معينة . فالتمييز على هذا النحو هو المفاضلة بغير سند من القانون أو العرف السائد . فهذا الصدام الذى يظهر فى عملية التمييز بين المثل الاعلى الاجتماعى والواقع الاجتماعى يكمن فى حقيقته فى الموقف من تلك الفئة الاجتماعية . اذ أن هذا الموقف هو الذى يحفز الى تلك المفاضلة فى المعاملة .

الا اننا كثيرا ما نصادف اليوم تقنينا لوسائل التمييز هذه . لعل أخفها ضررا — وان كان جديرا بالادانة على اى حال — تلك التشريعات التى أصدرتها بعض الدول لتكفل بها الوجود السياسى للجماعات الاقلية الموجودة داخل حدودها . من هذا مثلا أن عنيت بعض هذه الدول بتحديد أماكن سكنى هذه الجماعات . بينما حددت دول أخرى نوع المهن التى يمكن ان يمارسها افراد تلك الجماعات . وفى نوع ثالث من التشريعات سمح لهم بارسال ممثلين لهم كمجموعة الى المجلس النيابى للدولة بدلا من اشتراكهم كأفراد فى عملية الانتخاب .. الخ .

الا ان هناك نوعا آخر من اساليب التمييز أشد خطورة وأبعد أثرا وأكثر منافاة للانسانية . ذلك ان بعض المجتمعات لا تقر رسميا تصاهر السلالات المتباينة وامتزاجها . وتعمل السلطات الحاكمة فى تلك المجتمعات على أن تقف فى طريق سير عملية الامتزاج العنصرى ، وتذهب فى سبيل ذلك الى حد سن تشريعات تعرف باسم الحواجز اللونية .

واشد ما تكون هذه التشريعات صرامة فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية ، وفى روديسيا ، وجنوب افريقيا . فتحرم هذه القيود الاختلاط بين السلالات الملونة حتى فى الاماكن والمنشآت العامة التى لا تمت الى الامتزاج الجنسى بسبب . فتخصص فنادق ومطاعم وحجر انتظار ومدارس ومعاهد علمية لكل ، بحيث يتعرض من يخالف ذلك للعقوبة القانونية .

وفى جمهورية جنوب افريقيا لا تقتصر قيود اللون على التصاهر الزواجى بين السكان الاصليين والهنود المستوطنين من ناحية والاوروبيين المستعمرين من ناحية اخرى . بل انها تمتد — كما هو الحال فى روديسيا — الى الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية للمواطنين . وتشمل كل مظاهر الحياة الاجتماعية فلا يسمح لهم بالاشتراك فى الانتخابات العامة للسلطة الحاكمة ، ولا يباح لهم ركوب السيارات العامة او عربات الترام التى يستعملها السكان البيض . كما أنهم ممنوعون من دخول الكنائس ودور السينما والمسارح والمطاعم والمكتبات التى يرتادها الاوروبيون ، بل انهم ممنوعون من دخول بعض المدن .

ولا يختلف الوضع فى روديسيا — الحليف الاول لجنوب افريقيا — عن ذلك كثيرا . فالحكم الحالى القائم على سيطرة الاقلية البيضاء من الاوروبيين يرغم الافريقيين الملونين على الرحيل عن المنطقة المتاخمة لمستعمرات البيض، ويعمل على حصرهم فى مقاطعات تظل حبيسة عليهم .وبذلك تحول أوضاعهم السياسية دون امتزاج السلالات الزنجية بالسلالات البيضاء ، وان كان يجمعهم اطار سياسى واحد .

ويبدو الامر على هذا النحو فيما يتعلق بالوضع القائم فى بعض ولايات الجنوب الامريكية نتيجة تتابع الهجرات من سلالات وعائلات بشرية متفاوتة فى صفاتها الجسمانية ، ومستوياتها الاقتصادية بل وفى حقوقها المدنية والاجتماعية . وقد ادت فعالية عدم تجانس وامتزاج هذه السلالات الى تعميق الفوارق الاجتماعية من حيث المستوى الصحى والثقافى بالاضافة الى اغفال التزام الدولة القيام بمسئولياتها تجاه هذه الفئات والجماعات العنصرية التى لا تنتمى الى الاجناس الاوروبية المهاجرة .

وقد كثرت الكتابات حول موضوع تفسير الاختلافات العنصرية ، ومن ثم تبرير تلك الاجراءات التى تخدم فكرة



التمييز العنصرى . ونجد الكتابات على الجانب الآخر مدعمة بنتائج البحوث العلمية العصرية تهدم الاساس العنصرى المتميز لتلك المؤلفات الاولى ، وتدلل بالتالى على احجاف وخطا اجراءات التمييز العنصرى .

وترجع طائفة من المفكرين فكرة التفرقة العنصريةالى عوامل تاريخية واجتماعية نشأت عن هجرة اجناس واستقرارها او اغتصابها لبلاد تسكنها اجناس اخرى . فالذى يحدث عادة ان الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الاصليين يحتكر لنفسه اسباب التقدم الحضارى ويحرم فيها الاقوام المغلوبة على امرها بكافة القيود التي يغلها بها . ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاجتماعية والحضارية للعنصر القاهر فى الوقت الذى يتردى السكان الاصليون فى الحضيض . وكلما مر الزمن على تلك الحال ، كلما بدا للعيان ان الاقوام الغالبة تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الاقوام المضطهدة المقهورة . هذا ويقوم طائفة من الكتاب الذين ينتمون الى العنصر المتحكم بتصوير هذه الفوارق المصطنعة على انها فوارق اصيلة مرجعها تفوق عنصرهم فى مقوماته وخصائصه على العنصر المغلوب على امره . ولهذا آثاره النفسية الاجتماعية على الشعب الاصلى ، اذ ان غرس هذه الآراء يؤثر على سيكولوجية هؤلاء الاقوام ويجعلها تدين بالطاعة والاستسلام لحكم الواقع باعتباره امرا محتوما . بل وكثيرا ما يتضافر العامل الدينى مع العامل الانثولوجى فى تأييد وتدعيم سيطرة عنصر على آخر . بحكم ان هذه مرجعها مشيئة الله وحكم الطبيعة . وابرز مثال على ذلك نظام الطبقات المغلقة فى الهند .

الاقليات مشكلة اجتماعية :

لم ينتبه علماء الاجتماع الى مشكلة الاقليات كمشكلة اجتماعية الا فى الجيل الماضى او نحو ذلك . ولعل احد اسباب ذلك التوانى فى الاحساس بتلك المشكلة ان العلماء الاجتماعيين ــ الذين ينتمون الى جماعة الاغلبية ــ كانوا يعتقدون فيما مضى ان جماعات الاقليات راضية بوضعها المنحط هذا ، وطالما انه لا يوجد ضيق او اعتراض من جانب احد ، فلا يمكن ان تكون هناك مشكلة .

اما الآن فقد اصبح من المعروف والواضح لكل ذى عينين ان الاقليات لم تعد تقبل منطق التمييز هذا ، ومن ثم فسوف ترد صاع الكراهية صاعين . ولا نغفل فى هذا الصدد ايضا بعض صيحات التنبيه والتحذير التى انطلقت من بين صفوف جماعات الاغلبية تدعو الى تدارك الموقف .

ولعله من بين الاسباب الاخرى لاغفال مشكلة الاقليات فى الماضى ــ وخاصة فى الولايات المتحدة ــ الاعتقاد بان الصراع بين الجماعات المتباينة عنصريا امر طبيعى وحتمى . طالما ان « الغرباء » الذين ينتمون الى اجناس او ثقافات مغايرة لابد وان يتبادلوا الكراهية ، او على الاقل يتبادلوا الحذر والريبة كلما جمعت بينهم ظروف التعامل . ومن ثم لا صلة لاحد فى قبول الوضع القائم ، وليس هناك ثمة مجال لعمل اى شىء من شانه تحسين العلاقات بين الجماعات المختلفة . وعليه فليست هناك مشكلة .

اما الآن فقد اصبحنا ندرك بوضوح ان هذا الصراع بين العناصر المختلفة امر تحكمه عوامل وظروف اجتماعية ومن ثم فليس قدرا محتوما ، ومن الممكن التخفيف منه والقضاء عليه قضاء مبرما .

ونود فيما يلى ان نركز بعض الشىء على مشكلة الاقليات فى الدول القومية الحديثة . ونلاحظ هنا ان الجماعة القومية تكون لها دائما تقاليدها الخاصة ، وفى بعض الاحيان دينها الخاص او لغتها الخاصة . وتشعر الاقليات فى الدولة القومية الحديثة بان ثقافتها عرضة للكبت والضياع . بينما تسعى بعض الاقليات ــ على عكس هذا ــ الى التكامل التام والاندماج فى المجتمع الكبير . ولكنها قد تلقى فى هذا الصدد مقاومة من جانب هذا المجتمع الكبير . وتظهر مشكلة الاقليات عندما يوجد تمييز ضد ثقافة الاقليات من جانب الجماعة المسيطرة ، ثم مقاومة جماعة الاقلية ــ على نحو ما اشرنا ــ لهذا التمييز او سعيها نحو المعاملة بالمثل . اما داخل الاقلية نفسها فتحتل الاختلافات السياسية والاقتصادية العادية مرتبة ثانوية بالنسبة لشعور وحدة الجماعة الموجه ازاء المجتمع الكبير .

مشكلات الاقليات فى أوروبا وأمريكا :

ظهر مفهوم الاقلية ــ كما عرفناه الآن ــ أول ماظهر فى أوروبا للتعبير عن الوضع الاجتماعى المتميز لبعض الشعوب بالنسبة لبقية سكان الدولة . فقد عرفت البلاد الاوروبية ذات التاريخ التليد شعوبا ذات خلفية ثقافية معينة ، تشعر منذ زمن بعيد بانتمائها الى بلادها وارتباطها بها . فكانت تعتبر جماعات قومية ، وكان البلد الذى يعيشون فيه يحمل اسمها . ولكن حدث فيما بعد بفعل الحروب الكثيرة ، والغزوات ، والهجرات ان وجدت بعض الجماعات الصغيرة ــ نسبيا ــ التى تنتمى الى شعوب معينة ، وجدت نفسها داخل الحدود السياسية لدول تنتمى الاغلبية فيها الى قومية اخرى .

معنى هذا : ان المناطق التى تسيطر عليها الدول القومية لا تتطابق تطابقا كاملا ابدا ــ وقد لا تستطيع ان تطابق على الاطلاق ــ مع الجماعات القومية التاريخية التى

تسكن تلك الاقاليم . ولم تكن نتيجة ذلك فقط ان اصبحت هذه الجماعات القومية تشغل مناطق صغيرة منعزلة داخل الدولة الجديدة ، بل اننا نجد فى بعض الاحيان ان مناطق اقامتها قد تتفرق فى مختلف اجزاء الاقليم الذى تشغله الاغلبية . ومنذ ان ارتبط مفهوم الدولة السياسية الحديثة بفكرة أن الدولة تخدم مصالح قومية واحدة معينة ، اصبحت الجماعات الصغيرة الموجودة داخل الحدود المكانية للدولة الجديدة تعرف باسم الاقليات .

وقد سبق أن اشرنا الى ان معظم الدول قد عمدت الى اصدار التشريعات التى تكفل بها الوجود السياسى للجماعات الاقلية الموجودة داخل حدودها . والذى نود ان نؤكده هنا ان غالبية تلك الدول تعاملهم كمجموعة خاصة . من هذا مثلا ان السلوفاكى الذى كان يعيش فى الامبراطورية النمساوية المجرية لم يكن يعتبر ابدا نمساويا ولا مجريا ، برغم أنه واحد من رعايا الامبراطورية . فكان كل من ابناء هذه البلاد يعامل على أساس سلسلة اسلافه كواحد من أفراد جماعة معينة ، وليس على أساس الدولة التى يعيش الآن داخل حدودها . فاذا كانت الجماعة القومية التى ينتمى اليها هى صاحبة اليد العليا فى السيطرة السياسية على مقدرات البلاد ، كان بذلك عضو الاغلبية . أما اذا لم تكن كذلك ، فهو اذن عضو فى اقلية ، وكان مركزه يتحدد بالتالى ـ بمقتضى العرف والقانون ـ وفقا لهذا الاعتبار .

اما الولايات المتحدة فقد مرت فى تطورها بظروف مختلفة عن تلك التى عرضناها بالنسبة للدول الاوربية . فلم تعرف امريكا جماعة قومية واحدة امسكت بيدها زمام السلطة السياسية فى البلاد ، وبذلك اميت دور جماعة الاغلبية بالمفهوم الذى حددناه هنا . وكان المألوف ان يتوافد أبناء القوميات المختلفة والعقائد المتباينة على البلاد من شتى بقاع الارض ليكونوا قومية جديدة ، هى القومية الامريكية . والذى حدث فعلا انه لم يتسنى لاى جماعة قومية أوروبية ـ سواء سياسيا أو عدديا ـ أن تحقق سيطرتها على بقية السكان . ولو اننا اذا نظرنا من حيث العدد نجد ان أعداد المهاجرين من اصل المانى وانجليزى كانت كبيرة ، ولكن لم تتحول أى منها الى اغلبية بالنسبة لمجموع السكان . وعلى هذا الاساس لم تحرم أى من الجماعات القومية من حقوقها السياسية أو المدنية بوجه عام . ومن ثم لم تكن هناك حاجة الى وضع التشريعات التى تحدد المركز السياسى لاى جماعة قومية . بمعنى آخر واضح : لم تعرف الولايات المتحدة « الاقليات القومية » بالمعنى الذى عرفته به أوروبا .

ولذلك يستخدم مفهوم « الاقليات » أو « جماعات الاقيات » فى الولايات المتحدة للدلالة على الجماعات التى تتعرض لبعض أنواع التمييز والاضطهاد ، ويطلق عليها معظم الناس احكاما مسبقة . فليست هناك « جماعات اغلبية » ذات تاريخ خاص بها وتدعى لنفسها حقوقا خاصة فى الدولة . وحتى الجماعات التى كانت موضعا للتعصب والاضطهاد فى عصور سابقة ـ كالالمان او الاسكتلنديين ـ لم تعد تحس هذا الاحساس ، واندمجت فى المجتمع الكبير ، واصبح الجميع « امريكيين » .

اما جماعات الاقلية فى المجتمع الامريكى اليوم فيمكننا ان نصنفها موضوعيا وفق واحد او اكثر من الاسس الاربعة الآتية : العنصر race والقومية ، واللغة ، والدين . وعلى هذا الاساس فان جماعة الاقلية فى الولايات المتحدة اليوم هى تلك التى : لا تنتمى الى العنصر الابيض ، ولا تتمتع بالقومية الامريكية ، أو لا تدين بالعقيدة المسيحية البروتستانتية ، ولا تتكلم اللغة الانجليزية كلغة أم . فهذه السمات الاربع تميز جماعة الاغلبية المسيطرة ، اذا ما شخصناها على أساس العنصر ، او الدين ، أو القومية ، أو اللغة . على أننا نجد أنه ليست جميع الجماعات المتميزة عنصريا ، أو دينيا ، أو قوميا ، أو لغويا جماعات اقلية . فالجماعة لا تعتبر جماعة اقلية الا اذا كانت موضوعا للاحكام الاجتماعية المسبقة ، وللتمييز من جانب الجماعة المسيطرة وكان أفرادها يشعرون بانهم أقلية . فهى بهذا ليست أقلية لمجرد أن أفرادها يتميزون بخصائص عنصرية أو قومية معينة ، أو لان افرادها يدينون بدين معين أو يتكلمون لغة معينة . على الرغم من ان وضع الاقلية فى الولايات المتحدة يرتبط بواحد على الاقل من هذه الاعتبارات الاربع .

وقد بدأت فى العقد الاول من هذا القرن المقاومة المنظمة من جانب بعض جماعات الاقلية فى الولايات المتحدة ضد ما تتعرض له من اضطهاد وتمييز فى المعاملة . وقد اتخذت هذه المقاومة بعد عام ١٩٤٠ صورة الحركة القومية . وبدأت كثير من الجهات الخاصة تولى قدرا متزايدا من اهتمامها وعنايتها للمشكلات التى تعانى منها الاقليات العنصرية ، والدينية ، والوقعية . كما بدأت الحكومة تساهم بدورها ـ وان كان ضئيلا ـ فى مواجهة هذه المشكلات . فصدرت بعض التشريعات التى قضت ـ او حاولت نظريا على الاقل ـ القضاء على التمييز العنصرى فى سوق العمالة ، وفى الحقوق السياسية ، وفى استخدام المرافق والانتفاع بالمؤسسات العامة .. الخ . ومع ذلك لم تسجل الاحداث الا هبوطا ضئيلا جدا فى مقاومة الولايات الجنوبية لحركة الحقوق المدنية . بحيث مازالت الوان الاضطهاد والتمييز قائمة فى معظم الولايات الجنوبية ، ليس آخرها التمييز العنصرى داخل المدارس ومعاهد التعليم بانواعها .

مشكلة الاقليات فى بعض الدول الأخرى :

كان من شان الاسلوب الذى عمد اليه هتلر لاستخدام الاقليات القومية فى اضعاف الدول الاخرى ، وتمزيق وحدتها دافعا لكثير من الدول الاوروبية الى القضاء نهائيا على مشكلة الاقليات داخل حدودها . فعمد التشيك والمجريون الى ابعاد الالمان من اراضيهم بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها باعتبارهم خونة يتعاملون مع عدو البلاد . كما اتفق البولنديون والروس على تبادل البولنديين والاوكرانيين الذين كانوا يعيشون داخل الحدود الجديدة لكل منهم . كما أبعدت بولندة الالمان الذين كانوا يعيشون داخل المناطق الغربية التى دخلت حدودها بعد الحرب ، احلت مستوطنين بولنديين محلهم . وهكذا بذلت دول وسط وشرق أوروبا أقصى ما فى طاقتها للقضاء على الجيوب الالمانية فيها بعد ما عانته هذه الدول من الالمان طوال سنى الحرب .

ومع ذلك ظلت كثرة من الاقليات القومية قائمة فى بعض بلاد أوروبا . فقد وسع الاتحاد السوفيتى حدوده القومية ، فدخلت فيها بالتالى اقليات جديدة متعددة . بعضها اقليات قومية : كسكان دويلات البلطيق والاوكرانيين، وبعضها أقليات دينية كاليهود أو الكاثوليك . على أن الايديولوجية الرسمية للاتحاد السوفيتى تناوىء كل الوان التمييز بين الاقليات ، أو التعصب العنصرى أيان كان لونه، أو الغطاء الذى يتستر به . ومن ثم بذلت حكومة الاتحاد السوفيتى طوال تاريخها جهودا تجل عن الحصر لدمج هذه القوميات فى مجتمع واحد ترفرف عليه راية الماركسية اللينينية ، ولايعرف تمييزا بين مواطن سوفيتى وآخر على أساس انتمائه القومى ، أو الدينى أو العنصرى .

ولن يتسع المجال لمناقشة موضوع الطبقات المغلقة فى الهند ، فهذا مكانه مقال آخر مستقل لما فيه من جوانب متعددة : خلفياته التاريخية ، وأبعاده الاجتماعية ، ونتائجه السياسية والاقتصادية .. الخ . ونكتفى هنا باشارة سريعة الى مشكلة الاقليات الدينية المشتركة بينها وبين الباكستان . فقد حدث بعد تقسيم الهند فى عام ١٩٤٧ الى دولتى الهند والباكستان أن خلق المسلمون فى الهندوالهندوس فى الباكستان مشكلات اقلية خطيرة فى الدولتين الجديدتين . وان كانت الهجرات الضخمة الشاملة التى أعقبت التقسيم قد خففت من وطأة هذه المشكلة . اذ تدفق غداة التقسيم ملايين المسلمين على الباكستان ، وتدافع عشرات الملايين الهندوس من مناطق دولة الباكستان الجديدة الى الهند . ولو أن هذا الوضع الجديد قد خلق مشكلات اجتماعية من نوع آخر (مثل مشكلات التضخم الحضرى ، ومشكلات الاسكان ، ومشكلات المواصلات ، والمشكلات الصحية ، والثقافية ، والتعليمية .. الخ) . ولكن المشكلة التى تعنينا هنا قد خفت حدتها الى حد كبير بفعل هذه الهجرات الجماعية . ولو أن هاتين الدولتين مازالتا تعانيان منمشكلات الصدام بين بعض الاقليات وبقية المجتمع ، وتقدم الوعى الاجتماعى وتغير الظروف الاقتصادية كفيل بتخفيف وطأة هذه المشكلة .

غير أن الهند والباكستان ليستا الدولتين الوحيدتين فى جنوب شرق آسيا اللتان تعانيان من مشكلات الاقلية . فهناك مشكلات من هذا النوع فى بورما ، والفلبين ، والملايو (ماليزيا) . ويحاول بعض الكتاب الغربيين أن يضعوا هذه المشكلة فى غير اطارها ، اما عن جهل ومن ثم عن غير عمد ، أو استنادا الى موقف أيديولوجى يريد أن يخفى حقيقة الصراع الدائر فى تلك المنطقة من العالم . وهكذا يدعىالبعض أن تلك الاقليات قد تحولت هناك الى جماعات ثوريةشيوعية يريدون بذلك أن يخرجوا هذا الصراع من حدوده الموضوعية ويجعلون منه فى النهاية موقفا عنصريا خاصا .

أما فى جنوب افريقيا فمشكلة الاقليات كما نعرف جميعا تلح الحاحا كبيرا ، ليس على البلاد نفسها فحسب وانما على المجتمع الافريقى ، وعلى الاسرة الدولية باجمعها . والعجيب ان الجماعات التى تعتبر اقليات هناك هى : البانتو ، والاسيويين ، وغيرهما من الاجناس غير البيضاء . وقد أضفت الحكومة العنصرية البيضاء – كما أشرنا من قبل – وضعا شرعيا على اضطهاد هذه الاقليات . ونلاحظ بصفة عامة ان القوى الامبريالية فى افريقيا كانت تعامل السكان الوطنيين على العموم كاقليات !. وان كان هذا الوضع قد تعدل فى الدول التى حصلت على استقلالها ، وأصبحت تخضع لحكم أبنائها الشرعيين . وان كانت السياسات الاستعمارية ضد الافريقيين تجمع صفوفها ،وتشد أزر بعضها كما نلاحظ فى التحالف الوثيق بين جنوب افريقيا، وروديسيا ، والبرتغال على سبيل المثال . وعلى الشعوب الافريقية مجتمعة ، بل وعلى سائر دول العالم الثالث ،تقع مسئولية التأييد الفعال لتلك الفئات الوطنية الغالبة التى تعامل فى بلادها معاملة الاقليات ، حتى تستعيد حقوقهاوتنتزع لنفسها ابسط الحقوق الانسانية فى مجتمع يتشدق فيه كل فرد بالانسانية .

بقيت كلمة أخيرة عن الامم المتحدة وعن جهودها فى هذا السبيل . الواقع ان الامم المتحدة تسعى الى حل مشكلات الاقليات عن طريق ابرام اتفاقية دولية عن حقوق الانسان . ولكنها لم تسجل نجاحا كبيرا حتى الآن لاعتبارات مختلفة لاتخفى على فطنة الكثيرين .



جذور التعصب

بقلم : ارنولد روز

ترجمة وتلخيص : سمار جيران

عرفت أغلب بقاع العالم وكل عصور التاريخ تعصب جماعة من الناس ضد جماعة أخرى ، مما شكل أساسا للصراع بين الامم وبين الجماعات فى داخلها ، وينطوى التعصب عادة على النزوع للتفرقة ، التى تعنى اساءة معاملة الناس من غير ذنب اقترفوه . لهذا كان التعصب فى كل مكان وزمان مصدرا لتعاسة البشر وسوء التفاهم بينهم . ومع أن بعض الافراد قد استغلوه لكسب نفوذ سياسى أو ميزات اقتصادية ، الا انه لايوجد نموذج لشعب بأسره تقدم أفراده أو تقدمت حضارتهم لفترة طويلة من الزمن على أساس من التعصب ، بل انه كان على العكس من ذلك ، عاملا من عوامل الاحباط والتعويق .

وأسباب التعصب ، بل ونتائجه ، ليست مفهومة تماما ولم يوفها العلماء حقها من الدراسة ليقفوا عليها بدقة ، كذلك فان أفكار الناس عن التعصب خارج نطاق المشتغلين بالعلوم الاجتماعية خاطئة فى معظمها وزائفة ، بل قد يكون مصدرها هى ذاتها التعصب ، واحيانا تكون بالغة الضرر لاصحابها . لهذا سنلقى نظرة على المصادر المختلفة للتعصب بادئين بأكثر الاسباب بداهة وأقربها الى العقل ، متجهين الى الاسباب التى تقل وضوحا حتى تلك التى تعد لا شعورية .

المنافع الشخصية بوصفها سببا للتعصب

من الاسباب البديهية جدا للتعصب أنه يخلق مزايا ومكاسب مادية للمتعصبين .

– فهو يختلق العذر والمبرر للاستغلال الاقتصادى أو التسلط السياسى .

– وهو يجعل المرء قادرا على أن يستبيح لنفسه أفعالا لايكون فى العادة راغبا فى القيام بها .

– وقد يوفر الفرص للاستغلال الجنسى للنساء المنتميات الى جماعات الاقلية .

---

* بحث فى كتاب : المسألة العنصرية فى العلم الحديث (من مطبوعات هيئة اليونسكو)

ـ وقد يمنح من فى أسفل السلم الاجتماعى تفوقا مظهريا على جماعة الاقلية .

كذلك كانت الامبريالية مصحوبة فى أحيان كثيرة بالتعصب خاصة عندما مارسها الاشخاص ذوو الاصل الاوروبى ضد غير الاوروبيين . وحتى عندما لم يكن هناك تعصب يستحق الذكر فى بعض البلاد ، كان افرادها الذين يذهبون لادارة المستعمرات ، او للتجارة ، او التنقيب عن المعادن والثروات فى البلاد غير النامية ، يتعامون ان الفطرسة والجفاء الى جانب موقف من التعالى العنصرى يساعدهم على انجاز مهمتهم .

فالمعاملة الجافة مع المطالب المغمة بالتشدد والتسلط فى حدود معينة ، تؤدى الى عائد ضخم من انتاج العاملين اللذين لايملكون وسيلة للدفاع او رد الاساءة ، وينظرون الى الاجور المنخفضة ومايكفى للحد الادنى من متطلبات المعيشة على انه مكاسب ضخمة .

ويصعب على المرء ان يحدد مقدار ماهو شعورى وماهو لاشعورى من بين هذه الصور للتعصب والتفرقة من اجل الاستغلال ولكن ليست لهذا الامر أهمية كبيرة ، اذ ان النتائج والاسباب الكامنة واحدة فى الحالتين .

أما عن المكاسب فقد تكون سياسية او اقتصادية ، فيمكن تشجيع الفروق بين الجماعات للابقاء على حزب معين داخل السلطة السياسية . ولقد كان بعض الدكتاتوريين «خبراء» فى اساليب «فرق تسد» للاحتفاظ بالنفوذ فى بلادهم وبسطه خارجها . وفى عدد من البلاد الديموقراطية التى يتفشى فيها التعصب ، يبنى بعض السياسيين حملاتهم الانتخابية على نظريات فى الامتياز العنصرى . كذلك فان أغلب المنظمات التى تشكلت لتشجيع الحقد العنصرى كان هدفها الاخير ينحصر فى المطامع السياسية . ومع ذلك فالاستغلال الاقتصادى او السياسى بوصفه سببا للتعصب له حدود ، فلابد ان يتم التوازن بينه وبين مايدفعه ثمنا للتعصب . فلايستبعد ان الدول الامبريالية كانت ستجنى المزيد من المزايا الاقتصادية لو أنها لم تسلك طريقا مفعما بالتعصب والتفرقة والعنف . اما الافراد الذين يستغلون التعصب فيصيرون ضحايا لما يدفعونه من نفوسهم ثمن تعصبهم ، لانهم يعانون من وطأة وعيهم بانهم مستغلون ومخادعون ، وليس من المستحب للمرء أن تكون فكرته عن نفسه أنه ظالم عديم الشرف مفتقر الى المثل ، وفى هذه الحالة لاتنجح الاساليب الدفاعية السيكولوجية فى تبرير الظلم وانعدام الامانة ، مما يخلق بالتاكيد تحجرا فى الشخصية . وسوف نرى فيما بعد أنواعا اخرى من الخسائر التى تدفعها الدول والجماعات والافراد جميعا ثمنا لموقفها وسلوكها التعصبى .

الجهل بالجماعات الأخرى بوصفه سببا للتعصب

يكاد التعصب دائما ان يكون مصحوبا بآراء خاطئة أو قاصرة عن الاشخاص الذين يعانون منه ، فكثير من الاعتقادات الزائفة تاخذ شكل مايسميه العلماء النماذج النمطية Stereotypes وهى عبارة عن مبالغات فى بعض سمات الخلقة ، او فى المميزات الثقافية التى توجد بين بعض اعضاء جماعة الاقلية ، ثم تنسب بعد ذلك الى كل فرد من الجماعة . وبسبب هذه المبالغات يجرى الحكم على الفرد لا على اساس خصائصه هو شخصيا ، بل على أساس المعتقدات المبالغ فيها والملتوية عن الخصائص المميزة للجماعة التى ينمى اليها .

وعادة لاتكون هذه النماذج النمطية فى صالح جماعة الاقلية ، ولكنها لاتكون كذلك فى كل الاحوال . فالفكرة الشائعة عن الزنوج فى جنوب افريقيا والولايات المتحدة مثلا ، تمثلهم متوحشين بلهاء ولا اخلاقيين ، لكنها تعتبرهم مع ذلك مرحين كرماء واهلا للثقة ، وهذا النمط يخدم فكرة استخدام الزنوج كخدم وعمال يفتقرون الى المهارة ، فالسمات «الطيبة» تبرر معاملتهم كاطفال ، وتشير الى أنهم يرتضون هذه المعاملة .

وهذه الافكار النمطية التى تطبق على جماعة ما فى زمن ما يمكن أن تطبق على جماعة اخرى فى زمن آخر ، وهى قد تطبق على جماعة ما فى احد البلاد ، ثم لاتطبق على نفس هذه الجماعة فى بلد آخر . فالنموذج النمطى عن اليهود فى اوروبا الوسطى يتضمن الاعتقاد فى قدرتهم الجنسية وميلهم الى الانحراف الجنسى ، مع أن الحال ليست كذلك فى الولايات المتحدة ، بل تطبق هذه الفكرة على الزنوج خاصة فى ولايات الجنوب ، بينما توجد أنواع اخرى من النماذج النمطية عن اليهود هناك .

والجهل الذى يرتكز عليه التعصب يتفاوت تفاوتا هائلا ، فقد ياخذ شكل المعلومة الخاطئة عن الصفات البدنية ، أو العادات الثقافية ، أو المعتقدات ؛ وقد ياخذ شكل الاساطير عن قدرات تفوق طاقة البشر أو عن مواطن ضعف طفلية . فتعصب الالمان ضد الشعوب الاخرى كان ينطوى على افكار مختلفة عن اللااخلاقية والانحلال والبلاهة وضيق الافق والغباء والحمق والجهل والادعاء والتآمر والانحراف لم يسلم منها الفرنسيون او الانجليز او الامريكيون أو الروس أو اليهود . وهذا مجرد عينة من القدر الهائل من الجهل الذى قد يلحق ببلد حديث متحضر . وهذه

الافكار الخاطئة لاتقل بالضرورة عندما يكون هناك عـــدد كبير من الافراد فى جماعة الاقلية ، يحمل مظهرهم وسلوكهم تكذيبا صريحا للاعتقادات الخاطئة عنهم . فاقوى انواع التعصب واكبر قدر من الاعتقادات الزائفة عن الزنوج ، يوجد بين البيض فى جنوب افريقيا الذين يعيشون وسط تعداد من السود يفوقهم بنسبة اربعة او خمسة الى واحد، وكذلك فى امريكا يعـانى زنوج ولايات الجنـوب من كثرة المعتقدات الخاطئة عنهم والتى تفوق مايعانيه زنوج ولايات الشمال مع ان نسبة الزنوج فى الجنوب الى بقية السكان أكبر منها فى ولايات الشمال . ويرجع سبب جهل جماعة بجماعة اخرى الى العزلة الاجتماعية ، التى قد تحدث حتى عندما يكون هناك قدر كبير من الاحتكاك ، فقد يعيش الناس جرانا فى ديار متجاورة ، بل وقد يعملون معا ومع ذلك لايتعارفون على بعضهم بالضرورة كافراد من البشر . وتصاحب التعصب كل من عوامل العزلة المادية والاجتماعية التى برغم كونها من ضمن نتائج التعصب الا انها من بين اسبابه ايضا لانها تساعد على الجهل الذى يخدم بدوره التعصب، لانه يساعد داعية الاستغلال الاقتصادى والتسلط السياسى ويمهد له الطريق لتحقيق اغراضه بسهولة . يتضح اذن مما سبق : ـ

(أ) ان الجهل ياخذ شكل الافتقار الى المعرفة او شكل الفكرة الخاطئة .

(ب) ان الجهل فى حد ذاته ليس سببا مباشرا للتعصب بقدر ماهو عامل ممهد له ومساعد عليه .

العنصرية «او مركب العظمة» بوصفها سببا للتعصب

ان مشاكل العلاقات بين الجماعات يمكن تصنيفها الى انواع ثلاثة :

١ ـ مشكلات ذات دوافع سياسية ـ واساسها الصراع من أجل السلطة السياسية ومثل هذا النوع وقع كثيرا فى العلاقات بين الدول وبعضها ، ومن الامثلة الحديثة عليه الحقد الطويل الذى ساد بين فرنسا والمانيا .

٢ ـ مشكلات اساسها اختلاف العقائد الدينية ، وتاريخ الغرب شاهد على قرون عديدة من العنف بين جماعات تدين بعقائد مختلفة . كذلك جزء من الصراع الحديث بين بعض الاتجاهات سببه ايضا اختلاف العقائد ، ولو ان معظمه يرجع الى الصراع من أجل السلطة السياسية .

٣ ـ مشكلات تسببها النعرة العنصرية او مشكلة الاجناس ، وهى ظاهرة حديثة كانت نادرة قبل أن يحدث انحراف فى بدايات علم البيولوجيا منذ قرنين . وهى لم تنتشر حتى الان فى كل الثقافات كما هى منتشرة فى الغرب، وترجع الى علماء التاريخ الطبيعى فى القرن ١٨ وبداية القرن ١٩ الذين صنفوا البشر الى خمسة أجناس متدرجة فى الرقى كما تتدرج الحيوانات . الا ان علماء البيولوجيا سرعان ماصححوا هذا الخطا وبينوا ان البشرية ترتد الى اصل واحد فقط وان الفروق بين الاجناس ماهى الا تطورات لاحقة بحيث لايمكن وضع احد الاجناس فى مرتبة ارقى من غيره . لكن هذه الفكرة ، مع ذلك صارت اساسا للصراع بين الجماعات ، وهو مانسميه الان بالعنصرية .

ان النزعة العنصرية تقوم على مجموعة من المعتقدات الشائعة التى تتضمن العناصر الاتية : ـ

١ ـ ان الاختلافات بين الجماعات ، فى الجسم والعقل ، ترجع الى صـفات بيولوجية وراثيـة لايمكن تغييرها .

٢ ـ ان العادات والمواقف والاتجاهات والمعتقدات والسلوك وكل ما « نتعلمه » ، محدد لنا قبل مولدنا .

٣ ـ كل الفروق بين جماعة اقلية وجماعة اكثرية تؤخذ دلائل على الدونية .

٤ ـ لو حدث تزاوج بين الجماعتين سيحمل الاطفال صفات اسوا من اى من الابوين . وتستخدم كلمة «تهجين» القبيحة لتوحى بنتائج هذا الزواج التى ستؤدى الى انهيار الحضارة والعودة الى حياة التوحش والهمجية .

وقد اصبحت هـــذه المعتقدات العنصرية منتشرة ولا شعورية وتقليدية بين اهل الغرب حتى انه يمكن اعتبار العنصرية الناجمة عنها سببا مستقلا من اسباب التعصب، بل ان بعض العلماء الاجتماعيين يعتبرونها اهم انواع التعصب بين الناس . وكانت الولايات المتحدة من اول الدول التى عرفت هذه النزعة العنصرية مع الزنوج ، ولو ان الكثيرين، وضمنهم بعض ملاك العبيد فى زمن تفشى الرق ، راوا فيها تعارضا مع نماء الديموقراطية ، ولم يكن التعصب مقرونا فى ذلك الوقت بالرق اقترانا ضروريا ، بدليل ان كثيرين من البيض اعتقوا عبيدهم ومنحوهم الحرية ، اى انه لم يكن هناك تعصب ضد الزنوج على اى من الاسس العنصرية التى رايناها لتونا . ولكن الذى حدث فى هذه الفترة ، ان اخترعت آلات حلج القطن واستخراج السكر من القصب الى جانب تيسيرات التجارة الدولية مما جعل الولايات الجنوبية من المناطق الغنية بالثروات ، واستلزم الامر بالطبع ايدى عاملة جديدة ، فلم تكن الموجودة تكفى حتى مع المهاجرين من اوروبا لهذا الغرض خصيصا . لذلك جيء بمزيد من الزنوج الرقيق (وكان هذا غير قانونى فى ذلك الوقت) . ثم انتشرت مزارع القطن واثرى كثير من الملاك البيض وبدات تظهر بعض الضغوط لالغاء الرقيق والعبودية

وهو ماقامت به بعض الدول الاخرى . فقد بدأت المسألة تأخذ شكلا لا أخلاقيا وهميا ، كذلك بدأ بعض فقراء البيض يضيقون بنظام يعطى كل السلطة للاثرياء ملاك العبيد ، عندئذ أصبحت مفاهيم العنصرية عاملا مبررا للقول بأن الزنوج من جنس يشبه الاطفال يحتاجون دائما لمن يقف من ورائهم فى العمل لمصلحتهم الشخصية ، وعلى ذلك يجب ان يظلوا فى مستوى أدنى من البيض الفقراء صونا للمدنية والحضارة . من هنا أطبق التعصب الناجم عن العنصرية على ولايات الجنوب ومابرح مخيما عليها حتى اليوم . أما فى أوروبا الغربية ، فى النصف الاول من القرن ١٩ ، فلم يتناول العنصرية الا عدد قليل من الكتاب ، لكن ليس معنى هذا ان اوروبا لم تعرف التعصب ، غير أنه كان فى ذلك الوقت دينيا وثقافيا فى طابعه اكثر منه عنصريا . لكن حوالى ١٨٧٠ بدأت العنصرية تزحف على نطاق واسع ، وعرفت المانيا معاداة السامية على يد جماعتين احداهما تحت زعامة «شتوكر» والثانية تزعمها «بسمارك» ، مع أن بسمارك نفسه لم يكن معاديا للسامية الا أنه كان يسعى من وراء ذلك الى مصالحه الشخصية . وظل من أعقبوا بسمارك فى الحكومة الالمانية يستغلون معاداة السامية حتى أصبحت تقليدا شعبيا .

وظهرت معاداة السامية فى روسيا ايضا فى ظل النظام القيصرى كما ظهرت كذلك فى فرنسا . اذن فالعنصرية عبارة عن جملة تقاليد - بعضها عام وبعضها خاص - أصبحت جزءا من الثقافة الشعبية لبعض بلاد الغرب دون غيرها ، وحيثما سادت أثرت على الناس وجعلتهم يفكرون على ضوء التفوق والامتياز البيولوجى لاحد الاجناس على غيره والتصرف باسلوب عنيف تعصبى ازاء بعض جماعات الاقلية ، وحيثما وجدت نحت جانبا او على الاقل تشابكت مع كل الاسس الاخرى للصراع بين الجماعات .

الجهل باضرار التعصب بوصفه مصدرا للتعصب

يعتقد كثير من الناس أن النتائج السيئة للتعصب لايشعر بها الا الذين يعانون من وطأة التعصب . لكن فى الواقع تنعكس آثار التعصب السيئة على المتعصبين أنفسهم دون أن يبدو انهم ضحايا لموقفهم ومسلكهم الشخصى . لهذا نرى من الضرورى أن نتفحص الطرق التى يكون بها التعصب ضاراً بالمتعصبين أنفسهم .

١ - أولا هناك الخسارة الاقتصادية المباشرة الناجمة عن عدم استخدام الانتاجية الكاملة للطاقة البشرية والوفاء بكل مطالب السوق ، مادامت هناك طاقات معطلة بسبب التعصب ، أو افراد يعملون فى أشغال قليلة الاهمية ، وتستفحل هذه الخسارة فى فترات نقص الطاقات البشرية ، لذلك يقترن التعصب بانخفاض مستوى المعيشة فى بلاد كثيرة من العالم حتى برغم توافر الثروات الطبيعية وعدم وجود زيادة سكانية اذ يحفظ التعصب انتاجية الفرد عند مستوى منخفض ، والولايات الجنوبية فى أمريكا تزودنا بمثال على هذا الكلام .

٢ - هناك ضرر اقتصادى بسببه التعصب ، وينشب عن بعض المشاكل الاجتماعية التى تتحملها ميزانية الدولة . فحيثما يخلق التعصب مشاكل اجتماعية ، على الحكومة ان تسيطر عليها أو تخفف منها . وحتى لو كان القائمون على الحكم أشد الافراد تعصبا فلا مفر أمامهم من السيطرة على الامراض المعدية والاوبئة وتوفير جهاز للامن ، وتقديم بعض الحماية من الحوادث ، واعطاء حد أدنى من المئونة حتى لاتظهر اى مجاعة ، وهذه كلها تكاليف مباشرة . فعندما ينتشر وباء بين جماعة مضطهدة فان تأثيره لايقتصر عليها وحدها ، كما أن الجرائم التى ترتكبها جماعة كهذه تعود نتيجتها على بقية الجماعات .

٣ - نوع ثالث من الخسارة يتمثل فى الوقت الذى يضيع فى كثرة الاجتماعات واللجان فى البلاد التى فيها تعصب لبحث كيفية معاملة الاقليات ، وتعتبر هذه الاجتماعات مضيعة للوقت وخسارة قياسا على المهام الحيوية التى يجب أن تبحثها الاجتماعات . ويقع على المعنيين بالامر عبء ثقيل يقاس بالزمن الذى يضيع سدى والطاقة الذهنية التى تتبدد .

٤ - النوع الرابع من الخسارة يظهر بوضوح فى العلاقات بين الدول فى أيامنا . فكل دولة يعنيها ان تكسب ثقة واحترام الدول الاخرى ، فتهدف الديبلوماسية والمعونات الاقتصادية الدولية ، والاشتراك فى المنظمات العالمية ، الى جانب سائر الانشطة الحكومية الى كسب المكانة والنفوذ . لكن بعض الدول تخسر جزءا من هذه الجهود بسبب أعمال التعصب التى تقع داخلها . فقلما يستحسن الناس أعمال العنف والتفرقة ضد أناس ينتمون لجنسهم أو جنسيتهم فى بلاد أخرى ، ولذلك لاتحظى هذه البلاد بثقة واحترام غيرها من الدول .

٥ - وخامس الآثار السيئة للتعصب له طابع سيكولوجى ، ومنشأه الحواجز التى يخلقها التعصب أمام الاتصال بين الناس وتكون نتيجتها أن المتعصبين لايخالطون الاقليات ولايتعرفون على معارفهم وثقافتهم ، بينما هذه الاقليات تسير حثيثا نحو تحسين أوضاعها بالتثقيف وتحصيل العلم ، فتقل الفروق بين الجماعتين فى صالح الاقلية ، بينما تلحق بالمتعصبين من جراء الحواجز التى يقيمونها خسارة تتفاقم يوما بعد يوم .

٦ - يستخدم التعصب منفذا لتفريغ الشعور بالاحباط ، فقد بين عدد من الدراسات أن وجود مواقف

تسبب الاحباط يزيد فى معظم الاحوال من التعصب ضد أى جماعة كوسيلة لتخفيف هذا الاحباط . لكن مادمنا نتناول أنواعا من التعصب تمارسها جماعات بأسرها فلابد أن نواحى الاحباط التى تقف من ورائها على درجة كبيرة من الشدة والخطورة ، وهذه الصور من الاحباط تنشأ عن ظروف خارجية مثل الاضطرابات الاقتصادية ، أو عدم الاشباع داخل العلاقات الاسرية وغيرها ، وهذه بالطبع مشاكل صعبة لكن التعصب لايحلها ، فهو على احسن الفروض يخفف مؤقتا من وطأة الاحباط ، وفى ذلك ضرر مادام يعوق البحث عن السبب الفعلى لهذا الاحباط .

٧ ـ كذلك كشفت بعض الابحاث الاخيرة عن وجود علاقة بين التعصب وانواع أخرى من التحجر وضيق الافق. على الاقل فى الثقافة الغربية ، ومع أن السبب فى ذلك لم يتضح بعد الا أن العلاقة قوية لدرجة تبيح القول بأن الاخذ بالتعصب يصاحبه عقل مغلق أمام كل جديد ،وعجز عن تقبل ومبادلة العلاقات الانسانية بطريقة سوية ، ومن الواضح طبعا أن الذى يعانى من هذه العيوب فى الشخصية يفوته الكثير مما تستطيع أن تقدمه الحياة .

٨ ـ يتسم التعصب ، من بين مايتسم به ، بخوف وقلق ازاء الجماعات موضوع التعصب ، فالجماعات المتعصبة تخشى من الاقليات أن تقوم بالتآمر أو الخيانة أو التجسس ، أو تنسب اليها بعض الطقوس المخيفة مما يزيد من حدة التعصب ، وهذا يدل على ان الاحساس بالرهبة يكون بدوره باعثا على الارهاب .

وصحيح أن هذه المخاوف والقلق أساسها اعتقادات وهمية لكن الآلام النفسية التى تعترى من يعيشون فيها، حقيقية وليست وهما ؛ اذن فالتعصب يساهم فى اتعاس المتعصبين أيضا .

٩ ـ عندما يكون التعصب جزءا من ثقافة شعب معين ، يستطيع تغيير اتجاهه من جماعة الى جماعة اخرى. وتاريخ البلاد التى ظهر فيها التعصب يبين أن الاقليات المختلفة كانت أهدافا للتعصب فى أزمنة مختلفة ولاتكون أهدافا ثابتة كما يظن الكثيرون . فالاقلية التى تهاجر من بلد الى بلد له جنسية أخرى ، قد تكون موضع تعصب كان موجها ضد جماعة أخرى قبلها . أو بمعنى آخر ليست هناك جماعة فى مأمن من التعصب طالما أن هناك آية جماعة تعانى منه .

١٠ ـ يقترن بالتعصب عدم احترام القانون وعدم الرغبة فى فض المنازعات بطريقة سلمية ، وعندما يساء استخدام القوانين أو يضرب بها عرض الحائط ، تفقد هيبتها . ويصير الخروج على القانون جزءا من الثقافة العامة ، وعندما توجد عادات ثقافية خطيرة ، يكون اى فرد واية جماعة عرضة للمعاناة منها .

ومما لاشك فيه أن المتعصبين يؤمنون بأن التعصب لن ينقلب ضدهم ، ولن تنعكس عليهم آثاره السيئة ، ولو ادركوا عواقب مواقفهم ومسلكهم لاستطاعوا على الاقل ان يراجعوا هذه المواقف . وقد أثبتت بعض الاسئلة المطروحة على المتعصبين أنهم حتى مع وعيهم بممارسة التعصب ضد الاقليات لايعون ردود فعله ضدهم . اذن فالجهل بكل نتائج التعصب وردود الفعل الناجمة عنه يكون بمثابة الظروف المهيئة او السبب الضرورى ، للتعصب رغم انه لايفسره تفسيرا كافيا .

انتقال التعصب الى الاطفال

رأينا فيما سبق أن التعصب ينتج فى الغالب عن دعاية مقصودة ومتعمدة ، الا أن كثرة ظهوره لدى أطفال صغار ، تبعث على الظن بانه فطرى . وهذا خطأ ، فواقع الامر أن التعصب مكتسب وقد يتعلمه الاطفال وهم مازالوا فى الرابعة من عمرهم كما توضح الدراسات . ويجرى تعليم التعصب بنفس الطريقة التى تعلم بها المسائل المعنوية ، وقد يقوم بهذا الدور آباء الاطفال او مدرسوهم أو أصدقاؤهم . لكن الابوين هم اكثر هؤلاء اهمية ، وبينما بعض الآباء لا يريدون لاطفالهم أن يصيروا متعصبين ، نجد غيرهم يعلموا أطفالهم التعصب لانهم نشأوا من صغرهم على الاعتقاد بأنه أمر سليم وطبيعى .

والآباء يعلمون أطفالهم التعصب من خلال سلوكهم الشخصى وتعبيراتهم ونواهيهم ، وملاحظاتهم .. الخ وقد يلجأ الكبار أحياناً للسخرية من الاطفال لحثهم على التعصب وفى أوقات كثيرة لايدرك الكبار أنهم يعلمونه لاطفالهم ، فقد تحكى الام لزوجها على مائدة العشاء وعلى مسمع من الاطفال، عن مشكلاتها مع المديرة الزنجية ، فيمتص الاطفال كل ذلك بل يقومون بمحاكاة سلوكها ازاء المديرة .

أما فى المدارس فقد تساعد بعض الكتب على خلق التعصب ، واثبتت عمليات مسح للكتب المدرسية فى دول عديدة أنها تصف شعوب الدول الاخرى بطريقة تقلل من شانها ، خاصة كتب التاريخ ، كما انها تسىء الى الاقليات داخل البلد نفسه . الى جانب ذلك، نجد أن الاطفال الكبار يعلمون التعصب للاطفال الاصغر سنا ، فمن المعروف عن الاطفال أنهم يضعون القواعد لشتى الاشياء والامور ، فاذا كان التعصب من بين هذه القواعد داخل «الشلة» ، يحرص الاطفال الاكبر سنا على تعليمه لغيرهم وبطريقة اكثر تشددا من الاباء . وقد يختلقون قصصا مجافية للحقيقة عن

الاقليات ، كلها من نسج الخيال لكن اثرها يكون من القوة بحيث يؤثر على الاتجاهات فى المستقبل . نلاحظ من ذلك ان تعلم التعصب عند الصغار او الكبار يتم كما يتم تعليم اى شيء آخر ، اى يتناقله الناس فيما بينهم جيلا بعـد جيل ، واثناء ذلك قد ينتقل من اقلية ضد اقلية اخرى، كما انه قد يضعف او يقوى ، لكن طريقة تعلمه تظل كما هى ، ومع ذلك لايعد تعلمه امرا حتميا ، اذ يستطيع بعض الآباء حتى داخل منـاخ يسـوده التعصب ، ان يعلموا ابناءهم سعة الافق والبعد عن ذلك التعصب ، وفى امكان الصغار والكبار الذين تعلموا التعصب ان يمحوه ويتخلصوا منه ، كما ان هناك دورا امام الآباء العقلاء والمدرسين والاصدقاء والكتب لتوضيح نواحى الخطأ فى التعصب وماينجم عنه من مساوىء واخطار .

سيكولوجيا التعصب

فيما سبق كنا ندرس الاوجه العقلانية للتعصب ، اى من حيث هو يخدم اغراضا معينة او يرجع لنوع من الجهل ، او يمثل تراثا مكتسبا بالتعلم . لكن هناك وظيفة لاعقلية يؤديها التعصب ، اذ يبدو انه يشبع حاجة نفسية معينة ، ويعتبر هذا عاملا مهما للغاية لان التعصب بدونه قد يتهاوى ويتلاشى بصورة طبيعية بعد اجيال قليلة لو ادرك الناس انهم كانوا ضحايا لخداع قلة من الافراد يستغلون التعصب ، او انهم كانوا يسيرون كالقطيع وراء تقاليد ضارة .

ان لدى النـــاس نظـريات مختلفة عن الاسس السيكولوجية للتعصب ، وكثيرون منهم يؤمنون ببعض هذه النظريات مع ان البحوث والدراسات العلمية تكذبها . من بين هذه الافكار ان التعصب ينشأ دائما بطريقة غريزية ضد الناس الذين يختلفون عنا ، ويمكن ان تسمى هـذه الفكرة بنظرية «كراهية الاختلافات»
The dislike of differences

لكن هناك أخطاء كثيرة فى هذه النظرية :

١ ـ فهى لاتفسر تكوين الافكار النمطية التى تصاحب التعصب ، فكثير من الزنوج مثلا ، ليسوا فى خطورة او قذارة كثير من البيض . وحتى لو قال المتعصب ان معظم الزنوج فيهم سمات لاتعجبه مثل لون البشرة او بعض التصرفات غير الناضجة او غيرها ، فلايستطيع ان ينكر وجود استثناءات ، ومع ذلك فهو متعصب ضد الاستثناءات ايضا .

٢ ـ هناك الكثير من الاختلافات فى اناس ليسوا موضوعا للتعصب ، كما ان هناك اماكن كثيرة فى العـالم يعيش فيها اناس من اجناس مختلفة وديانات مختلفة ومع ذلك لايعرفون التعصب ضد بعضهم البعض ، كما ان الشعر الاحمر من السمات الملفتة مثل البشرة الداكنة ومع ذلك ايضا قلما يظهر التعصب ضد ذوى الشعر الاحمر .

٣ ـ لاتقدم نظرية «كراهية الاختلافات» تفسـيرا للتناقض الذى يقع فيه المتعصبون بشأن الاقليات التى يتعصبون ضدها ، فهم يقولون عن نفس الجماعة : «ان افرادها يحاولون دائما الزج بانفسهم فى اماكن لايكونون مرغوبين فيها» ثم يقولون : «انهم متقربون الى بعضهم ، لا يختلطون بغيرهم . أو يقولوا عن الزنوج « انهم كسالى ليس عندهم طموح » مع انهم أول من يضرب الزنوج ان حاولوا الحصول على العلم أو العمل أو المسكن .

وهناك نظرية اخرى زائفة عن التعصب يقول ان الناس يتعصبون بسبب خبرات غير سارة مع اعضاء من الاقليات . لكن هل تبرر الخبرة السيئة مع فرد فى جماعة، التعصب ضد الجماعة باسرها او ضد كل من يشبهه فى لون البشرة او الشكل او اللهجة ؟

من بين الخطوات الهامة نحو فهم التعصب ما اوضحه علماء النفس عن «الاحباط والعدوان» او مايطلق عليه باللغة الدارجة «كبش الفداء» . فالاحباط لايبعث على السعادة، ويحاول الشخص التخفيف منه بسلوك عدوانى . وعندما لايستطيع الشخص النيل من الاشياء بالذات التى تسبب تعاسته فهو يبحث لنفسه عن بديل او «كبش فداء» وكل منا يستخدم «كبش فداء» احيانا ، فعندما يعوقنا عائق عن القيام بشيء ، او نغضب لسبب ما نركل كرسيا او نلقى بشيء على الارض . ويحدث هذا كثيرا بين الاطفال ولايكون هناك ضرر كبير عندما لايكون «كبش الفدا» كائنا حيا . لكن احيانا يضرب شخص كلبا او طفلا بسبب غضبه من شيء بعيد كل البعد عما قام به الكلب او الطفل ، وقد يعود موظف لبيته بعد يوم وبخه فيه رئيسه ، فيتعلل بأى شيء ليختلق شجارا مع زوجته لانه لايستطيع الرد على رئيسه . كل هذه الصور من السلوك ترجع الى الاحباط . وهناك وسائل متعددة للتصرف حيال الاحباط .

١ ـ محاولة ازالته .

٢ ـ البعد عن مسبباته .

٣ ـ تفهم الطابع الحتمى للاحباط واتخاذ قرار بمواجهته ، على الاقل لفترة من الزمن .

٤ ـ رفض التحقق من سبب الاحباط وتفريغه على «كبش فداء» . ومع ان الاحباط يفسر القوة الكامنة التى

تقف من وراء التعصب ، فانه لا يفسر السبب فى وقوع الاختيار على الاقليات لتكون بمثابة «كبش الفداء» .

وهنا يقدم الينا علماء النفس نظرية اخرى لتفسير هذه الظاهرة ، هى نظرية «الرمز» . فالناس يميلون الى معاملة هذه الجماعات على انها «كبش فداء» لانها اصبحت رموزا لاشياء يكرهونها او يخافونها ، مع انه من المفروض أن تنال حبهم واهتمامهم ، لكنهم لايستطيعون الجهر بهذا الكره او الخوف لانهم قد يبدون حمقى ، ومن امثلة هذه الاشياء الحياة الحافلة بالاهتمامات والفرص الجديدة ، المال ، والاعتقاد فى معاملة الغير بلطف وعدل ، والعلاقات الاسرية الطيبة ، والاشباع الجنسى ، والصحة السليمة وما الى ذلك . ولما كانت كراهية هذه الاشياء امرا غير مستحب ، فانها تتحول الى اللاشعور ، ولا يتم التعبير عنها الا عن طريق بديل رمزى .

التعصب من حيث هو انحلال للشخصية

أوضحت بعض الدراسات المختلفة التى اجراها باحثون متخصصون أن المتعصب ضد السامية ـ وكان هو النمط موضوع البحث ـ شخص يتسم بالمسايرة ، يبدى قلقا امام اى حيود اجتماعى ، كما انه شخص لايتامل ذاته ويسقط كل مساوىء شخصيته على غيره ، فيلومهم على سمات هى فى الواقع تخصه هو ، كما يكون لديه شعور بالدونية ، ويبدى ولاء قويا تجاه ابنائه ودينه ، لكنه يعبر لاشعوريا عن كرهه لابويه ، وعن لا مبالاته بالقيم الاخلاقية ، كذلك تكون لديه رغبة شديدة فى أن يبدو محترما وأن ينتسب للمنظمات ذات النفوذ ، ويتميز بخضوع مظهرى وعدوانية داخلية ، لايرغب فى تحمل المسئولية ؛ ينبذ الجماعات الجادة يرفض الاهتمامات السياسية ، يعانى من صراع بين الجد واللعب ، وهو صراع عاطفى اكثر منه عقلى .. الخ .

لكن هذه الدراسات عن التعصب ، بوصفه تعبيرا عن شخصية منحرفة ، فيها بعض أوجه الضعف اذا نظرنا اليها فى ذاتها ، الا انها اذا ماربطت بغيرها من العوامل التى تقف من وراء التعصب ، تضيف الكثير الى فهمنا ؛ وهى مفيدة على الاخص فى تفسير حالات التعصب المتطرفة .

خاتمة

راينا فيما سبق أن التعصب امر معقد بالفعل ، وهذا التعقد يجعل القضاء عليه امرا صعبا لان اقتلاع احد جذوره لا يؤثر بالضرورة على باقى الجذور ، على اى الحالات نحن نقترح فى النهاية انواع الاجراءات التى قد تساهم فى التقليل من التعصب ، وهى ليست مرتبة حسب اهميتها بل فقط وفقا لما جاء فى هذا العرض .

١ ـ ادراك المتعصبين تماما أن التعصب يؤذيهم ويسىء اليهم ماديا ونفسيا ، وأن مكاسبه ومزاياه مؤقتة ووهمية وتصرفهم عن مكاسب اخرى اكثر اهمية واكثر دواما .

٢ ـ اعطاء قدر من المعلومات الصحيحة عن الاقليات موضوع التعصب لهدم الافكار النمطية الخاطئة ، ومما يساعد على ذلك كثيرا الاحتكاك والمخالطة المباشرة على أسس من الود والمساواة .

٣ ـ مكافحة النزعة العنصرية ، خاصة كلما تدخلت البيولوجيا لتفسير الظواهر الاجتماعية .

٤ ـ النص على عقوبات رادعة ضد التفرقة وفى هذا وسيلة لتحطيم تقاليد التعصب .

٥ ـ تحاشي تعليم التعصب للاطفال ومراعاة السلوك امامهم بتجنب كل مايحثهم على التعصب .

٦ ـ بذل الجهد المباشر لحل المشكلات الاجتماعية الرئيسية مما يصرف الناس عن التعصب ويخفف من بعض مظاهر الاحباط .

٧ ـ توضيح أن كثيرا من المخاوف من الاقليات وهمية لاأساس لها وأن كره جماعة الاقلية تعويض عن كره اشياء اخرى .

هذا الى جانب برنامج عن الصحة العقلية لحمل الناس على أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم .

٨ ـ كل محاولة لتنمية شخصية تتمتع بالصحة والسلامة ، من شانها تقليل التعصب .

ومن المؤكد أن وضع برنامج من العمل الجماعى يشمل كل هذه الانشطة يمكن أن يعمل خلال جيل أو جيلين على تقليل التعصب بدرجة كبيرة . ونامل أن يشهد المستقبل اقتلاع هذه الظاهرة من جذورها وتخليص البشرية من اخطارها وشرورها .

سعاد جبران

العنصرية الجديدة وتتار القرن العشرين

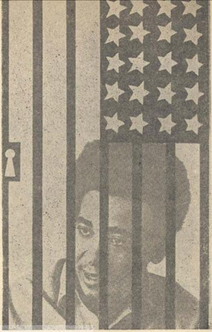
شفيق مقار

« أنتم يامن تحبون أخوتكم بنى الانسان . يامن تقفون فى وجه الشر حيثما كان ، وتكرهون الطغاة . انظروا حولكم : كل ركن من أركان العالم القديم يجتاحه الظلم ، ويغتاله الشر والطغيان. والحرية باتت طريحة على وجه الارض . طوردت من آسيا وافريقيا . أوربا أوصدت الابواب فى وجهها ، واعتبرتها دخيلة . حتى انجلترا أنذرتها بالرحيل . فافتحوا أنتم أبوابكم على مصاريعها لتستقبلوا الحرية الطريدة ، واجعلوا بلادكم ملاذا لكل البشر » .

ماذا حدث لهم ، أولئك الذين وجه اليهم «توماس بين» هذه الكلمات المفعمة بالامل ؟ ماذا حل بهم ، أولئك الذين « يحبون اخوتهم بنى الانسان ويقفون فى وجه الشر والظلم والطغيان » ؟ ماذا أصاب « بلد الحريات » و « ملاذ كل البشر » ؟

***

شيء بالغ القبح يتفجر من وجه اميركا ولم تكد تنقضى على صيحة توماس بين مائتا عام . انفتحت الابواب على مصاريعها نعم ، ولكن **لا** لتستقبل الحرية الطريدة ، بل لتتدفق منها جحافل التتار الجدد ، تطارد الحرية على وجه الارض ، فى آسيا ، فى افريقيا ، فى أوربا ؛ فى كل ركن من أركان العالم القديم ، والعالم الجديد . وباسم أى شيء ؟ باسم الحرية ، والعدل ، وكرامة الانسان . تحقق فيهم **قول كامى : « .. عندما أنظر الى الايام المقبلة اشعر بالخوف . ما ادرانا انه لن يأتى آخرون ، بشعون بعض الشيء ، يتخذون من كل ما حلمنا به ، وضحينا من اجله مبررا ليقتلوا دون أن يقتضى منهم ثمن جرائمهم » .**



مجتمع الجريمة المنظمة

ليس من شك في ان العنف من المكونات الاساسية للشخصية الامريكية ، وهو – في معاملات الحياة العادية ، لدى الامريكي العادي – مرادف للرجولة . ابسط مايمكن ان تفعله لكي تكون رجلا « يغطي الشعر صدرك » ان تلكم الآخر في انفه ، او تهشم له اسنانه . ذلك هو الحد الادنى ، ومنه تتدرج منحنيات العنف صعودا ، من المسدس ذي الطلقات الست الذي يقفز الى اليد في خفة «رائعة محببة للنفس» كخفة الحواة ، طالما تغنت بها السينما الامريكية ، الى القنبلة الذرية ، والقنبلة الهيدروجينية ، وحرب الميكروبات .

وليس من شك ايضا في ان أميركا تباهي أمم الارض جميعا بأعلى نسبة من القتلة المحترفين داخل حدودها : خمسة من القتلة لكل مائة ألف من السكان مقابل ٥ر١ فقط في أوربا واليابان .

بل ولا توجد دولة « متحضرة » اخرى يمكن أن تقارن بأميركا في مجال التنظيم، والتمويل ، والخبرة وحسن الادارة؛ والاستخدام الامثل لاحدث المخترعات العلمية والوسائل التكنية .. في خدمة الجريمة . فداخل الدولة في اميركا دول تتضامل بجانبها بعض الدول الحقيقية ، فلاتدانيها «تقدما» وعزة ، ومنعة ؛ وثراء ؛ هي دول العصابات ، او كما تسمى في اميركا – تأدبا – « المنظمات » أو « النقابات » .. نقابات الجريمة التي تتعامل في القتل والتهديد والابتزاز والدعارة والمخدرات والتهريب والقمار . وهي «دول» لها جيوش . دول «راقية ومتقدمة» للغاية ، لديها وسائل اعلام، واجهزة علاقات عامة ، ويعمل في خدمتها علماء ؛ ورجال سياسة ؛ ورجال شرطة ، ورجال قانون ، ورجال مال واعمال . فهي قد باتت من منظمات الاعمال الكبيرة ، واكتسبت بذلك مكانة اجتماعية أوشكت أن تضعها ، او هي في سبيلها الى أن تضعها ، على حدود المشروعية . أليست تتعامل في البلايين؟

لكن هذا كله ذائع وشائع ومعروف . ليس فيه جديد . فالمجلات ، والكتب ، والسينما ، والصحف ؛ ولجان الكونجرس ذاتها ؛ تتحدث فيه ؛ وتتناوله ، وتحقق فيه ، وتتألم له كل يوم . فهو ليس سرا . وكل مجتمع فيه الصالح والطالح . فيه أناس طيبون واناس مجرمون . والشعب الاميركي شعب فتي . اصغر شعوب العالم عمرا ، واقربها تاريخا وهو – ككل شعب فتي – يمر بمرحلة « العنف » المعهودة . وهو – فوق هذا وذاك كله – شعب يغزو الفضاء، ويحارب الفقر والمرض ، ويتخذ موضعا رائدا في كل اقتحامات الجنس البشري لعالم الغد ، وينجب فنانين ، وشعراء ، وعلماء ؛ ويشتريهم ايضا ؛ وفيه أشياء كثيرة جيدة .

لكن ذلك كله ، ان شرا وان خيرا ، شيء يخص الشعب الاميركي وحده ، ولا صلة له بالدور الحقيقي الذي تلعبه اميركا في عالم اليوم .

أميركا ، لماذا تقتل ؟

وقبل أن نحاول التمعن في ذلك الدور ، يجدر بنا أن نجد أجوبة على اسئلة كهذه :

*** لماذا تقف أميركا دائما ، وفي كل الاوقات ، في صف جنوب افريقيا وكل دولة عنصرية اخرى ؟**

*** لماذا لا تضن اميركا بشيء ، حتى دماء شبابها ، في سبيل القضاء على كل حكم وطني في آسيا وافريقيا ؟**

*** لماذا تحارب اميركا في فيتنام ؟ لماذا حاربت في كوريا ؟ ولم نجد لها اصبعا في كل مؤامرة على الشعوب في العالم الثالث ؟**

*** لماذا تهب اميركا دائما لسحق كل محاولة تقوم بها « الشعوب المتأخرة » لتخرج الى ضوء الشمس وتعيش كغيرها ، ولماذا تهب دائما لنصرة كل حركة محق مضادة تقوم بها « الشعوب المتقدمة » لتمنع تلك الجماعات المتأخرة من ان تخرج الى ضوء الشمس وتعيش ؟**

*** لماذا تضطهد اميركا عدة ملايين من الاميركيين داخل حدودها لأن لونهم اسود ، ولماذا تقتلهم ، وتنكل بمهاجري بورتوريكو ؟**

*** لماذا اسرائيل ؟ ولماذا تقتل اميركا العرب ؟**

*** لماذا تقتل اميركا الهنود الحمر في اميركا الجنوبية؟ ولماذا تجعل من جنوب تلك القارة كله معسكر اعتقال كبير ؟**

لمجرد التعصب ؟ لمجرد القتل والتدمير والسلب والنهب كالتتار القدامى ؟ لمجرد اشباع نوازع العنف التى تعتبر من المكونات الاساسية للشخصية الامريكية ، للارهاب وسيادة العالم ؟ لتنشيط مبيعات الأسلحة الأميركية وادوات الموت والدمار (كما يقول الماركسيون) وهى صناعة كبرى فى اميركا ؟ لمحاربة الشيوعية ؟ لحماية « العالم الحر » ؟ « لحماية » اليهود ؟ من قبيل همجية الانسان المتحضر ؟ من قبيل التعصب الذى لا يسمح بالحياة لكل من لا يتكلم لغته ، ولا يشبهه ، ولا يفكر مثله ، ولا يؤمن « بآلهته » ؟

ربما . قد تكون تلك كلها ، أو بعضها ، من الأسباب التى جعلت أميركا الفتية ، المتحضرة ، رائدة القفزة الانسانية الكبرى الى القرن الحادى والعشرين ، تطالع لعالم كله بهذا الوجه البشع .

لكنه يكون من السذاجة ـ وهى سذاجة باتت ، فى ظروف العصر ، مهلكة ـ ان نقنع انفسنا ، او ندع أحدا يقنعنا بأن أميركا ، بلد العلم ، بلد التخطيط والاحصائيات والمنحنيات والمعادلات ودراسة السوق والتنظيم الدقيق ، يمكن أن تطالع العالم بذلك الوجه بهذه الدوافع وحدها .

المغامرة الأميركية :

ولكن ما الذى تفعله أميركا ؟ الا نتجنى عليها ؟ يذكرنا المؤرخون الأميركيون دائما بما فعلته أميركا للعالم اجمع ، فيستشهدون مثلا بما قاله فرنكلين روزفلت فى رسالته عن الحرب العالمية الثانية : « ان الهدف الذى ننشده بعيد كل البعد عن ميدان المعركة وفظائعه . ونحن وقد أرغمنا على اللجوء الى القوة ، نلجأ اليها وقد عقدنا العزم على تسخيرها لتحقيق الخير المطلق للعالم اجمع والقضاء على الشر الذى بات يتهدده » .

ويضيف اولئك المؤرخون عادة أن الشر الذى تهدد العالم قضت عليه اميركا ومحته محوا : « ففى السادس من أغسطس ١٩٤٥ ، خرجت طائرة وحيدة من طراز ب ٢٩ ، وحلقت فى سماء مدينة هيروشيما ، فالقت عليها قنبلة واحدة . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، القيت قنبلة ثانية على مدينة ناجازاكى ، فمحيت المدينتان من الوجود ، وزاد الضحايا عن مائة الف .. وبذلك انتهت افظع حرب عرفها الانسان » . ولا ينسى المؤرخون الاميركيون أن يشيروا الى أن تلك الحرب وضعت على عاتق الشعب الاميركى تبعة لم يعرف لها التاريخ نظيرا : تبعة اعادة تعمير العالم الذى خربته الحرب ، واقامة صرح المدنية المسيحية الغربية من جديد ، وتأييد « الشعوب الحرة » فى كل مكان . ويؤكد المؤرخون ان الشعب الاميركى قد استطاع أن يقوم بالكثير من تبعاته خير قيام : « فأسهم بسخاء فى اعادة بناء العالم الغربى ، وايد الديموقراطية والحرية فى ارجاء الارض » .

أى شىء أكثر من هذا يمكن أن يتوقعه انسان منصف ؟

الحقيقة ان أميركا ظلت ، حتى الكارثة التى حاقت بها فى بيرل هاربر فادخلتها الحرب بالرغم منها ، متمسكة بهذا المبدا الذى ارساه جورج واشنطون فى « خطبة الوداع » :

« ان لأوربا مجموعة من المصالح الاولية لا شأن لنا بها ، أو هى ـ فى أفضل الاحوال ـ واهية الصلة بمصالحنا الاميركية . وأوربا ، بسبب تلك المصالح الاوربية التى لا شأن لنا بها ، مضطرة الى الدخول فى صراعات متكررة ليس من الحكمة فى شىء أن نورط نحن الاميركيين انفسنا فيها ، لانها بعيدة كل البعد عن مصالحنا » .

لم تبدأ المغامرة الاميركية التى يعانى عالم اليوم ويلاتها ، الا بعد انتهاء تلك الفترة من البيات الشتوى الطويل التى عرفت باسم سياسة العزلة . ويخطىء من يتصور أن تلك الفترة انتهت بدخول أميركا الحرب راغمة نتيجة ليوم ٧ ديسمبر المشهود فى تاريخها . فهى لم تخرج من عزلتها حقا ، وتبدأ مغامرتها ، الا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وانتبهت اميركا الفتية الثرية فجأة فاذا بالعالم كله حطام من حولها ، بينما أراضيها ومصانعها هى لم تمس ، واذا أغنى امم الارض تتسول قوت يومها بينما خرجت هى من الحرب أشد ثراء وأعظم تقدما (فى التكنولوجيا على الاقل) مما كانت يوم دخلتها . واذا بها ، فوق هذا وذاك كله ، ممسكة فى قبضة يدها باوربا القلقة الجائعة المحطمة المتهالكة العارية التى دمرتها الحرب ، وباليابان ، منافستها وغريمتها القديمة ، واذا بالمد الاستعمارى القديم ينحسر عن آسيا وافريقيا وبلدان هاتين القارتين الخارجة لتوها من مطحنة الاستعمار القديم تبدو كلقمة سائغة تنتظر من يقدم فيزدردها .

اذ ذاك ادركت اميركا عظم الفرصة التى اتيحت لها على غير انتظار ، بما لم يتح لدولة اخرى قبلها فى التاريخ: فرصة الاستيلاء على عالم بأكمله .

وهكذا فانه عندما ارتفعت أصوات ، فى أعقاب الحرب ، تنادى بالعودة الى سياسة العزلة ، والانصراف الى مشكلات أميركا الداخلية ، وأولها الفقر ؛ اخرست تلك الاصوات بسرعة وحزم ، وانصرفت أميركا بكل قواها الى العالم الذى غنمته .

الرجال ذوو المعاطف البيضاء :

ما الذى تريده أميركا ؟

السيطرة على العالم ؟ ذلك الحلم المهلك القديم ؟

حماية « نظامها الاجتماعى » ؟ فى عصر الوثبات التكنولوجية التى تخلف وراءها كل خوف أيديولوجى قديم؟

« استنزاف ثروات الشعوب » ؟ فى عصر الاستثمارات والتعاون الدولى فى سوق دولية تخلق ظروفا تتحقق فى ظلها أرباح تفوق كل تصور لكل من الطرفين ؟

اعادة صياغة العالم كله وصبه فى قالب طريقة الحياة الاميركية ؟ فى عصر المواصلات ووسائل الاعلام التى تهيىء سبل الانتشار — بل الاجتياح — الثقافى ، بغير حاجة الى أن تتحرك اميركا خطوة خارج حدودها ؟

مجرد اثارة المتاعب واحداث الشغب على المستوى العالمى ، استمرارا لتقاليد الغرب لاميركى البالية القديمة؟

يجدر بنا — قبل أن نجيب على هذه التساؤلات — ان نسأل انفسنا : ما الذى يحدث فى لعالم اليوم ؟

الذى يحدث فى العالم اليوم تحفز لوثبة حضارية وشيكة لم يعرف العالم لها مثيلا فى تاريخه . قفزة مبهرة باعثة على الدوار الى عالم الغد .

ليس الفضاء وحده . وليس التقدم العلمى أو التكنى وحده . وليس الثراء ، أو دخول عصر الفراغ الذى يعمل فيه الانسان ثلاثة أو أربعة أيام فى الاسبوع على الاكثر ، أو اى تقدم يخطر على بال اشد الحالمين تطرفا . بل تغيير كامل — خرافى — للعالم ، وللانسان الذى يعيش فيه .

تغير بدأ بالفعل . تغير العالم والانسان معا . انسان عالم الغد موجود الآن بين ظهرانينا . فى المعامل ، بمعطفه الابيض وموضوعيته الهادئة الباردة التى تقيس كل شىء بالمسطرة الحاسبة ، وتزن كل شىء بالميزان الحساس ، وتفحصه بالمجهر وانبوبة الاختبار ، وتتعامل معه بالاحصائيات والمنحنيات ، والمعادلات ، واخضاع الوسائل للغايات . ذلك الانسان الجديد يعيش ويتكاثر بين غيره من البشر العاديين ، فى مدرجات الجامعات ، فى « المدن » المسورة المكهربة المحرمة التى يحرسها مئات الرجال المسلحين ، فى محطات الابحاث المنعزلة ، فى أعماق المحيطات ، فى السراديب التحت ارضية ، والحجرات المغلقة ؛ وعما قريب فى مدن الفضاء التى ستقام على القمر . ذلك الانسان الجديد عقلانى ممعن فى عقلانيته ، علمى تجريبى ، لا سخف من العاطفة أو الانفعال فيه ، كان يجلس بهدوء علمى فى المعامل الملحقة بمعسكرات اعتقال النازى يشرح المعتقلين وهم احياء ليدرس استجاباتهم للالم . ذلك الانسان الجديد يعرف امكانياته جيدا ، ويعرف ماهو مطلوب منه ، ولديه تقدير على درجة كبيرة من الدقة لما يمكن أن يحققه ، وتقدير متناه فى الدقة لما يحتاجه لكى يحقق ذلك الممكن الذى يستطيع ان يحققه ، وليس لديه ، فى مقابل ذلك اية أوهام مضللة عما يمكن ان يتوقعه من الناس العاديين من فهم أو تعاون . ذلك الانسان الجديد متناثر منتشر فى كل انحاء العالم . وهو اشد تركزا فى أميركا منه فى اى مكان آخر من العالم . لكنه — حيثما وجد — يحس الصلة الوثيقة التى تربطه بسلالته المتفوقة فى كل مكان من العالم ، ويحس الفجوة متزايدة العمق والاتساع التى تفصله عن سائر البشر . وهو حيثما وجد ، لا يحب أن يعلن عن وجوده ، فيعمل ويتصل بمن هم مثله ويتعاون معهم فى صمت وخفية ما استطاع ، لسبب قديم وبسيط ، هو أن الانسان العادى ينطوى دائما على رعب حقيقى ممن يفوقونه ذكاء وقدرات من أبناء نوعه الانسانى ، ويترجم ذلك الرعب دائما فى سلوك نمطى لم يتغير كثيرا من قديم ، فهو يطارد أولئك المتفوقين ويحرقهم او يقتلهم بمختلف الحجج والمعاذير ، التى قد تتغير من عصر الى عصر ، لكن الغرض منها واحد ، فهو مرة يتهمهم بالسحر ، ومرة بالكفر او الزندقة ، ومرة بالخيانة : المهم أن يحرقهم والسلام . جاليليو لو لم يتراجع وينكر ما الذى كان سيحدث له ؟ لقد أدرك الرجل فى عصره حقيقة ذلك الثأر القديم بين « القطيع » وبين المتفوقين فتراجع بسرعة امام الكهنة وأبقى بذلك على حياته ؛ وما من شك فى أن التنظيم الدقيق للمجتمعات المعاصرة يمنع تكرار مثل تلك الافعال الهمجية الساذجة . فلا احد يتصور أن يجتمع عدد من الناس الآن على واحد منهم عبقرى ليحرقوه بتهمة السحر أو الكفر عندما يقفون على سر من أسرار تجاربه . لكن الذى يمكن ان يحدث فعلا هو ان يزج أولئك الناس انوفهم — بما لهم من قوة جماعية ندعوها « الرأى العام » — فى عمل ذلك المتفوق ، فيشكلون بذلك معوقا كبيرا يربك خطاه . كتلك الضجة التى حدثت مؤخرا حول أسلحة الحرب البكتريولوجية والكيماوية مثلا .

انسان الغد ذاك ، الذى يعيش بين ظهرانينا فى كل مكان من العالم ، ويتركز بشكل خاص فى أميركا — يعمل فى شبه خفاء اذن ، فلا يدرى العالم عن عمله وأهدافه وكشوفه الا أقل القليل .

انسان الغد ذاك تتعاون معه فى أميركا ، وتموله ، وترعاه ، وتشد أزره ؛ « وكالات » تعلو حتى على اجهزة الحكم التقليدية : وكالات تخطط للحروب ، وتشنها ، وتبيد البشر ، وتقتل كل من يجرؤ على كلمة « لا » ، حتى داخل اميركا ذاتها .

الذين لديهم والذين ليس لديهم :

يبدو الآن كما لو كان النوع الانسان قد انقسم — من وجهة النظر الاميركية — الى نوعين متمايزين : نوع يمكن ان نسميه « الذين لديهم » The Haves ونوع آخر اسمه ، بغير شك « الذين ليس لديهم » The Have nots وليست المسألة قاصرة على مجرد الثراء — على مستوى الدول — فهى منصبه على امكانية الانضمام اصلا الى نادى القرن الحادى والعشرين : نادى البقاء ، فيما يراه واضعو الاستراتيجية الاميركية .

ليس فى الامر غموض . فالوثبة الحضارية المقبلة —

الى الفضاء ، وعالم القرن الحادى والعشرين تتطلب تركيز موارد العالم أجمع ـ البشرية والطبيعية ـ وتجميعها بما يتيح تحقيق تلك الوثبة . وما عملية « استنزاف العقول » التى تقوم بها اميركا وبعض الدول الدائره فى فلكها تحت اسم الهجرة الا مرحلة من مراحل ذلك التجميع . مرحلة يتم فيها استخلاص كافة العناصر البشرية (من علماء ومتخصصين) القادره على الاسهام فى الجهد الخارق الموجه الى تحقيق ذلك الاقتحام الوشيك لعالم الغد . وهى عملية ذكية . لأن اعداد اولئك العلماء المتخصصين يحمـــل الدول التى ينتمون اليها تكلفة لايستهان بها ، ولا يكلف الدول المستوردة لهم شيئا، اللهم الا ما تتكلفه فترة وجيزة من اعادة التدريب والتوجيه فى مجـــال التخصص .. وبذلك يتحقق هدفان : اولهما : تعويق متزايد للتنمية فى الدول التى تستنزف منها تلك العقول ، وثانيهما : انقاذ تلك العناصر البشرية المتفوقه من المصير الذى يبدو انه ينتظر الشعوب التى تنتمى اليها.

اما الموارد الطبيعية فلا مناص من ان تستغل حيث اوجدتها الطبيعة لانه ما من سبيل الى نقلها . وهى موارد لابد من الوصول الى الاستخدام الامثل لهـــا حتى يتكامل تجميع موارد العـــالم كله وتوجيههـــا الى تحقيق الوثبـــة الحضارية . لكن المشكلة هنا تتعقد ، اذ تتدخل فيها عوامل معاكسة كتيار التحرر الوطنى ، واليقظة القومية ، ورغبة بعض الشعوب فى ان تمسك فى يدها بزمام امورها . ذلك التيار المعاكس ليس قاصرا على دول العالم الثالث . فقد بدأ يتضح فى أوربا ذاتها ، فى وقفة الديجولية من الاجتياح الامريكى . لكنه فى آسيا وافريقيا يمثل خطرا حقيقيا على المصالح والمخططات الامريكية لا يمكن السكوت عليه . ومن هنا كانت الكوارث ، والحروب ، والانقلابات التى توالت على بلدن هاتين القارتين .



عبادة الجنس :

ليس التعصب العنصرى شيئا جديدا فى التاريخ الحديث . المانيا الهتلرية جرت العالم الى حرب من افظع ما عرفه من حروب بفضل اسطورة الجنس الارى .. واميركا بدات وجودها بابادة الهنود الحمر ، لحـــاب الجنس الابيض .

يقول ارنست كاسيرر ان عبادة البطولة التى عرفها العالم القديم (والتى حاول كارليل بعثها ونادى بها علاجا لادواء العصر) حلت محلهـا ، فى عالمنا المعاصر ، عبادة الجنس الابيض بالالوهية وقال عن كل ماعداه من أجناس **دجوبينو** De Gobineau **تطرفا . جوبينو الذى وصف** الجنس الابيض بالالوهة وقال عن كل ماعداه من اجناس انها « فى تكوينها الجسدى : دون مستوى القرده ، وفى استسلامها لغرائزها : أسوأ من الحيوانات الضارية ، وفى ذمة أخلاقها لا تقل شيئا عن أبالسة الجحيم » .

لكن ذلك ليس اهم ما فى الكونت دجوبينو : اهم ما عنده نظريته فى الحضارة والاجناس فالتعاون بين الاجناس

يعنى التعايش (التعايش بين جنس خالص أسمى وأجناس دنيا فى مستوى السائمة) والتعايش يعنى اختلاط دماء الاجناس ، وذلك اختلاط يعنى التدهور والفساد . وهو دائما بداية النهاية لان الجنس الاسمى لا يكاد يفقد نقاءه حتى يضمحل ، ويفقد قوته وقدرته على الخلق والتنظيم ، وينزل الى مستوى الاجناس الدنيا ، وبذلك تموت الحضارات .

لا مفر اذن ، للحفاظ على الحضارة ، من عالم الجنس الواحد . عالم الجنس الاسمى . لكن اميركا قد خاضت حربا ضارية ضد النازيين اصحاب اسطورة ذلك الجنس الاسمى ، واميركا ذاتها ليس فيها جنس أسمى ، فهى خليط من اجناس وشعوب وثقافات عديدة . ومع ذلك ، فلكمة الجنس Race هذه مطاطة للغاية ، لانها ، فى حقيقة امرها ، كلمة غير واقعية اعتباطية ، لا تعبر عن حقيقة موضوعية (وهو ماتقرره مجموعة العلوم الانسانيةالتى باتت ترفضها اصلا) فهى كلمة لا تستعصى على التطويع . وهكذا امكن ان يتخذ مفهوم الجنس عند جوبينو والنازيين شكلا جديدا وابعادا جديدة (وان ظل المضمون واحدا : جنس سيد واجناس من العبيد) : ظل طبعا — وبالضرورة — قائما على خصائص جسدية بعينها ، أهمها اللون الابيض مع التغاضي عن حكاية الدم الارى الخالص ، اذ يمكن — تمشيا مع حكم الضرورة — ان يتسع ذلك المفهوم لدم جديد يكون خليطا من دماء عدة شعوب . فهو مفهوم زائف من اساسه . وليس ما يمنع من تعديله وادخال اضافات عليه : بدلا من السلالة ، يوضع معيار الانجازات الحضارية ، وبذلك يصبح الجنس السيد الذى تستند اليه العنصرية الجديدة صورة مؤلهة للانسان الاوربى الاميركى Euro-American man الابيض الذى سبق سائر البشر (لانه استعمر سائر البشر طويلا) فى مجال التقدم العلمى والتكنولوجى ، الانسان الذى نراه يتقارب ، ويتعاون ، ويوحد موارده وطاقاته استعدادا الوثبة حضارية لم يسبق لها مثيل ، لم تعد متطلباتها تسمح له بأن يدع غيره من البشر يعوقون انطلاقته بتخلفهم (حتى ولو كان هو السبب الاول فيه ! ، وحاجتهم الى من يساعدهم على التقدم ؛ وعدم قدرتهم على الاستغلال الامثل لمواردهم الطبيعية التى لا غنى لتلك الوثبة الحضارية الوشيكة عنها .

استراتيجية الابادة والتتار الجدد :

ليست حركات الابادة شيئا جديدا فى تاريخ الانسان. فهى قديمة قدم التعصب فى كل اشكاله ، « كل من يختلف عنى ليس منى ، فاقتله ، لان العالم لا يتسع لى وله » العالم وجد لى ولمن هى مثلى » . لكن الابادة ، كمفهوم الجنس الذى تم توسيعه وتطويره ليلائم مقتضى الحال ، مرت هى الاخرى بمرحلة تطوير وتعديل فى الوسائل ، لتلائم ظروف العصر . الخطأ الذى ارتكبه الهتلريون انهم زاولوا الابادة بطريقة مكشوفه مركزة داخل حدودهم ، مما اثار عليهم ثائرة العالم اجمع . ما الذى يمنع من ابادة الشعوب فى مواطنها ، بالتحكم البعيد Remote Control خاصة فى عصر الامم المتحدة ، والشعارات الانسانية ، «والرأى العام العالمى» الذى لم يعد يسمح بتكرار التجربة النازية الفجة ! فوق ان التجربة النازية كانت محدودة للغاية اذا ما قيست بأبعاد مخطط الابادة الذى بدأته العنصرية الجديدة .

ولننظر فى كل ركن من اركان العالم . داخل حدود أميركا يقاتل الزنوج قتالا مستميتا فى حرب بقاء مفروضة عليهم فرضا : عشرون مليونا فى وجه الشعب الاميركى باكمله الذى يعلم اطفاله الكراهية ويعلمهم القتل من سنيهم الاولى .

على حدود اميركا حملة ابادة منظمة ، فى حوض الامازون ، لشعب بأكمله من الهنود الحمر تستهدف اتمام ما بداه الغزاة الاوربيون منذ عهد كورتيز ، وتكرار مافعله الاميركيون فى شمال القارة ، من قضاء على هذا الشعب الذى حرم من أرضه وجرد من حضارته العريقة ، وحوله سادته البيض الى مستوى السائمة ، وانقلبوا الآن يجهزون عليه . تلك المذبحة الدائرة فى اميركا الجنوبية تحت سمع العالم « المتحضر » وبصره دون ان يحرك ذلك العالم ساكنا، حركت ضمائر بعض الكتاب الاحرار كلوسيان بودار وجاك موينيه وآن مارى سافران ، كما حركت مذابح الافريقيين ضمير الكاتب المسرحى بيترفايس ، فكتب مسرحية انجولا او « الغول » ، كما عرضت عندنا ، ففعلوا ما امكنهم ان يفعلوه : قاتلوا بالكلمة المكتوبة دفاعا عن تلك الشعوب التى تبادل .، وانتهى الامر عند ذلك الحد .

فى انجولا والمستعمرات البرتغالية ، فى جنوب افريقيا، فى روديسيا ، فى اركان عديدة خفية يخيم عليها الصمت وفى آسيا واميركا الجنوبية ، تنتشر جحافل التتار الجدد ، « من القارة المظلمة » تجرى عمليات ابادة مدروسه منظمة. تنفذ مخططات العنصرية الجديدة ووراءها الرجال ذوو المعاطف البيضاء ، بتصميماتهم لعالم الغد ، باحصائياتهم، ومعادلاتهم ؛ ومعاملهم .

ومازالت موجة الابادة فى بدايتها .

ومع ذلك ، فضراوة العنصرية الجديدة ومخططاتها ليست اول أو آخر محنة يمر بها الانسان فى تاريخه . والانسان ان كان قد توصل الى البقاء حتى الآن رغم كل المهالك التى تعرض لها فما ذلك الا لانه اقدر المخلوقات على التكيف . كل ما فى الامر ان التكيف فى هذه المرة يتطلب رؤية أوضح تحدد أبعاد الخطر وحقيقته وكيفية مواجهته . فالتحدى تحد حضارى فوق وقبل كل شىء . ولعل أعظم التحدى يثير استجابة لدى شعوب افريقيا وشعوب العالم الثالث اجمع تعادل فى القوة الخطر الداهم الذى بات يتهدد بقاءها ذاته .



خلف تمثال الحرية

الذين يحملون فى عقولهم نظريات فاسدة عن سيادة جنس على جنس ، والذين يقولون برقى عنصر وانحطاط عنصر آخر ، والذين يخيل اليهم انهم قريبون من السماء لأن لون بشرتهم الأبيض لا يتفق مع درجات السلم الذى يبدأ من الأرض ، والذين يدخلون فى روع أنفسهم أن البشرة البيضاء والعيون الزرق والشعر الأشقر ، تخول لهم ان يسودوا من أوتى بشرة سوداء وشعراء أجعد ، والذين يقراون صفحات التاريخ من آخـــــرها فتطالعهم الحضارة فى أوربا وأمريكا فيحسبون الأمور هكذا منذ وجدت الدنيا .. ومن يباشرون أحط أنواع الاضطهاد للملونين فى بلادهم ويسعون الى فرض سلطانهم على الملونين خارج بلادهم .. هؤلاء جميعا فى حاجة الى أن يقرءوا كتب التاريخ من بدايتها .. وعندئذ يعرفون أن أجداد الذين يطلقون عليهم اسم (الزنوج) كانت لهم حضارة قبل أن تعرف الدنيا الجديدة الحضارة .

لمعى المطيعى

حضارة افريقية :

ولعله من الأوفق تماما ، أن نبدأ بأحد الأمريكيين الذين تخصصوا فى أبحاث الحضارات ، وتعنى به « راشتون كوليورن » مؤلف (الاقطاع فى التاريخ) ومؤلف(أصل المجتمعات المتحضرة) (١) وهو فى الكتاب الأخير يناقش فكرة الأصل الأفريقى لأساطير مصر القديمة ، وبالطبع فان أساطير مصر القديمة نشأت فى ظل درجة عالية من الحضارة ، فاذا صح هذا الاستنتاج لكانت افريقية فى وقت سابق أو مصاحب لمصر القديمة، ذات حضارة ..

ويتحدث البروفيسور « توماس هودجكن » عن المنطقة التى انتزع منها أجداد زنوج أمريكا فيقول (٢) :

« .. لقد قامت فى هذه المنطقة خلال الفترة التى يعرفها الأوربيون بالعصور الوسطى ، دول كبيرة منظمة غالبية سكانها من الزنوج ، بلغت من الاتساع والقوة فى بعض مراحل تاريخها حدا يمكن معه أن نسميها بالامبراطوريات » .

خلف تمثال الحرية :

تعالوا الى أيها المساكين
ويا جميع منهوكى القوى
تعالى أيتها الجماهير الظمأى الى الهواء النقى .
تعالوا الى أيها الغرقى ويا من لا ملجأ لهم
فان مشعلى يلمع أمام أبواب من ذهب .

هذه أبيات من قصيدة طويلة للشاعر « امالازاروس » أعجب بها الأمريكيون أيما اعجاب ، فحفروا العقيدة على تمثال الحرية ، حتى يقرأها الوافدون الى الولايات المتحدة الأمريكية عندما تطأ أقدامهم ارض تلك البلاد .

.. ولكن خلف أبواب الذهب تلك شعب تحاول الاحصاءات الرسمية أن تزيف عدده .. شعب من المساكين ومنهوكى القوى .. شعب أحوج ما يكون الى الهواء النقى .. شعب من الغرقى . شعب من الزنوج . ولندع كاتبين غير غربيين يتحدثان ..

يقول «ديبوا» فى كتابه (انبثاق الفجر) (٣)

« خلال عام ١٩١٩ انفجرت اضطرابات كثيرة فى ست وعشرين مدينة أمريكية أدت الى مقتل ثمانية وعشرين شخصا فى شيكاغو ومقتل عدد يتراوح بين العشرين والخمسين شخصا فى اركنساس ؟ ومقتل ستة أشخاص فى واشنطون .. وأعلن حاكم جورجيا «هيك . م . دورس» فى مؤتمر عام فى ربيع فى سنة ١٩١٩ **ان الزنوج يطردون كما تطرد الحيوانات المتوحشة .. لقد بلغ الارهاب الذى يستهدف السود على نطاق المزارع والساعات المحلية هجوما جنونيا على نقابات المزارعين واعتقل أعضاء النقابات والقى واسع ذروته فى أركانساس ، اذ شن أصحاب بهم فى السجن وقتلوا رميا بالرصاص أو شنقوا دون محاكمة .. والقى القبض على مئات من السود وبعد ان حوكموا بطريقة صورية خلال بضع دقائق حكم على الكثيرين منهم بالموت .. »**

هذه صورة لزنوج أمريكا فى مستهل القرن العشرين وهى ما زالت حتى الآن دون رتوش..

لقد بلغ الهوس ببعض العناصر فى ولاية (جورجيا) أن تعترف بأمريكية السود فيطلقون لفظ امريكى على الأبيض فقط ، والأبيض عندهم هو الأبيض المنحدر من الجنس القوقازى أو الانجلوسكسونى والذى — على حد تعبيرهم — لا يمكن ان نجد فى عروقه نقطة دم زنجية أو هندية » .

وشبيه بهذا كله ما يقال عن الاحياء الخاصة بالزنوج المنعزلة عن احياء البيض وتحريم بعض المسارح والمطاعم والمكتبات على الزنوج وقصرها على البيض .. أكثر من هذا ، فان السود ليس مصرحا لهم بركوب كل القطر ، اذ أن هناك قطرا بذاتها بها مقاعد خاصة بالسود واذا ركبوا هذه القطر فعليهم ان يدخلوها من أماكن خاصة بالملونين .. وفى الحدائق وعلى شواطىء البحار وفى الأسواق هناك أماكن بذاتها مخصصة للسود، وعليهم ان يشربوا من الصنابير المخصصة لهم .. واذا ما تحرك الطفل الأسود ليلعب فى الحديقة وهو لا يدرك بنفسه الشفافة لماذا هذه القيود.. كانت الصيحات من هنا وهناك .. عد « أنت أسود » ..

انت أسود :

.. فاذا ما كبر الطفل ذهب لمدرسة بذاتها يسمح فيها بدخول السود ، واذا ما أراد أن يتزوج فلتكن سوداء ، وويل له اذا ما سولت له نفسه أن يحب فتاة يفترق لونها عن لون الليل .. فان القتل بطريقة (اللنش) تنتظره فى أحد الميادين .. وطريقة (اللنش) خاصة بقتل الزنوج .. فاذا ما مات يدفن فى مقابر السود .. وأن يصلى على جثمانه فى كنائس الملونين .. حتى الموت الذى لا يعرف الفروق ، يعرف الفروق هناك (٤) .

تجار البشر :

من النقاط السوداء فى تاريخ البشرية ، تلك النقطة التى تتعلق بتجارة البشر .. والتاريخ فى تطوره — وهو يحاول أن يمحو هذه الوصمة من جبينه — يسجل ايضا هذا النوع من التجارة ، وأنه قد قدر له الرواج بعد استقرار الأمر للبيض فى أمريكا ..

وعلى هذا فان المأساة التى يحياها زنوج امريكا ليست بنت اليوم ، وليست وليدة هذا القرن ، انها تمتد الى أجداد البيض بعد أن وصلوا الى أمريكا ·

ولنبدأ المأساة التاريخية من بدايتها .. من عام ١٩٤٤ ذهب الاستعماريون البرتغاليون الى شاطىء افريقية الغربى .. وظلوا يتحركون شيئا فشذيئا عبر افريقية وعبر الزمن حتى وصلوا الى ساحل الذهب (غانا) فى عام ١٤٧١ وأقاموا قلعة (سان جورج) فى الميناء عام ١٤٨٢ ..

وأقام البرتغاليون لهم قواعد أخرى على طول ساحل غينيا من نيجيريا الى أنجولا وتفتحت شهية البرتغاليين الى هذا اللون الجديد من البشر فبدأت سفنهم تحمل مئات الزنوج ليعملوا خدما فى أروقة بلاط الامبراطورية فى أوربا ..

وجاء اكتشاف أمريكا وكان ايذانا بنشاط اقذر لون من التجارة وهى التجارة فى الزنوج . وكانت هذه التجارة سببا أساسيا فى الصراع بين الدول البحرية الكبرى وقت ذاك وهى انجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا والبرتغال .. اذ أن البيض عندما نزلوا الى امريكا باشروا حربا لا هوادة فيها ضد سكانها الأصليين من الهنود الحمر وطاردوهم الى مناطق نائية وسرعان ما شعروا بقسوة الطبيعة فى هذه الأرض الجديدة وحاجتهم الى أيد عاملة لا يتحملون مسئوليتها عندما تهلك من اخطار الطبيعة وتفتحت اعين الاستعماريين البيض على زنوج افريقيا .

وبدأ البرتغاليون بجمع هذه السلعة الجديدة من افريقية ونعنى بها الزنوج ، وراحوا يوردونها الى أمريكا ·· وعندما اشتد الصراع بين البرتغال وأسبانيا حول هذه التجارة تم الاتفاق فى عام ١٤٩٣ على تقسيم المناطق بينهما · ثم دخل منافس آخر وهم الهولنديون الذين طردوا البرتغاليين من ساحل الذهب عام ١٦٤٢ وتولت الشركات الهولندية توريد الزنوج الى المستعمرات الجديدة فى الدنيا الجديدة .. ثم تكاثر التجار ودخل فيها البريطانيون والدنماركيون والسويديون وبعد صراع مرير استقرت فى أيدى البريطانيين الذين خصصوا ما يقرب من مائتى سفينة للتجارة وخصصوا ٤٠ مخزنا للعبيد حتى يتم ترحيلهم تماما كأى بضاعة .

رحلة العذاب :

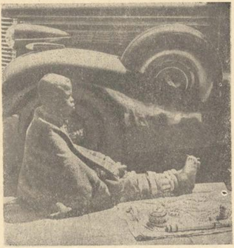
ولنسر قليلا على هذه الرحلة الدامية من افريقية الى أمريكا ولندع بعض الأمريكيين أنفسهم يصفون لنا رحلة العبيد من افريقية الى أمريكا (٥) ·

خصصت مجلة (لا يف) عددا كاملا وفيه بحث ضاف عن هذا الموضوع .. **كان تجار العبيد يتوغلون فى القارة الأفريقية الى مسافة ١٢٠ ميلا ثم يصطادون العبيد رجالا ونساء ويقومون بتقسيمهم الى فئات ·· الذكور والنساء المسالمون الذين لا يبدون كثيرا من المقاومة ، فيكتفون بربط اعناقهم بعضها الى بعض بالحبال** . أما الذين يبدون نوعا من المقاومة فهؤلاء يشدون أعناقهم الى عمود كبير من الخشب ، فلا يستطيعون الحركة ، والبعض الآخر كانوا يأتون له بعمود خشبى يضعون رجل أحد الزنوج فى طرف ورجل زنجى آخر فى الطرف الآخر ويسير الرجلان مربوطين الى عمود الخشب ·

وكانت الرحلة تستغرق ما يقرب من ثلاثة شهور ، يموت خلالها ما يقرب من ٦٠٪ من عدد الزنوج حتى تصل قافلة التجارة الى شاطىء افريقية · وبالطبع فان النقص فى هذا العدد كان السماسرة الاوربيون يضعونه فى اعتبارهم لرفع ثمن العبد الذى سوف يرحل من الشاطىء الأفريقى الى الدنيا الجديدة . وعندما تصل القافلة الى الشاطىء يدفع التجار ما قيمته ٩٠ دولارا للعبد ، رجلا كان أو امرأة فيما بين سن الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين على أن يكون بصحة جيدة .

ويكدس الزنوج بعد ذلك فى مراكب صغيرة ويخصص لكل واحد منهم مساحة ١٨ بوصة يجلس وينام فيه طوال الرحلة ولم يكن أحدهم يستطيع أن يتحرك من موضعه بالطبع ..

ولعل الاجراء الذى كان يتخذه تجار الزنوج يوضح لنا الحالة الصحية لهؤلاء الزنوج طوال الرحلة .. اذ كان هؤلاء التجار يقومون بحرق كل مركب بعد افراغ شحنته على شاطىء الدنيا



الجديدة ، لأنه لم يكن يستطيع احد أن ينزل اليه بعد ذلك او يقترب منه بسبب رائحة المقونة المتخلفة .

وكان يموت أثناء الرحلة نصف العدد تقريبا ولا يبقى سوى النصف الآخر يساق تحت السياط الى الأعمال الشاقة .

وتقول مجلة (لايف) الأمريكية فى بحثها المذكور ان الذين وصلوا الى الدنيا الجديدة من الزنوج يقدر عددهم بأربعة عشر مليون زنجيا ومعنى هذا أن عددهم كان على الشاطىء الأفريقى ٢٨ مليونا وهم نسبة ٤٠٪ حسب احصاء المجلة من الذين انتزعوا من داخل القارة ويبلغ عددهم نحو ٧٠ مليونا من البشر يتناقص عددهم الى ١٤ مليونا .. وبعد مائتى عام يصل عددهم فقط الى ١٨ مليونا .

الأمريكيون يرثون التجارة :

برع الأمريكيون بدورهم فى هذه التجارة . ففى عام ١٧٢٠ كان للأمريكيين ما يقرب من ٢٠٠ سفينة (الرقم من مجلة لايف أيضا) .. وكانت هذه التجارة هى العماد الرئيسى للتجارة الخارجية الأمريكية اذ كانت السفينة الواحدة تربح فى الرحلة الواحدة أكثر من ٣٠ ألف دولار.

وزاد نهم أمريكا الى الزنوج بعد أن توسعت فى زراعة القطن التى تطلبت كثيرا من الأيدى العاملة الرخيصة وهكذا أصبح الزنوج هم الأساس الأول للاقتصاد الزراعى فى جنوبى الولايات المتحدة وهذا يفسر تركز النسبة الكبيرة من الزنوج فى الجنوب .

صراع على الاستغلال :

وكما كانت الزراعة فى الجنوب فى حاجة الى الأيدى الافريقية الرخيصة كانت الصناعة فى الشمال فى حاجة أيضا الى أيدى عاملة رخيصة. فلابد اذن من جلب الزنوج من الجنوب الى الشمال .. أى من الزراعة الى الصناعة .. وهنا حدث الصدام بين رجال الصناعات فى الشمال وملاك الارض الذين يملكون الزنوج فى الجنوب .

وهنا كانت الاتجاهات الانسانية تتعالى والافكار التى تنادى بالغاء تجارة الرقيق تنتشر خارج أمريكا فوجد فيها أهل الشمال ستارا لتخليص الزنوج من قبضة ملاك الارض فى الجنوب .. ووجدوا أن الفرصة ملائمة لرفع شعار الغاء الرق .

وهكذا تحت ضغط حركة الغاء الرق خارج أمريكا وصدور عدة قوانين تحرم هذا النوع من التجارة وخاصة فى انجلترا ، صدر أول

قانون من الكونجرس الامريكي فى عام ١٨٠٧ يقضى بعدم استيراد العبيد الى الولايات المتحدة وتنبه الزنوج الى الفرصة والى التناقض بين رجال الصناعة فى الشمال ورجال الزراعة فى الجنوب وبدأت حركات التمرد والهروب الى الشمال ٠٠ وانتقل الصراع الى الكونجرس نفسه وفى غمرة هذا الصراع سارعت بعض ولايات الجنوب باعلان الانفصال عن الولايات المتحدة كمحاولة منها للاحتفاظ بالزنوج فلم يكن مفر من الصدام المسلح بين الشمال والجنوب ٠ وفى عام ١٨٦٠ انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للاتحاد وكان عضوا بالحزب الجمهورى وفى عام ١٨٦١ أعلن الحرب الاهلية لاخضاع الولايات الجنوبية التى انفصلت وعرف ابراهام لنكولن بمحرر العبية ٠

اننا لا ننكر أنه خلال الصراع بين الشمال والجنوب ظهرت عدة أفكار انسانية تدافع عن حرية العبيد ولا ننكر أيضا أن كثيرين من الزنوج فى تلك الفترة قد أخذوا الموقف بصدق فانحازوا الى الشمال ضد الجنوب ٠٠ ولكن بعد استقرار الامور للجمهوريين وأهل الشمال ظهرت الحقيقة عارية ٠٠ ان الزنوج هربوا من استغلال ملاك الارض ليقعوا أسرى استغلال أصحاب الصناعات ٠٠ وقد كان لنجاح رجال الصناعة فى الشمال فى الحرب الاهلية ، أثره الكبير فى السيطرة على الجنوب وزادت سطوتهم الاقتصادية هناك وبدأت مصانع لحلج القطن ونسجه وصناعات الحديد والدخان واستخراج الفحم وزحفت رءوس الاموال الى الجنوب ٠ فكان لا بد من التحالف بين رأس المال الجديد وملاك الارض القدامى فى الجنوب ٠ واستعان الشماليون بخبرة الجنوبين فى معاملة الزنوج ٠٠ وسيقت جماهير الزنوج لتقوم بالاعمال التمهيدية لكل هذه الصناعات الجديدة ، كاقامة الطرق ، والحفر واستخراج الزيت والعمل فى المناجم والغابات ٠

مأساة العصر :

يخطىء من يظن أن الاضطهاد مقصور على الزنوج فقط بل انه يتعداهم الى جميع الملونين فى الولايات المتحدة ٠٠ فهناك من ينظر الى الملونين على اعتبار أنهم أجناس سلبية وقد تولدت هذه الرجعية عند هؤلاء منذ أن وطئت أقدامهم أرض القارة الجديدة ، وراحوا يباشرونها ضد أصحاب القارة الاصليين وهم الهنود الحمر ٠٠ وكانوا يعاملونهم على اعتبار أنهم جنس يجب أن يزول ٠٠ واذا بقى البعض فليبق على أنه من مخلفات الماضى يمكن أن يتسلى برؤيته الوافدون الى أمريكا للزيارة ٠

ولعل خير تعبير عن حالة هؤلاء الهنود الحمر اليوم فى أمريكا ما نطق به الجنرال الامريكى « شريدان » حين قال « ان الهندى الطيب هو الهندى الذى توفى » ٠

وفى عام ١٨٧١ قال « كنجسلى » ابان حملته على الهنود الحمر : « انه مضطر لاستخدام المسدس عيار ٥٦ ولقتل الاطفال الهنود لأن رصاص البنادق عيار ٣٨ ولا يمزق جثثهم تمزيقا يكفى لاراحتهم ٠ » (٦)

وتنفيذا لهذه السياسة هبط عدد الهنود الحمر فى أمريكا منذ أن وطئت أقدام البيض اليها بمعدل ٨٥٪ ولم يبق فى الوجود منهم اليوم أكثر من نصف مليون ، يجبرون على الاقامة بالمعسكرات التى لا يلقون فيها الرعاية اللازمة للبشر فليس هناك خدمات طبية ونسبة وفيات الاطفال فى تزايد مستمر حتى لتبلغ أربعة أضعاف النسبة العادية لباقى أطفال الولايات المتحدة ٠ وتبلغ نسبة الوفيات بسبب الامراض الصدرية خمسة أضعاف المواطنين الآخرين ونسبة الوفيات بسبب الامراض المتوطنة ثمانية أضعاف السكان الآخرين ٠

النشاط الذرى والزنوج :

اذا كان تاريخ ٦ أغسطس من عام ١٩٤٥ وهو اليوم الذى ألقت فيه الولايات المتحدة أول قنبلة ذرية على هيروشيما ونجازاكى ، يعنى بالنسبة لليابانيين كثيرا من الضحايا ٠٠ فان هذ التاريخ بداية للاضطهاد المنظم للزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية ٠

ذلك أنه منذ هذا التاريخ نشط جهاز (المباحث الفيدرالى) بشكل ملحوظ للتفتيش عن جميع الزنوج فى جميع المجالات التى يمكن أن تكون لها علاقة بالنشاط الذرى ٠

ونقطة البداية لدى مكتب المباحث الاتحادى هو أن الزنوج فئة غير موثوق باخلاصها للبلاد فوضعت القوائم بأسمائهم ووضعت قوائم بمجالات النشاط التى تحيط بالنشاط الذرى ٠٠ فوجد عدد كبير من الزنوج أنفسهم يطردون قسرا من هذه المجالات ٠

ثم جاءت الجولة الثانية على الملونين وطبقت عليهم القواعد ذاتها وكان المزيد من الطرد والمزيد من التشريد ٠



ثم جاء الدور الثالث على البيض الذين لا ينساقون وراء دعاوى التفرقة العنصرية ... ووزعت عليهم استمارات كان من بين الأسئلة فيها :

- **ما رايك بالنسبة للتفرقة العنصرية ؟**
- **هل سبق لك انت أو زوجتك دعوة زنجى الى بيتك ·**

وهكذا وجدنا حركة تطهر عامة ، وحركة رقابة دقيقة على الصناعات الكيماوية فى جنوبى كارولينا ، وعلى الادارات التى تشرف على اليورانيوم والمواد الخام الاستراتيجية ،ومشروعات مجموعة مورجان وشركات كنيكتوت للنحاس وشركةتكساس للكبريت ومعهد ياتيل كاليماوريال للمعادن ، وهومستاك ماينتج · واليورانيوم الخاصة بيونيون كاربير ، وغير هذه المجالات فرضت فيها رقابة صارمة حتىلا يتسرب لأجهزتها أو الى الاماكن ذات الأهمية بها زنجى واحد أو صديق لزنجى واقتصروا على استخدامهم فى أعمال لا يريدون للبيض أن يقوموا بها كالحفر ونقل البضائع ·

حرية على ورق :

اذا راجعنا الدستور الامريكى المعدل فى عام ١٨٦٨ وجدنا نصا يقول : « ان الزنوج فى جميع أنحاء الولايات المتحدة الامريكية يتمتعون بحقوق المواطن التى يتمتع بها جميع الأمريكيين » ·

ومن قرارات الكونجرس عام ١٨٧٠ : « انه لا يجوز حرمان أى شخص من حق الانتخاب لسبب الجنس أو اللون أو حالة العبودية السابقة · »

وها نحن بعد مائة عام نرى ونسمع أن زعماء الزنوج يغتالون فى الظلام ·· وبعد مائة عام نرى ونسمع الحتجاج البيض فى الجامعات ضد السود ·· وبعد مائة عام نرى ونسمع كافة الوان التفرقة بسبب الجنس واللون والدين والرأى بالنسبة للزنوج ·

فهل يمكن لتمثال الحرية أن يعطى وجهه الى داخل أمريكا ذاتها وينادى المساكين ومنهوكى القوى والغرقى ومن لا ملجأ لهم ·· وكل الزنوج الى الهواء النقى ؟!

(١) راشتوف كولسيون ، اصل الجماعات المتحضرة، ترجمة لمى المطيعى ·

(٢) مجلة نهضة افريقيا ، العدد ٣١ ، ص ٣٢ ـ ٣٥ ·

(٣) «ديبوا» زنجى أمريكى نصير للسلام توفى منذ سنوات فى غانا ·

(٤) مأساة الزنوج فى أمريكا ، لمى المطيعى ، القاهرة ؛ ١٩٦١ ·

(٥) راجع مجلة لايف ، العدد الاول من اكتوبر ١٩٥٧ ·

(٦) هذه هى أمريكا ، احمد رفاعى وآخرين ·



النظرية العنصرية على مر التاريخ

سمير كرم

« النظرية العنصرية هى آخر ملجـأ ايديولوجى للراسمالية المحتضرة»

مكسيم جوركى

● « الزنجى زنجى ، ولايصبح عبدا الا فى ظل علاقات معينة »

كارل ماركس

بعد ربع قرن من اندحار النازية .. بل بعد ١٥ قرنا من اندحار النظام العبودى لا تزال «العنصرية» تجد لها منظرين ومفكرين يدافعون عن مفاهيمها .. ولقد كانت للعنصرية دائما محاولات لارساء اسس ايديولوجية لها تبرر الانظمة الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ السياسية التى تقوم عليها .

وتقوم النظرية العنصرية على اساس ادعاء بوجود علاقات بين السمات العنصرية (الجنسية) والسمات الحضارية وترتب على هذه المقدمة القول بأن بعض العناصر (الاجناس) البشرية اكثر تفوقا بطبيعتها من العناصر الاخرى . وبتعبير قاموس العلوم الاجتماعية الصادر باشراف منظمة «اليونسكو» فان اصطلاح العنصرية Racism يعنى «الاعتقاد الدوجاطيقى بأن احدى الجماعات السلالية محكوم عليها من الطبيعة بنقص وراثى بينما مجموعة اخرى مقدر لها تفوق وراثى» (ص ٢٥٧١ .

ومنذ بداية نشأة النظرية العنصرية وهى تحاول تاسيس مفاهيمها على اعتبارات «بيولوجية» .. ويمكن ارجاع هذا الى العصر العبودى حيث بدأ المجتمع الطبقى فى الظهور

وبدات معه الحاجة الى التبرير النظرى لتفوق طبقة على اخرى . وفى القرن الرابع قبل الميلاد كتب ارسطو :

« البعض احرار بالطبيعة ، والآخرون عبيد بالطبيعة، ومن المفيد ومن العدل تماما للاخيرين ان يكونوا عبيدا» .

ولم تكن تلك نظرية تفوق شعب على آخر ، وانما تفوق طبقة على اخرى . تفوق طبقة ملاك العبيد على طبقة العبيد . ومع استمرار المجتمع الطبقى ، فى الانتقال من النظام العبودى الى النظام الاقطاعى أخذ «الاساس البيولوجى» للتمييز العنصرى يتضح عما كان عليه من قبل . ففى عصر الاقطاع استقرت مفاهيم التمييز بين الطبقات على أساس أن النبلاء الاقطاعيين هم من يجرى فى عروقهم «الدم الازرق» وهم أصحاب «العظام البيضاء» . وعندما تحقق للبورجوازية الانتصار على الاقطاع واقامة النظام الرأسمالى لم تنهدم نظرية «التفاوت البيولوجى» بين الطبقات الاجتماعية ، فقد ظلت الحاجة الى تبرير نظرى للتفوق الطبقى للبورجوازية قائمة. ولهذا فلاتزال النظريات العنصرية منتشرة فى المجتمعات المدنية بأشكال متعددة وتقوم ايضا على أساس الادعاء بوجود اختلافات بيولوجية .



وقد بلغت النظرية العنصرية اقصى ابعادها فى وقت التوسع الاستعمارى للنظام الراسمالى الاوروبى . فكان دورها بطبيعة الحال تبرير عملية الاستعمار نفسها والنظام الاستغلالى الذى يقيمه ضد الشعوب المستعمرة . ولهذا كان غزو الاستعماريين الاوروبيين لافريقيا يتم تحت شعارات مثل «رسالة الرجل الابيض» ، «نقل حضارة الرجل الابيض الى الرجل الاسود المتخلف» و «حاجة الشعوب السوداء الى من يهذبها ويحميها» .. الخ .

وتستمد النظرية العنصرية المعاصرة أفكارها من كتاب لجوزيف دى جوبينو G.A. de Gobineau هو «مقال فى اختلاف الاجناس البشرية» نشر عام ١٨٥٣ . وكان دى جوبينو صاحب نظرية تفوق العنصر النوردى .

ولقد كانت نظرية دى جوبينو خليطا غريبا من المقدمات المتناقضة والنتائج الخاطئة التى انتهت به الى القول بأن الرجل الابيض قد نشأ فى الاصل فى جبال الكوش الهندية ، اما الرجل الاسود فنشأ فى افريقيا ، والاصفر فى أمريكا . ورغم أنه لم يكن للموقع الجغرافى أو البيئة المناخية او الظروف الاقتصادية تأثير على الاطلاق على تطور العناصر (الاجناس) البشرية . **فالزنوج — فى رأيه — كانوا فرديين فوضويين بطبعهم والصفر كانوا ميالين الى المشاعية بطبعهم اما العنصر الابيض فقد كان بغريزته يفضل الليبرالية والبرلمانية ، ويميل لتكوين المستعمرات بالغريزة ايضا !**

وذهب دى جوبينو الى أن الحضارات تتدهور وتنهار بسبب اختلاط الدم نتيجة للغزوات التى تسمح بالتزاوج بين

العناصر المختلفة ، أى العناصر المتفاوتة فى النقاء وفى التفوق .

وقد استند دى جوبينو – فى نظرياته هذه – الى كشف معاصر له ثبت به أن جميع اللغات الاوروبية الموجودة – على وجه التقريب – فضلا عن اليونانية واللاتينية واللغات الحية لفارس وشمال الهند ، بالاضافة الى الفارسية القديمة والسنسكريتية القديمة، تنتسب جميعها بعضها الى بعض فى عائلة لغوية واحدة واسعة المدى .ولقد استنتج دى جوبينو من ذلك – وهو محق فى هذا الاستنتاج موضوعيا – أنه لابد أن تكون هناك لغة آرية أو هندية أوروبية اشتق منها لسان كل أفراد العائلة .. الا انه استنتج من هذه المقدمة الصحيحة – خطأ – أن الشعوب التى شاعت فيها تلك اللغات ذوات القربى تنتسب هى أيضا بعضها الى بعض انتسابا طبيعيا بنفس درجة انتساب اللغات الى بعضها . وأن تلك الشعوب تنحدر جميعها من جنس أصل آرى أو هندى أوروبى يرجع الى العصور الاولى ، وانتشرت من موطنها الاصلى غازية او مغزوة فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وتمضى تلك النظرية العنصرية قائلة بأن **ذلك العنصر قد أنتج العبقرية الدينية لزرادشت وبوذا** وعبقرية **اليونان الفنية وعبقرية روما السياسية** ، وانتج فى الختام **نبلاء اوروبا – او على وجه التحديد** نبلاء فرنسا الذين **ينتمى اليهم دى جوبينو نفسه – والى** هذا العنصر يرجع **فضل جميع ماحققته البشرية من اعمال وتقدم** .

وقد «طور» المفكرون العنصريون الالمان ذلك المفهوم عن العنصر «الهندى الاوروبى» فاصبح العنصر «الهندى الجرمانى» وجعلوا المناطق الخاضعة لقيصر بروسيا الموطن الاصلى لذلك العنصر الوهمى .

ويعتبر الكاتب الالمانى (الانجليزى المولد) هوستون ستيوارت تشيمبرلين (١٨٥٥ – ١٩٢٧) الدافع الاول فى القرن العشرين عن نظريات دى جوبينو ، بل انه كان اكثر تطرفا منه حين قصر التفوق على العنصر التيوتونى Teutonic **(اى العنصر النوردى) واستبعد منه الفرس القدامى وذهب الى حد القول بان كل عبقريته او أصالة فردية ظهرت خلال الاعوام الالفين الماضية ترجع فى أصولها الى العنصر التيوتونى . فالقديس بولس كان عظيما لان امه كانت اغريقية اى من أصل تيوتونى ، والشاعر دانتى كان عبقريا لانه كان من أصل تيوتونى يشهد على ذلك شكل جبهته العالية !**

ولقد أثرت أفكار تشيمبرلين العنصرية – التى ضمنها كتابه « أسس القرن التاسع عشر » (١٨٩٩) تأثيرا خطيرا على ألمانيا فى بداية القرن الحالى حتى أن القيصر فيلهلم الثانى أصدر أوامره باتخاذ كل الاجراءات التى تساعد على انتشار هذا الكتاب وتوزيعه على أوسع نطاق . ولا شك أن أفكار تشيمبرلين أسهمت فى نشأة العنصرية النازية .

ولم تقتصر العقائد النظرية العنصرية على أوروبا بل كان لها فى الولايات المتحدة مفكروها والدعوان لها . لقد كان **توماس جيفرسون يصف الزنوج بانهم عنصر له رائحة نفاذة كريهة ، وبانهم يفتقرون الى القدرة على التأثير ، وبانهم اقل مقدرة على الاستدلال العقلى من العنصر القوقازى (الرجل الابيض)** . بل كان يشك فى وجود زنجى واحد يستطيع أن يفهم نظريات اقليدس الهندسية، أو أن ينطق بفكرة تتجاوز حدود السرد المباشر !! ولعل قليلين جدا يعرفون ان ابراهام لينكولن « محرر العبيد » كان يشارك فى الراى القائل بأن « الطبيعة قد أقامت أخدودا ثابتا بين العنصرين (البيض والزنوج) قد يمنع الى الابد عيشهم معا بمساواة كاملة » . فقد كان كل حرص لنكولن على المحافظة على اتساق الولايات فيما بينها . وكان تفكيره فى بداية الامر فى حل « مشكلة العبيد » عن طريق تحريرهم جميعا وارسالهم الى ليبيريا . وعندما وجد ان هذا الحل غير عملى كان تساؤله « ماذا بعد ذلك ؟ هل نحررهم ونجعلهم مساوين لنا سياسيا واجتماعيا ؟ » وظلت أعمق مشاعره تتمرد على هذا الحل . (أ . م . بيرنز : افكار متصارعة . لندن ١٩٦٠ – ص ٤٩١) .

ويعتبر **البرسيت بيفريدج** من أشهر المفكرين العنصريين الامريكيين (١٨٦٢ – ١٩٢٧) وقد تبنى فى الولايات المتحدة نفس افكار دى جوبينو وتشيمبرلين وأضفى عليها طابعا شوفينيا ودينيا . فلم يكن القدر وحده هو الذى جعل من العنصر التيوتونى عنصرا متفوقا ، ولكنها ارادة الله واختياره .. فان الله قد جعل الشعوب التيوتونية «المنظمين لهذا العالم لاقامة النظام حيث تسود الفوضى » . والامة الامريكية على وجه التحديد هى الامة المختارة « لكى تقود فى النهاية عملية اعادة خلق العالم » . فالله قد اختار شعب أمريكا « أوصياء على تقدم العالم وحراسا للسلام الحق » .

أما المفكر العنصرى الامريكى الذى أعطى لهذه النظرية « مكانة » عانية فى الاوساط الفكرية فى الولايات المتحدة فهو **ديفيد ستار جوردان** (١٨٥١ – ١٩٣١) وكان عالما واستاذا جامعيا بارزا شغل منصب أستاذ التاريخ الطبيعى بجامعة انديانا وأصبح رئيسا لهذه الجامعة بعد ذلك . **بذل محاولات « علمية » مضنية للبرهنة على أن المسيح ودانتى كانا من الجنس التيوتونى ، بل ذهب الى حد القول بان العرق الارستقراطى اليابانى المعاصر هو فى الاصل من الآريين** . وقال ان « دم الامة » هو المعيار

الرئيسى فى تحديد تاريخها ، وانه فى حياة أى شعب لا تكون الاختلافات الحيوية تلك المتعلقة بالتعليم او التربية ، بل تلك المتعلقة بالامكانيات الوراثية . وكان اقتناعه راسخا بأن الخصائص العقلية وراثية شأنها شأن الشعر ولون الجلد ، وانه حيثما وجد الرجل الساكسونى فانه يصنع تاريخا ساكسونيا ، وحيثما ذهب اليونانى فانه يأتى افعالا يونانية . واعتقد جوردان ان افضل العناصر البشرية هى ذات **« النمط النوردى »** وان من السهل طبقا لهذا أن نحدد مدى تقدم أو تخلف العناصر الاخرى بقربها أو بعدها عن هذا النمط . ولهذا فان الفرنسيين والايطاليين – مثلا – فى جنوب أوروبا متخلفين عن الانجليز والاسكندنافيين فى شمالها ، وأما المكسيكيون فانهم « جهلة خاضعون لتأثير الخرافات ، يعانون من سوء التغذية ، سيطرتهم على انفسهم ضعيفة ، ليس لديهم تصور للصناعة او الاقتصاد » .

والنظرية العنصرية فى جميع اشكالها تبدا بمصادرة او مسلمة أساسية هى وجود تفاوت بين العناصروالامم ، ثم تحاول بعد ذلك أن تجمع « الادلة » على تفوق هذا العنصر او دنو الآخر . وكان التركيز دائما فى البحث عن هذه الادلة – كما ذكرنا – على الجوانب البيولوجية . فذهب أصحاب النظرية العنصرية الى وسائل مثل قياس « حجم الجمجمة » أو « زاوية الوجه » أو « اختبارات الدم » . ولكن بداية القرن العشرين شهدت تحولا عن نظريات « التفاوت البيولوجى » – نظرا لضعفها أمام تقدم الادلة العلمية التى تدحض القول بهذه الفروق – نحو نظريات **« الخصائص النفسية »** او « التركيب النفسى » للجماعات . وقد انبثقت هذه الاتجاهات عن أفكار « عالم » الاجتماع الفرنسى جوستاف لوبون . فعلى حين انه ينقد نظريات تقسيم العناصر (الاجناس) على أسس من السمات البدنية أو البيولوجية ، فانه يحاول فى كتابه الشهير « سيكلوجية الجماعات » البرهنة على وجود « روح عنصرية » تتكون من غرائز قديمة تنتقل من جيل الى جيل ، وهى محاولة لتفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق الادعاء بوجود سيكلوجية فطرية كامنة .

لقد تطورت هذه النظرية فى **«العنصرية السيكلوجية»** فى محاولات الباحثين المحدثين من أنصارها للبرهنة الى وجود عوامل ثابتة فى طابع التكوين العائلى لدى الشعوب المختلفة . فيعتبرون فترة حضانة الام لطفلها فى مجتمع من المجتمعات عاملا حاسما فى تشكيل « التكوين النفسى » للامة . فاذا كانت فترة الحضانة تطول فى الاسرة عند بعض الشعوب الاسيوية والافريقية عن متوسط فترة الحضانة فى الاسرة الاوروبية ، فان ذلك يدل عندهم دلالة كافية على مستوى تقدم الامة . بل ومستقبلها ومصيرها . وكثيرا ما تستخدم اختبارات الذكاء فى الولايات المتحدة فى محاولات لاستخراج الادلة – من علم النفس – على تفوق البيض على الزنوج . ولكن هذه المحاولات تلقى نفس المصير الذى انتهت اليه تجارب قياس الجمجمة ووزن المخ .

على أن أخطر بعد للنظرية العنصرية يتمثل فى اعتبارها العامل العنصرى العامل الحاسم والقوة الدافعة لحركة التاريخ . فقد انبثق عن هذا الرأى المفهوم القائل بوجود حضارة واحدة فى تاريخ الانسان هى حضارة الغرب . وقد ظهر هذا المفهوم مع سيطرة النظام الرأسمالى على الاقتصاد فى الدول الغربية وتطوره الى مرحلة الاستعمار ، أى السيطرة على شعوب كثيرة فى العالم وفرض نظام الغرب الاقتصادى والسياسى عليها ، ليس فقط بفضل فتوحات الجيوش ، بل بفضل فتوحات رجال الصناعة والفنيين الغربيين (آرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ – ج ١ – ص ٦٠) . وقد أدى هذا بدوره الى اعتقاد خاطىء بأن جميع دول العالم تكون جزءا من نظام سياسى ينبعث من أصل غربى .

ويعتبر **هانز كوهن (المؤرخ واستاذ الاجتماع الامريكى – التشيكى الاصل)** من أبرز ممثلى الفكر العنصرى المعاصرين . انه يدفع مفهوم الحضارة الواحدة « الغربية » خطوة أخرى ، فيتحدث **عن اضفاء الطابع الغربى** westernisation **على الشرق المتخلف .** ويقول فى كتابه « تأملات فى الاستعمار » : **« لقد أمكن بفضل الاستعمار أن توجد لاول مرة كوادر وطنية قادرة لادارة البلاد ولجميع أوجه الحياة المتمرنة . ان كثير من « الامم الحديثة » – مثل الهند واندونيسيا وغانا – تدين بوجودها كدولة وبتماسكها الممكن كامم لنظم الحكم الاستعمارية »** . (نيويورك – ١٩٥٨ – ص ٦) ويذكر فى كتاب آخر « ان مؤرخى المستقبل سوف يعترفون بأن الاستعمار الغربى الحديث – وخاصة التوسع البريطانى – قد أسهم فى الحقب الاخيرة بما فيه الخير وليس الشر للشعوب الخاضعة » . (القرن العشرون نيويورك – ص ٢٣٠) .

وهكذا يتضح أن النظرية العنصرية – رغم انها اضطرت أمام التقدم العلمى الى التخلى عن القول بوجود تفاوت بيولوجى لتبرير تفوق عنصر بشرى آخر – الا انها لم تتخل عن مفاهيمها الاساسية التى توظفها فى خدمة الاستغلال الاستعمارى أو الاستغلال الطبقى . ويتأكد بهذا أن زوال النظرية العنصرية – وزوال ظاهرة التمييز العنصرى كلها – مرهون بزوال النظام الذى يخدمه كل فكر أو تطبيق عنصرى ، وهو ليس النظام الامبريالى وحده ، وانما النظام الرأسمالى بمعناه الاوسع . ولقد أزال النظام الاشتراكى معه حيثما قام عار التمييز العنصرى وقاوم الفكر العنصرى بكل أشكاله ، ويقاوم التمييز العنصرى الذى تمارسه الامبريالية فى افريقيا والتمييز العنصرى الذى تمارسه الرأسمالية فى أمريكا .

التفرقة العنصرية (الأبارتهايد) والصهيونية

محمد حقى



كان أول لقاء لى – أو صدام لى – مع الأبارتهايد – فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، عندما سمح لى بزيارة اتحاد جنوب أفريقيا! . وكان ذلك قبل شهور من قطع العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد . ومنذ اللحظة التى تملأ فيها استمارة الدخول فى مطار جوهانسبرج ، وتحدد فيها الى أى « جنس » من الأجناس تنتمى وأنت فى صدام متواصل مع قوانين التفرقة العنصرية:البوليس السرى الذى يلاحقك ، « محاكمات الخيانة » التى كانت تجرى فى بريتوريا بمقتضى قوانين غاية فى الغرابة . اللافتات التى تحدد « للبيض فقط » ، وسائل المواصلات الخاصة التى تنقل الافريقيين الى « معازلهم » ، الزيارة الى هذه المعازل تتم على مسئوليتك الخاصة ، الأحوال المعيشية المرعبة فى هذه المعازل ، وبعضها **يشبه الى حد كبير معسكرات الاعتقال فى المانيا النازية كما تصورها افلام السينما** ، خصوصا المجاورة منها لمدينة الكاب فى الطرف الجنوبى للقارة ، التوتر الذى تكاد تقطعه بالسكين ، الحراس امام كل محل فى جوهانسبرج بهراوات غليظة ، الخوف المستديم على وجوه الناس ، نسبة الجرائم التى لا مثيل لها الا فى أعتى المدن الأمريكية الشهورة بالاجرام ، لا بسبب

التوتر بين الاجناس وحده ، وانما لانعدام الأمل فى عيون الشباب عموما ، واحساسهم بأنهم يعيشون فى بلد يجرى بسرعة نحو الهاوية !

ولكن شيئا آخر يلفت النظر فى **جوهانسبرج ، التى يسمونها مزاحا « مدينة اليهود »** هو شدة الشبه بينها وبين نيويورك — ماكيت مصغر ، ناطحات السحاب متوسطة الطول ، ومربعاتها أقصر من مربعات الشوارع فى نيويورك ، ولكنها تحمل نفس الملامح الامريكية ، اليهودية معا ، فى أسماء المحلات الكبرى واعضاء الأحزاب السياسية فى المدينة ، فما من مقر من مقار هذه الاحزاب الا وقابلتنى فيه سكرتيرة يهودية ، بعضهن عشن فى مصر فترة ، وغادرنها فى الخميسينات ، مثل مسز سوزمان بالحزب التقدمى ، وبدات اقابل بعض هذه الشخصيات ، وبدأت أتعرف رويدا رويدا على العلاقة بين يهود جنوب أفريقيا — ثم حكومتها — بالصهيونية ، ومن ثم باسرائيل : جو سلوفو ، زوج الكاتبة المعروفة روث فيرست ، وهو محام يهودى ، وعشرات آخرون ، وبدات خيوط العلاقة تبدو كثيرا من الأحكام الساذجة .

ولكن ..

لابد اولا من كلمة عن التفرقة العنصرية ، حتى ولو كان ذلك على حساب التكرار الممل ، ثم موقف يهود جنوب أفريقيا من اسرائيل ، ثم موقف دعاة التفرقة العنصرية من اسرائيل ، واحتضانهم لها ، حتى بلغ ما سمحوا بتحويله الى اسرائيل فى النصف الثانى من سنة ١٩٦٧ **وحدها ٢٨ مليون دولار ، هبات لإسرائيل ، مكافأة لها على تطابق الأهداف وتشابه المصير !**

ما هى الأبارتهايد ؟

فى جنوب أفريقيا . لا تستخدم الحكومة كلمة التفرقة العنصرية لتحديد سياستها او وصفها ، وانما تستخدم كلمة « أبارتهايد » ، وينطقونها هناك «ابارتيت» ، وهى كلمة أفريكانز تعنى حرفيا **« الفصل بين الأجناس » او التطور المنفصل ، ولكن كل فرد فى جنوب أفريقيا يعرف معناها تماما ، وهو سيطرة الجنس الأبيض سيطرة كاملة ، والاستئثار بالسلطة الحقيقية فى تعريف شئون البلاد . وتفرض سياسة الأبارتهايد قيودا صارمة على حرية الحركة والحقوق الأساسية — السياسية والاجتماعية والاقتصادية — لغير البيض ،** كما أن غالبية الارض بما فيها المناطق الغنية بالمعادن (جوهانسبرج مثلا من المدن القليلة جدا فى العالم المبنية فوق مناجم من الذهب ، وتجرى تحتها أنفاق طولها عدة كيلومترات لهذه المناجم ، **وتقدر قيمة الذهب المستخرج من هذه المناجم — حتى سنة ١٩٥٧ وحدها — بنحو ٣ آلاف مليون جنيه استرلينى) تخصص كلها للأقلية البيضاء (وتعدادهم نحو ٣٫٥ مليون) ، بينما يعيش الأفريقيون (١٣ مليون) بعيدا فى** المعازل ، ويعيش الملونون (نحو ٢ مليون) والآسيويون (نحو نصف مليون) فى مناطق خاصة بهم ، وتطبق عليهم نفس القيود الصارمة فى الحركة والاختلاط والتجارة والمهن ، وان كانت القيود السياسية كانت اخف كثيرا فى فترة زيارتى لجنوب افريقيا ، ولكن ظلت المسموحات تتضاءل وتنكمش حتى تكاد اليوم تتطابق مع القيود — أو الحرب فى الواقع — المفروضة والمعلقة ضد الأفريقيين .

وقد قامت حكومة جنوب افريقيا بتصنيف السكان طبقا للأصل العرفى ، «وفئات الاجناس» الاربع الرئيسية التى تعيش فى جنوب أفريقيا هى : « البيض » . أى الأشخاص المنحدرون من اصل اوروبى ، بما فيهم اليهود ، و«البانتو» أى سكان افريقيا الاصليين ، الذين لا يشار اليهم مطلقا الا باسم « الكافير » أى الكفرة ، ولست أدرى كيف زحفت هذه الكلمة الى هناك ، وقد كان الافريكانز الذين ينحدرون من أصل هولندى يستخدمون العهد القديم من الكتاب المقدس فى محاولة تبرير فكرة الاستعلاء العنصرى المنفرة . ليعطوها نوعا من التبرير الدينى ، اذ اعتبروا قبائل البانتو من نسل كنعان ، وان القدر لهم والمكتوب عليهم أن يكونوا خدما : وقال نوح « ملعون هو كنعان ، وسوف يكون خادما لاخوته » (سفر التكوين) وفى بعض العبارات الأخرى التى تحرم الاختلاط « بالقبائل الاخرى » . أما الآسيويون فهم المنحدرون من اصل آسيوى . ومعظمهم من الهنود ، والملونون هم كافة الأشخاص الآخرين ومعظمهم من الذين ينحدرون من أصل مختلط . عندما هبط الهولنديون فى ولاية الكاب هربا من الاضطهاد الدينى فى أوروبا ، وكانوا يتخذون من الأفريقيات سبايا لهم ، والغريب أن الملايين فى الكاب ، ومعظمهم من المسلمين الذين يسافر اليهم بعض المقرئين المصريين فى بعض الأحيان ، يلقبون أيضا بالملونين وهم ليسوا من أصل مختلط ! وكان أول من صك تعبير « الابارتهايد » بول

شاور ، الذى عين رئيسا للجنة الخاصة التى كونها الحزب الوطنى - حزب الأفريكانز - لوضع برنامج للحزب لخوض انتخابات سنة ١٩٤٨ ، التى كانت نقطة تحول فى تاريخ جنوب أفريقيا كله . اذ أصبحت «الابارتهايد» فيه السياسة الرسمية للدولة لأول مرة منذ ان اندمجت معا جماعات الأفريكانز والناطقون بالانجليزية ليشكلوا اتحاد جنوب أفريقيا .

نزلوا من الشجر :

وقد كان الدكتور دانييل مالان زعيم الحزب الوطنى يومها يؤمن بقيمة التعميمات والبرامج غير المحدودة فى الانتخابات ، لاسيما وان الحزب الوطنى لم يكن يضمن الفوز ضد حزب الاتحاد الذى يعبر عن الناطقين بالانجليزية والمنحدرين من أصل انجليزى ، ولم يكن يريد أن يدخل فى تفاصيل برنامجه للتفرقة العنصرية حتى لا يتعرض للنقد ، ولكن الحزب الوطنى فاز فى الانتخابات . وبدأ فى تطبيق بعض أوجه الفصل بين العناصر . فبدأ تخصيص أبواب للدخول الى محطات القطارات وعرباته والمبانى العامة «للبيض فقط » ، وللملونين ، وبدأ تقديم قوانين التفرقة العنصرية الى البرلمان الواحد تلو الآخر لاقرارها ، وكان مالان يقول : « ان الأفريقى ليس فى حاجة الى بيت أو سكن ، فهو يستطيع أن ينام تحت الشجرة » . وطالما سمعت عبارة تكررت على مسامعى من عشرات من البيض فى جنوب أفريقيا يرددون : « كيف تريدون منا أن نتساوى مع هؤلاء الدين هبطوا لتوهم من أعالى الأشجار » ويقصدون بذلك أن الأفريقيين منحطون فى سلم الرقى الحضارى ، وانهم كانوا قرودا منذ عهد قريب ، ولم يتطوروا بعد .

وفى عهد مالان اى فيما بين ٤٨ و ١٩٥٤ ، اقرت معظم قوانين التفرقة العنصرية ، مثل « قانون المناطق الجماعية » . لسنة ١٩٥٠ ، وهو قانون الفصل الاقليمى الذى يحتم الفصل الكامل بين الأجناس فى السكنى ، يسكن كل منهم فى منطقة خاصة به ، ولا يسمح لأى شخص من جنس آخر أن « يعيش أو يمتلك أو يستأجر عقارا أو يتاجر فى مكان يقع فى منطقة مخصصة لجنس آخر » ، ثم قانون « التسجيل السكانى » الذى يحتم تقسيم السكان جميعا الى جماعات تنتمى الى اجناس مختلفة ، ويحمل كل افريقى يزيد عمره عن ١٦ عاما بطاقة تحدد عنصره وصورته ولونه على أن تكون فى حوزته فى جميع الأوقات ، كما تحوى بصمات الأصابع وسجل بعقد العمل وتوقيعات صاحب العمل الشهرية . والتصريح بتواجده فى منطقة ما للبحث عن عمل، أو للسفر سعيا وراء عمل أو لاستلام وظيفة . وايصالات الضرائب ويرتكب الافريقى مخالفة ويتعرض للاعتقال اذا لم تكن البطاقة فى حوزته. او اذا كانت غير مستوفاة، **ولا يسمح لأى افريقى بالتواجد فى المدن والمناطق الحضرية من ٧٢ ساعة الا اذا أثبت انه يعمل خادما لدى مخدوم واحد لمدة عشر سنوات يعيش فى هذه المنطقة ، ويجوز منع الافريقيين داخل المناطق الحضرية من التواجد فى أى مكان عام أثناء الليل الا بتصريح كتابى من صاحب العمل الذى يستخدمهم مصدق عليه من الشرطة أو السلطات المحلية ، ويجوز فرض اجراءات حظر التجول هذه فى اية منطقة بموجب اعلان رئاسى يصدر بطلب من السلطة المحلية .**

ولست أريد هنا ان أسترسل فى سرد قوانين التفرقة العنصرية وما تسببه من آلام ومآسى للسكان الوطنيين ، وان كانت هذه القوانين تمس الحرية السياسية ، وقصرها على الأوروبيين وحدهم . وتحريم التنظيمات السياسيه والمشاركة فيها ، ومنع أى فئة عرقية من المشاركة فى نشاط الأحزاب السياسية أو المنظمات الخاصة بفئة أخرى ، واعتبار الأحزاب الافريقية الرئيسية واهمها : المؤتمر الوطنى الافريقى ، ومؤتمر الوحدة الافريقية « غير شرعيتين » فى أعقاب مذبحة شاربفيل سنة ١٩٦٠، واسكات جميع زعمائهما أما بالسجن أو اصدار الأحكام ضدهم ، بل واختطاف بعضهم من الخارج واعادتهم قسرا الى جنوب أفريقيا ، لمجرد انهم منحوا حق اللجوء السياسى أو سمح لهم بالاقامة فى الخارج (لاحظ هنا أوجه الشبه فى الاسلوب بين قضية ايخمان وخطف الأفريقيين من دول ذات سيادة لنقلهم الى جنوب أفريقيا) ، والحرمان من جوازات السفر ، وفرض التفرقة العنصرية حتى على الكنائس ، وتمزيق الاسرات اما بسبب تصنيفها ضمن فئات مختلفة ، او بسبب تحديد اقامتها فى مناطق عزل متباعدة ، وتحريم الزواج المختلط ، واعتبار أى علاقة جنسية بين الأوروبيين وغيرهم مخالفة عقوبتها السجن خمس سنوات للرجل وأربع للمرأة ، الى آخر القائمة الطويلة التى تنقلها الصحف بين الحين والآخر .

وباختصار ، فقد حدد هندريك فيرفورد رئيس الوزراء السابق أمام البرلمان سنة ١٩٦٣ أهداف

الفصل بين العناصر بقوله : « ان المشكلة » في أبسط صورها ـ ليست سوى اننا نريد أن تبقى جنوب أفريقيا بيضاء .. وان تبقى بيضاء ، يعني أمرا واحدا وهو السيطرة البيضاء . لا الزعامة، ولا التوجيه ، ولكن « السيطرة » و «السيادة» !

عدو اليهود .. البطل !

وقد كان فيرفورد هذا نفسه هو أول رجل ـ ربما فى التاريخ الحديث على حد تعبير احد زعماء اليهود (١) ـ له ماض مشهور فى معاداته للسامية وكراهيته لليهود ونصرته للنازية ، يتجمع آلاف اليهود فى جنوب أفريقيا لتأبينه ، وتنقل صحيفة « جويش كرونيكل » عن مراسلها فى جوهانسبرج ان آلاف اليهود حضروا حفلات تأبينه فى المعبد الكبير ومعبد اسرائيل فى المدينة ، واستمعوا الى الربى وهو يصفه لهم بانه « انه واحد من أعظم رؤساء الوزارات فى جنوب افريقيا ، ان لم يكن أعظمهم جميعا فى تاريخها ، وفى مدينة الكاب وقف الربى ليعلن أن فيرفورد هو أول رجل يعطى التفرقة العنصرية « أساسا أخلاقيا » !

وينبغى هنا ان نلقى نظرة سريعة على تاريخ فيرفورد هذا . فقد كان فيرفورد ـ الذى ولد فى هولندا ثم نزح مع أبويه المبشرين الى ولاية أورانج الحرة ـ من أعتى فلاسفة التفرقة العنصرية ، فقد بدأ حياته استاذا لعلم النفس بجامعة « ستيلنبوش » . وقد وقع اختيار مالون عليه لكي يعطى للتفرقة العنصرية شكلا محددا ومضمونا فلسفيا متكاملا ، فعينه رئيسا لتحرير صحيفة الحزب الوطنى فى الشمال « دى ترانسفالر » ، وسرعان ما انتمى الى جماعة « برودربوند » السرية المعروفة بميولها النازية، وبدأ يعارض علنا السماح لأى جماعات من اليهود بالنزوح من المانيا النازية الى جنوب أفريقيا ، وحملت صحيفته عدة مقالات نارية تحمل توقيعه هو واريك لوو ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية جنوب أفريقيا فى عهد فيرفورد ، تهاجم اليهود والهجرة اليهودية ، والرأسمالية اليهودية، وتصور اليهود بصورة « هوجنهايمر » ـ وهى الشخصية الكاريكاتيرية لليهودى الرأسمالى الغنى ذو الأنف الكبير الذى يحمل سيجارا ضخما فى فمه ـ وكان التفسير هو أن الافريكانز لم يكونوا رجال أعمال ناجحين . وكانوا يلقون منافسة شديدة من اليهود ، فضلا عن أن اليهود كانوا يؤيدون عادة الحزب الاتحادى الذى كان يعبر عن الناطقين باللغة الانجليزية . وكان الحزب الوطنى يومها يحرم على اليهود عضوية الحزب ، وتكونت فيه عدة جماعات تتبنى الايديولوجية النازية بحذافيرها ، وطالبت جماعة من هذه الجماعات بنزع ملكية كافة العناصر « المعادية للوطن ، وغير الوطنية، وغير القادرة على الاندماج» ، ثم حددت هذه الجماعة اليهود بصفة خاصة ، ويكاد يكون لكل زعيم من زعماء الحزب الوطنى فى هذه الفترة تصريحا معاد لليهود، فقد تحدث جوهانس ستريجدوم ـ الذى خلف دانييل مالان كرئيس للوزارة ، عن « سرطان الراسمالية البريطانى ـ اليهودى » ، ولم يكن مالان يخفى أمله ـ فى ان أفريقيا تحولت الى ماكينة حرب للامبريالية فوز هتلر ، وأعلن فى سنة ١٩٤٠ أن جنوب اليهودية ؟ وقد ضمن الحزب كل هذه السياسيات المعادية لليهود التى رددها زعماؤه فى برنامجه الانتخابى سنة ١٩٣٨ ثم كررها مرة اخرى بعد ذلك بثلاث سنوات .

والسؤال هو : اذا كان هذا هو فيرفورد الذى لم ينس ان يذكر فى سنة ١٩٥٧ انه حكم عليه يوما سنة ١٩٤٣ وهو رئيسا التحرير ، وأن القاضى يومها كان يهوديا ، واذا كانت هذه هى الارضية أو الخلفية الفكرية له وللحزب الوطنى، فكيف ومتى حدث التحول ؟ وبدأ شهر العسل بين جنوب أفريقيا ويهودها ومن ثم مع اسرائيل؟!

الصهيونية .. وملوك البطاطس !

هنا ينبغى أن نلقى نظرة على تاريخ اليهود فى جنوب أفريقيا وعلاقتهم بالصهيونية ، الذين بدأوا فى الوصول الى جنوب أفريقيا سنة ١٨٠٦ مع الحكم البريطانى عموما ، فالواقع أنه يمكن القول بصفة عامة أنهم نزحوا الى جنوب افريقيا فى موجتين ، فى حوالى سنة ١٨٣٠ ، وصلت مجموعة من التجار الى مستعمرة الكاب « رأس الرجاء الصالح » ، ولعب هؤلاء دور « الوسيط » وتجار « البقجة » والتنقل بين المزارعين المختلفين ، ثم الموجة الثانية ، وهى الأكبر « اثر اكتشاف الذهب وثروات جنوب افريقيا ، التى وافقت الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، حيث كان يهود شرق أوروبا وروسيا يعانون من الاضطهاد ، فنزحوا الى جنوب أفريقيا ، ولذا نجد ان الغالبية العظمى ليهود جنوب أفريقيا ـ الذين يبلغ عددهم نحو ١٢٠ الفا ينحدرون من ليتوانيا .

وسرعان ما اكتشف اليهود أن ظروف التفرقة العنصرية تتيح للأقلية البيضاء الصعود الاجتماعى بسرعة ، وبدأوا يسيطرون على بعض الصناعات الهامة مثل صناعة الملابس والسينما ،



ويستثمرون أموالهم فى مناجم الذهب والماس ، ثم الصناعات الوسيطة لهما (الصياغة) والتجارة، وحتى من اتجه منهم الى الزراعة كانوا يستثمرون أموالهم فى الآلات الزراعية ، وكان كل من « ملك البطاطس » ، وملك الذرة » من اليهود .

ويجمع معظم اليهود الذين تصدروا للكتابة عن يهود جنوب أفريقيا انهم اصبحوا أغنى جالية يهودية فى العالم أجمع بالنسبة لعددهم ، ولكن هذه الثروة لم يقابلها اهتمامات ثقافية ، أو حتى اهتمامات بأى شيء ينتمى الى جنوب أفريقيا . فطبقا لما يرويه برنارد ساكس ، وهو من كبار الكتاب الأدبيين والسياسيين فى جنوب أفريقيا ، (فى مجلة كومنتارى اليهودية الأمريكية) فان فشل الحركة الثقافية فى النمو وضعف التعبير عنها بين يهود جنوب افريقيا ، صاحبة - أو ربما سببه - انكباب اليهود على قضايا الصهيونية ، وكتب آخرون من جنوب أفريقيا الحاخام أونجار من « أثراء الصهيونية التى انتشرت هناك بصورتها الشوفينية الخالصة وما من دراسة عن جنوب أفريقيا تمس الأقلية اليهودية الا وتؤكد الصفة الصهيونية للغالبية . سواء أكانت دراسة صحفية عابرة مثل كتابات جون جنتر ، الذى أكد الصفة الصهيونية ليهود جنوب افريقيا، وتكدسهم فى جوهانسبرج (نحو ٥٠ ألف منهم فيها وحدها) وقال انهم صوتوا من أجل مالان والحزب الوطنى سنة ١٩٤٨ « لأنهم شعروا بأنه لو سقط الحزب الوطنى لتحمل اليهود وزر فشله » ، أو كانت الدراسة بقلم كاتب يهودى صهيونى مثل ليونارد ماركوارد (فى كتاب : شعوب وسياسات جنوب أفريقيا) ، الذى يعترف بأن الغالبية العظمى من يهود جنوب أفريقيا صهيونيون ، وان كان يثنى على مبدأ « الولاء المزدوج » ويقول انه ليس بالشيء السيء !

ان المؤسسات الصهيونية التى كانت تعبر عن المشاعر والمصالح الصهيونية ، فهى الاتحاد الصهيونى لجنوب أفريقيا الذى تأسس سنة ١٨٩٥ ومجلس النواب اليهودى لجنوب افريقيا (١٩١٢) وفى سنة ١٩٤٨ كان ٩٩ فى المائة من يوهد جنوب أفريقيا اعضاء فى احدى هاتين المنظمتين الصهيونيتين .

بداية شهر العسل ! :

وقد بدأ « شهر العسل » بين الحزب الوطنى والصهيونية نحو سنة ١٩٤٨ ، ويسوق الكتابة عدة أسباب لذلك : أولا احساس الأقلية البيضاء

والافريكانز بصفة خاصة بالتضامن اللونى والعنصرى مع يهود جنوب أفريقيا ضد الافريقيين لا سيما وان الحزب الوطنى كان قد نجح فى الانتخابات وبدأ بالفعل فى تنفيذ قوانين التفرقة العنصرية ، أو تدعيم ما كان قائما فعلا منها .
« ثانيا احساس الكثيرين من قادة الافريكانز بأن « استئصال اليهود من جنوب أفريقيا سوف يهز البلاد من قواعدها » نظرا لأن خروج اليهود الأغنياء بأموالهم كان سيسبب كسادا اقتصاديا حادا .

ويزعم البعض أن الخلافات التى تشبت بين يهود فلسطين وبريطانيا بعد سنة ١٩٣٩ سببت مزيدا من التعاطف والتقارب بين يهود جنوب افريقيا والافريكانز ، على اعتبار أن الانجليز كانوا يمثلون « العدو المشترك » الى حد ما .
(لا تنسى أن حرب البوير لم يكن قد بردت تماما بل اننى احسست بالتوتر بين عنصرى البيض الرئيسيين الافريكانز والانجليز حتى فى سنة ١٩٦١) ، ولعبت الدعاية الصهيونية فى جنوب افريقيا دورا هاما ، اذ يقول فايسبورد : « لقد كان الجو مشحونا يومها بالكلام المعادى لبريطانيا والعواطف المعادية لها بين الصهيونيين فى جنوب أفريقيا » ، وبدات الصهيونية تتقرب من الافريكانز وتثير نقاط الالتقاء بين اليهود والأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا ، ونشطت بصفة خاصة فى الكاب والترانسفال ، حتى قال مالان نفسه « ان خلق اسرائيل هو أعظم حدث فى التاريخ الحديث » ، وعبر البعض الآخر عن اعجابهم باحتفاظ اليهود بشخصيتهم العنصرية لمدة الفى عام ، وعاد مالان نفسه ، بعد أن اعترف باسرائيل اعترافا قانونيا بعد ان كان الجنرال سمطس — آخر من حكم جنوب أفريقيا من الانجليز قد اعترف بها واقعية فقال : أن أمه مدركة للأهمية العنصرية مثل امة اليهود ، فخورة بعرقها ، أسهل عليها ان تفهم وتحترم مشاعرنا »، وأخذت الدعاية الصهيونية تصور اسرائيل بأنها أمة صغيرة تائهة فى وسط بحر من ملايين العرب ، وهو نفس الشعور الذى يحس به الأفريكانز ، اذ انهم يتصورون انفسهم يكافحون من أجل البقاء ضد ملايين « البانتو » ، فاذا ما اتهما معا بالامبريالية ، وكانت التهمة موجهة من شعوبه داكنة اللون فى الغالب ، زاد التصق والتطابق . بل ان الحاخام روبين ، وهو يهودى كان عضوا بمجلس الشيوخ بجنوب أفريقيا ممثلا لغير البيض ، ثم نفى الى أمريكا لاختلافه مع زعماء الصهيونية ، يقول : لقد كان هناك سببا نفسانيا يضاف الى هذه الأسباب جميعا قال لى مثقف من الأفريكانز ، « أن الأفريكانز رأوا فى نجاح اسرائيل انتصارا للبيض على الملونين » . وأخيرا، فقد لعبت المشاعر الدينيــة دورها ، بحكم ان الأفريكانز كانوا من أتباع كالفن الذين يعتمدون كثيرا على التوراة ، ورأوا فى نشأة اسرائيل تحقيقا لنبوءة التوراة .

ولابد ان نشير هنا الى حقيقة هامة ، وان كانت تبدو صغيرة — وهى أن الجنرال سمطس، كان هو الآخر مؤيدا للصهيونية طوال حياته . وصديقا مقربا من الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان ، ولكنه عندما أعلن قيام أسرائيل لم يعترف بها الا اعترافا واقعيا لمراعاته للمشاعر البريطانية ، ومشاعر الناطقين بالانجليزية فى جنوب أفريقيا الذين كانوا يزهدن القتلة وأعضاء العصابات الصهيونية فى فلسطين الذين اغتالوا عددا من الانجليز بالرصاص .

ومن هنا ، فقد سنحت الفرصة لمالان لأن يعبر عن « صداقته الحقيقية » لليهود فى جنوب أفريقيا ، فسمح للضباط الاحتياط اليهود فى جنوب أفريقيا بالاشتراك فى حرب فلسطين ، الأمر الذى كان ولا يزال يتنافى تماما مع قوانين جنوب أفريقيا (الا فى حالة اسرائيل) ، ثم اصبح أول رئيس وزراء فى الكومنولث البريطانى يزور اسرائيل ، وبالرغم من بعض الأزمات المالية الحادة فقد سمحت حكومة جنوب افريقيا بتصدير بعض المعدات والأموال الى اسرائيل — رغم حاجتها هى اليها — ومنذ ذلك الحين ، فقد أرسل صهاينة جنوب افريقيا الى اسرائيل ما يزيد من الأموال على هبات أى مجموعة يهودية أخرى فى العالم أجمع — بالنسبة لتعدادهم — بما فى ذلك يهود أمريكا ، كما سافر الى اسرائيل من يهود جنوب افريقيا ما يزيد فى نسبته على أى يهود فى العالم كله ، كما اننى اعتقد أن نسبة من يشترك منهم فى حروب اسرائيل أعلى ايضا فى نسبة من يهود اى بلد آخر فى العالم .

القاضى الذى خان امته ! :

وقد كانت آثار هذا التقارب وثماره متعددة ، فقد تبنى معظم اليهود قضية الحزب الوطنى ، وأصبحت هذه هى السياسة الرسمية لهم ، وفى سنة ١٩٥١ وجه مجلس النواب الاسرائيلى شكره العميق للحكومة على مشاعرها الموالية لاسرائيل بصدق ، وطالب بفتح كل فروع الحزب الوطنى لعضوية اليهود ، وسرعان ما قبلهم فرع

الترانسفال للحزب الوطني ، ثم فرعا ناتال وأورانج الحرة ، وعندما تقاعد مالان من الحياة السياسية رسميا سنة ١٩٥٤ ، مخلفا مكانه مستر يحدوم ، ومنحه يهود جنوب أفريقيا أعلى درجات التكريم عندهم ، ووضعوا اسمه في « السجل الذهبي » لهم . واستمرت حكومة ستريجدوم في التعبير عن مشاعر المودة تجاه اسرائيل ، وعين سيمون كوبر زعيم اتحاد جنوب أفريقيا الصهيوني قاضيا بمحكمة الترانسفال .

وعندما انتخب الدكتور فيرفورد رئيسا للوزارة سنة ١٩٥٨ ، قدم له مجلس النواب اليهودي تهانئه الرسمية ، وكافأهم فيرفورد بتعيين بيرسى يوتار نائبا لوزير العدل في الترانسفال ، وقد كان يوثار هذا هو القاضي الذي حضرت بعض جلسات محاكمات الخيانة المشهورة في بريتوريا أمامه ، التي حكم فيها على نيلسون مانديلا واخوانه بالسجن عشرات السنين . ويقول البروفسور ريتشارد ستيفنز (في مقال له عن الصهيونية وجنوب أفريقيا والابار تهايد — نشر في مجلة ميداسيت) : لقد توج يوثار بذلك سجل أعماله ، اذ أنه كان رئيسا لمعبد جوهانسبرج اليهودي المتحد ، ورئيسا لمجلس صندوق التعليم اليهودي ، وامعانا منه في اظهار الولاء لفيرفورد ، فقد أصدر أحكاما في هذه المحاكمة على بعض اليهود (المناوئين للصهيونية) الذين عاونوا الوطنيين !

وقد سمح فيرفورد لصهاينة جنوب أفريقيا بتحويل ما يقرب من مليون دولار سنويا الى اسرائيل ، وبدات الدولتان في تبادل الزيارات الرسمية .

وبالقطع ، فقد أثار هذا التقارب التساؤل حول تأييد اليهود لسياسات التفرقة العنصرية ، وكان من يثير هذه التساؤلات منهم مصيره الطرد والنفي — لا من الحكومة — ولكن من المجتمع اليهودي الصهيوني نفسه ، حدث يوما أن أعلن اندريه أونجر • ربى معبد اسرائيل في بورت اليزابث ، أن الغالبية العظمى من اليهود يؤيدون سياسة التفرقة العنصرية لأنهم يكرهون أن يتخلوا عن المزايا التي تدرها عليهم ، وكان مصيره الطرد من المعبد ، والنفي بعد ذلك . ويقول فايسبورد : حتى الجيل الجديد من اليهود في جنوب أفريقيا يؤيد التفرقة العنصرية تماما ، فقد نشأوا في جو من الثراء والراحة والفخفخة ، وتعلموا في أحسن مدارس جنوب أفريقيا ، ولم تضطر بنت واحدة الى اداء الأعمال المنزلية ، أو ولد واحد الى اداء الأعمال اليدوية ، ومن ثم فقد نشأوا في مناخ الأبارتهايد ، وهم يتقبلونه كأمر طبيعي ، تماما كما يتنفسون !

وقد ساق البروفسور ستيفنز ، الأستاذ بجامعة لينكولن الامريكية ، عدة نماذج على راى يهود جنوب أفريقيا السابق في سياسة التفرقة العنصرية ، ومعارضتهم لها ومطالبتهم الآراء الليبرالية والتقدمية ثم أضاف أنه على أثر انتصار الحزب الوطني في سنة ١٩٤٨ ، فقد بدات مجلة « جويش أفيرز » تعكس آثار مقابلة مالان مع زعماء مجلس النواب اليهودي ، وبدلا من أن تنادى افتتاحياتها «بالليبرالية والتقدمية» اذا بمجلس النواب اليهودي يعلن انه « هيئة غير سياسية ، من واجبها أن تتجنب اتخاذ أى مواقف من القضايا الحزبية ، والا تعبر عن أى آراء خاصة بالسياسات العنصرية التي تمارس»!

وقد حاولت عدة مجلات نشرت أبحاثا لبعض اليهود غير الموالين للصهيونية مقالات تنتقد سياسة صهاينة جنوب افريقيا وتأييدهم للتفرقة العنصرية مثلما فعلت مجلة « أفريكا ريبورت » التي نشرت مقالا للزلى روبين في فبراير ١٩٧٠ ، وعندما طلبت من مجلس النواب اليهودي في جنوب افريقيا أن يرد على روبين ، اجابها جوستاف سارون ، رئيس المجلس بخطاب قال فيه « انه بعد البحث المستفيد للموضوع ، فقد قرر المجلس ، الذى يعتبر نفسه لسان حال المجتمع اليهودي في جنوب افريقيا ، أن يتبع سياسة « عدم التدخل » الصارمة ، أى بمعنى آخر ، فان المجلس باعتباره متحدثا رسميا بلسان هذا المجتمع اليهودي لايريد أن يدخل الحلبة السياسية • من هنا فانه من غير اللائق لى ، بل ومن المستحيل على ، كعضو بارز في المجلس ، أن أدخل في نقاش حول مزايا أو عيوب السياسات العنصرية لجنوب افريقيا » !

بل ان الصهيونيين في جنوب أفريقيا بدأوا يرون في الأفريكانز شعبا شجاعا ، لايمكن الا ان نرى فيه كل معاني الصمود واتفاق الهدف معنا ، فضلا عن أننا نقدر بعمق احساس هذا الشعب تجاه اسرائيل » ، وقد أضاف أحد الزعماء الدينيين من يهود جنوب افريقيا في مؤتمر عقد في بريطانيا ، وهو الحاخام ويلر سببا آخر « قال : « انه ليس من المتصور أن يطلب يهود جنوب افريقيا الاذن من الحكومة أن تسمح لهم بتصدير المال والعتاد ، ثم يقومون بمعارضة سياسات الحكومة في الوقت نفسه » !

بل ان مذبحة شاربفيل في مارس ١٩٦٠ ، التي جلبت على جنوب افريقيا ادانة المجتمع الدولي

كله ، بما في ذلك الحكومات التى تساند جنوب افريقيا كالولايات المتحدة ، وكل المذاهب الدينية وتنظيماتها فى العالم كله ، لم تفلح في تحريك الصحافة اليهودية فى جنوب افريقيا أو مجلس النواب اليهودى ، وأعلن تشارلز هوبنشتاين ، عضو المجلس ، وأحد زعماء الصهيونية فى جنوب افريقيا عن « تأييد الغالبية اليهودية لسياسة الابارتهايد التى تتبعها حكومة اتحاد جنوب افريقيا ، وشكر المجلس لجنوب افريقيا لأنهافتحت الباب أمام هجرة ١٥٠٠ يهودى جديد لاجئين من الكونجو » .

وقد أثار هذا الاتفاق بعض الكتاب اليهود المعادين للصهيونية ، فقد اشترك واحد منهم ، وهو رونالد سيجال ، وهو يهودى منفى منجنوب افريقيا ، في سجال بمجلة « كومنتارى » على أحد أقطاب صهاينة جنوب افريقيا ، اتهم سيجال فيه يهود جنوب افريقيا بأنهم لا يثورون «للعدالة» الا من أجل تحقيق مصالح يهودية صهيونية ضيقة، وقال في مقاله الذى نشر عام ١٩٥٧ ، كم من يهودى في جنوب افريقيا له مكانته سمعته وهو يثنى على أهوال «الأبارتهايد» ويسبح بحمدها ، وفي الوقت نفسه يطالب العالم بادانة الحكومة المصرية ؟ لقد ثار يهود جنوب افريقيا عندما سمعوا بمصادرة أموال بعض اليهود في مصر بسبب حرب ١٩٥٦ ، واعتقال بعض اليهود في مصر ، وثارت بحجة العدالة ، ولكن عندما طرد الافريقيون الوطنيون من قرية «سوفياتاون» (وهى أحد المعازل الافريقية قرب جوهانسبرج) وحرموا من مساكنهم ومن حقهم في امتلاك أرضهم وصودرت ممتلكاتهم في جوهانسبرج ، وعندما أخرجوا عنوة من منازلهم صباح ذات يوم بين صفين من رجال البوليس المدججين بالسلاح ، لم يرتفع صوت يهودى واحد بالاحتجاج ؟ كم زعيما منكم احتج ؟ لم يصدر بيان علنى واحد ، أو مناشدة واحدة للحكومة بالتعقل أو توخى العدالة ، وقال سيجال ان نفاق يهود جنوب افريقيا يظهر دائما فى آرائهم المتعصبة بشأن قضايا الشرق الاوسط ، بينما يساق الافريقيون الى جيتوهاتهم فى جنوب افريقيا ، هم والملونون والهنود ، دون أن يرتفع صوت صهيونى واحد بالاحتجاج .

شهادة من فيرفورد !

وأخيرا ، فان كل من يتصدى للكتابة عن علاقة اسرائيل بجنوب افريقيا يذكرون فترة واحدة ، أخطأت اسرائيل فيها وصوتت مع الدول السبع والستين فى الامم المتحدة التى أدانت سياسه التفرقه العنصريه فى اللجنة السياسيه التابعة للجمعية العامة للامم المتحدة سنة ١٩٦١ ، ثم عادت تؤيد جنوب افريقيا على طول الخط عندما ثارت عليها حكومتها ثورة عنيفه ، وهدد هندريك فيرفورد « بتهديد يهود جنوب افريقيا جميعا» واتهم اريك لود وزير خارجية جنوب افريقيا اسرائيل «بالجحود والعداء لان حكومه جنوب افريقيا كانت تتعمد تحسين العلاقات مع اسرائيل» ، وقالفيرفورد «ان اليهود استونوا على اسرائيل من العرب بعد أن عاش العرب هناك ألف عام ، واذن فانني أتفق معهم ، أى مع العرب ، في ان اسرائيل ، كجنوب افريقيا تماما ، دولة تؤمن «بالابارتهايد» والتفرقة العنصرية » . وهدد «بسحب تأييد جنوب افريقيا لاسرائيل ، وانتهاج خط جديد تماما للتفكير » !

وسرعان ما تراجعت اسرائيل ، وأصبحت تؤيد جنوب افريقيا على طول الخط ، بل أكثر من ذلك ، بدأت كل المنظمات الصهيونية فى العالم تؤيد الابارتهايد وسياسة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا ، وامتنعت المنظمات الصهيونية — وكلها لها تمثيل فى الامم المتحدة بصفة استشارية ، عن الخوض في موضوع التفرقة العنصرية مطلقا ، ومنها المؤتمر اليهودى العالمى ، وبناى بريث وغيرهما ، وبدأ الأغنياء الصهيونيون فى نيويورك يدافعون عن مصالح جنوب افريقيا ويهاجمون أى صحيفة تهاجم جنوب افريقيا ويستخدمون معها وسائل الضغط المعروفة ، مثل حرمانها من الاعلانات وبدأت هذه الجماعات تستخدم «بعبع» الشيوعية التقليدى فى دفاعها عن جنوب افريقيا واسرائيل !

كما تبنى رجال الاعمال والصناعة الامريكيين قضية الدفاع عن جنوب افريقيا ، واستكتبوا فى ذلك بعض أقطاب الصهيونية ، مثل كتاب «وجهى الابارتهايد» الذى أعده الكاتب الصهيونى الفرنسى بول جينوسكى ، وقدم له كلارنس راندال ، رئيس مجلس ادارة شركة «اينلاند» للصلب ، والذى دافع فيه جينوسكى عن سياسة « البانتوستان » ونفى الوطنيين الافريقيين في معازل خاصة لا تزيد عن ١٣٪ من مجموع مساحة الارض الصالحة للزراعة فيجنوب افريقيا ، وتعد من أسوأ أراضى جنوب افريقيا قاطبة ، بحجة ان هذه السياسة قريبة من « الصهيونية » ، بل سماها « صهيونية البانتو » لانها ستحافظ على نقاء العنصر الاسود — فى تقديره — كما حافظت الصهيونية على نقاء العنصر اليهودى !



المجتمع الدولى و التفرقة العنصرية فى أفريقيا

عبدالمغنى سعيد

لاشك ان التفرقة العنصرية هى ابشع جرائم امتهان الكرامة الانسانية واغتيال الحقوق الاساسية للانسان . وما كانت لتبقى ولتظل تمارس فى عصر الاعلان العالمى لحقوق الانسان لولا انها بحكم واقعها وفى ضوء جذورها التاريخية امتداد للسياسات الاستعمارية القائمة على استرقاق الشعوب الواقعة تحت براثن الاستعمار او الخاضعة لنفوذه بصورة او باخرى . ومعاملتها كشعوب ادنى غير جديرة بان تعامل معاملة المثل مع الجنس الابيض الذى يؤمن بسيادته على الاجناس الاخرى بدافع من نزعته العدوانية ومركب الاستعلاء . كما أن التفرقة العنصرية من جهة اخرى بديل مقنع لنظام الرق الذى ظل سائدا فى مجتمعات كثيرة كجزء لا يتجزأ من النظام الاقتصادى لعدة قرون . وحتى مع تقدم الحضارة الانسانية ظل الرق امرا عاديا فى حضارة الاغريق والرومان ثم فى دول كبرى اخرى فى العصور القديمة . ولم تلبث تجارة الرقيق ان توسعت بصورة وحشية مروعة فى اعقاب فترة الكشوف البحرية الكبرى فى القرن الخامس عشر ، حيث كانت الدول الاستعمارية الاوربية تعتمد فى استثمار خيرات العالم الجديد والمناطق البكر فى القارة الافريقية على سواعد العبيد الذين كانوا يخطفون او يغرر برؤساء قبائلهم ليعملوا عبيدا فى خدمة سادتهم من المستعمرين البيض واذا رجعنا الى كتاب انجرام J. K. Ingram الذى يعد اهم المراجع الاساسية فى تاريخ الرق لوجدنا ان تلك الدول كانت تحتفظ حتى اوائل القرن التاسع عشر باربعين مركزا لترحيل العبيد الافريقيين ١٥ منها هولندية و١٤ انجليزية و ٤ برتغالية و ٤ دانماركية و ٣ فرنسية .

كان ذلك هو الوضع قبل قيام الثورة الصناعية وظهور حركة تحرير الرقيق . وما كان ليتم تحريم هذه التجارة البشعة الا بعد ان اصبح استخدام الالات اعم

واجزى فى الزمن الطويل من استخدام الرقيق ، حيث اصبح العمال الاجراء الذين يلاحظون الآلات أقل كلفة ومسئولية من الارقاء ، فضلا عن امكان التخلص منهم بفصلهم من العمل فى أى وقت . وهكذا بعد الغاء نظام الرق كنتيجة حتمية للثورة الصناعية وظهور نظام الكادحين الاجراء الاكثر وفرا للراسمالية المنطلقة ، عوملت الشعوب الملونة معاملة العبيد عن طريق ممارسة التفرقة العنصرية، ونظم التسخير أو الاجبار على العمل على اوسع نطاق وفى القارة الافريقية بوجه خاص . ومن هذا يتضح لنا ان مشكلة التفرقة العنصرية انما نشأت عن عوامل اقتصادية أو علمية . فالبشر على اختلاف أجناسهم والوانهم سواء واجتماعية وسياسية وما كانت لتكون لها جذور طبيعية من حيث الاصل والتكوين الطبيعى . وتلك حقيقة ثابتة لا يمكن أن تكون محلا لجدل او لشك . كما اوضح هذه الحقيقة العلمية بيان لجنة خبراء اليونسكو المعلن فى باريس فى السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٦٧ .

ولقد تضمن ميثاق الامم المتحدة المعلن عام ١٩٤٥ بعض النصوص المناهضة للتفرقة العنصرية حيث اكد فى ديباجته ايمان شعوب الامم المتحدة « بالحقوق الاساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والامم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية » وفى معرض الحديث عن اهداف الهيئة التى حددتها المادة الاولى من الميثاق ، نص الهدف الثالث على « تنمية ودعم أحترام حقوق الانسان والحريات الاساسية لجميع البشر وبدون تمييز بالنسبة للعنصر او الجنس أو اللغة أو الدين .. » وفى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ اقرت الجمعية العمومية للامم المتحدة الاعلان العالمى لحقوق الانسان الذى آكد فى ديباجته ان « الاعتراف بالكرامة المتاصلة فى جميع اعضاء الاسرة البشرية وبحقوقهم المتكافئة هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم . كما نوهت ديباجة الميثاق ايضا بالاهمية البالغة لتفهم الناس جميعا لحقوقهم وحرياتهم كما ابرزها الاعلان العالمى لحقوق الانسان باعتباره «المستوى المشترك الذى يجب أن تستهدفه جميع الشعوب والامم » ونوه الاعلان فى مادتيه الاولى والثانية عن نزعات التفرقة والتمييز مؤكدا ان الناس جميعا انما يولدون « احرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وكلهم قد وهب الرشد والضمير ، وعليهم آن يعامل بعضهم البعض بروح الاخاء » ومن ثم يكون لكل انسان آينما كان حق التمتع « بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الاعلان ، بدون تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين او الرأى السياسى أو اى رأى آخر ، أو الاصل القوى او الاجتماعى او الثروة او المولد او غير ذلك من الاوضاع . » وعلى الرغم من هذا الاستنكار لنزعات التمييز والتفرقة العنصرية فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، وعلى الرغم من استنكار ميثاق فيلادلفيا الذى يعد جزءا لا يتجزا من دستور منظمة العمل الدولية لهذه النزعات ، ومن نصه الحاسم على وجوب التسوية فى المعاملة بين جميع الافراد بغض النظر من اللون او الجنس او العنصر ، فان بعض الدول الاستعمارية او الدول التى تحكمها اقلية بيضاء فاشستية مثل آتحاد جنوب افريقيا وروديسيا ظلت وما زالت تمارس التفرقة العنصرية ضاربة عرض الحائط بالتزاماتها الدولية ، غير مستجيبة لنداءات الراى العام الدولى بل ولقرارات مجلس الامن والجمعية العمومية للامم المتحدة التى تدعوها لوضع حد لهذه السياسة البشعة التى لا يمكن تصور استمرار تطبيقها فى القرن العشرين !

ولقد كان المؤتمر باندونج للدول الاسيوية والافريقية المنعقد فى ابريل ١٩٥٥ أعظم الاثر فى فضح سياسات التفرقة العنصرية واستنفار الرأى العام الدولى لمناهضتها ، حيث استنكر المؤتمر بلغة قوية « السياسات والمعاملات القائمة على التمييز والتفرقة العنصرية التى تقيم عليها حكومات بعض الدول العلاقات الانسانية فى جزء كبير من القارة الافريقية وفى نواحى اخرى من العالم « مؤكدا ان مثل هذه السياسات » ليست خرقا لحقوق الانسان فحسب ، بل هى كذلك انكار للقيم الانسانية للحضارة ولكرامة الانسان » وعلى أثر اجتياح موجة التحرر الوطنى لمساحات كبيرة من افريقيا وآسيا خلال الخمسينات وأوائل الستينات وحصول عدد كبير من الدول الافريقية والاسيوية على استقلالها وانضمامها الى الامم المتحدة بالتالى ، استطاع الملونون ان يثبتوا وجودهم وفاعليتهم فى المجتمع الدولى ، وأن يثيروا قضية التفرقة العنصرية فى الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وجرت اهم وامتع مناقشات هذه القضية فى منظمة العمل الدولية واليونسكو بوجه خاص . ولسوف اركز فى هذا البحث على دور منظمة العمل الدولية فى هذا المجال باعتبارها اهم وادق الوكالات المتخصصة للامم المتحدة ، ولانها ثلاثية التمثيل بجمعها لممثلى العمال واصحاب الاعمال بالاضافة الى ممثلى الحكومات . فضلا عن انى شاركت فى اغلب دورات مؤتمر العمل الدولى التى ناقشت قضية التفرقة العنصرية وانتهت مناقشتها باقصاء اتحاد جنوب افريقيا من عضوية المنظمة فى دورة عام ١٩٦١ .

والواقع ان مناقشات منظمة العمل الدولية لموضوع تحريم التفرقة العنصرية عاصرت أخطر المراحل التى مرت بها المنظمة منذ انشائها عام ١٩١٩ ، بل وكادت تعرض كيانها ومبادئها للانهيار ونحن نقرر حقيقة واقعة اذا قلنا ان نفوذ الدول الاستعمارية وفريق اصحاب الاعمال فى المنظمة ، وفى مجلس ادارة مكتب العمل الدولى بوجه خاص ، هو السبب فى الازمة التى مرت بها المنظمة طوال تلك الفترة . كما كان السبب ايضا فى تاخر تصدى المنظمة لمعالجة هذا الموضوع الخطير . فلقد كان من الواجب ان تبدا المنظمة فى معالجته عقب اصدار الاعلان العالمى لحقوق الانسان مباشرة وبدون ابطاء تطبيقا لما تضمنه من استنكار للتفرقة العنصرية ودعوة للقضاء عليها وذلك لان المبادىء

العامة التى تضمنها الاعلان فى هذا الشان لم تكن لتـكفى فى حد ذاتهـا للقضـاء على مظاهر التمييز أو التفرقة بين الانسان وأخيه الانسان . وكان من الضرورى أن تتخـذ جميع الوكالات المتخصصة للامم المتحدة ، كل فيما يخصها من الادوات الدولية والسياسات والوسائل العملية ما يكفل تنفيذ هذه المبادىء فى جميع الدول وبالنسبة لجميع الاجناس والافراد . ولقد كانت منظمة اليونسكو هى اسبق الوكالات المتخصصة الى العمـل ، حيث بادرت باصـدار الاداة الدولية الخاصة بمنع التمييز أو التفرقة فى ميـدان التعليم . ولم يتحرك مكتب العمل الدولى للقيـام بدوره الا بناء على توجيه من المجلس الاقتصـادى والاجتماعى ، حيث اتخذ المجلس فى دورته الثامنة عشر فى يوليـو ١٩٥٤ قرارا بدعوة مكتب العمل الدولى للقيام بدراسـة مماثلة فى ميدان الاستخدام . وبناء على هذا القرار ادرج موضوع التفرقة العنصرية فى جدول اعمـال الدورة الاربعين لمؤتمر العمل الدولى عام ١٩٥٧ . ولقد كان من المنتظر والمنطقى ـ وتحريم التفرقة العنصرية مبدأ مقرر فى ميثاق فيلادلفيـا الذى يعد جزءاً لا يتجزأ من دستور منظمة العمل الدوليـة كما سبق ان أوضحنا ـ أن تكون الاداة الدولية التى تقررها المنظمة تطبيقا لهذا المبدأ أداة قوية وفعالة . الا أن هـذا لم يتحقق مع بالغ الاسـف ونجحت الدول الاسـتعمارية معززة بفرق أصحاب الاعمـال فى اضعاف شروع الاتفـاقية الدولية الذى اقترحه المكتب كاساس للمناقشة . وجاءت الاتفاقية كما أقرها مؤتمر العمل الدولى فى دورته التـالية عام ١٩٥٨ وثيقة ضعيفة تقتصر على مجرد تعريفات ومبادىء عامة سبق تضمينها من قبل فى وثائق دولية اكثر اهمية مثل الاعلان العالمى لحقوق الانسان وميثاق فيلادلفيا . ولم تكن هذه المبادىء لتحتاج الى اعادة توكيد فى قالب اتفاقية عمل دولية يغلب عليها الاجمال وتتلافى تفاصيل اسس التنفيذ . فهذه الاتفاقية وان كانت قد الزمت الدول المصدقة عليها برسم وتنفيذ سياسة قوميـة لتحريم التفرقة العنصرية فى اسرع وقت ، الا انهـا لم تحـدد الخطوط أو المقـومات الرئيسية لهذه السياسة ، كمـا لم تتضمن اية ضمانات لكفالة تنفيذها . والتزام الدولة المصدقة لا يتعدى مجرد اعلان واتباع سياسة قومية تحقق المساواة فى المعاملة وفى الفرص فيما يختص بالتوظف او المهنة بالطرق التى تتناسب مع الظروف والعادات القومية ، ويكون هدف هذه السياسة ملاقاة وازالة اية تفرقة فى هذا الشان . ولقد اقحم هـذا التحفظ الخاص بالتناسب مع الظروف والعادات القومية لاضعاف المادة ، وذلك تحت ضغط ذلك الفريق من الدول الغربية الذى يمارس سياسات التفرقة العنصرية . كمـا يلاحظ أيضا ان هـذه العبارة التى صيغت فيهـا المـادة الثانية من الاتفاقية جاءت أضعف من أن تفى بالغرض . فهى لم تحدد وقتا معينا تلغى خلاله سياسة التفرقة ، كما حدد مثـل هـذا الوقت فى الاتفـاقية الدوليـة رقم ١٠٤ الخاصة بالغاء العقوبات الجنائية على فسخ عقد العمل .



ومما هو جدير بالذكر ان اضعاف الاتفاقية رقم ١١١ الخاصة بالتفرقة العنصرية على هـذا النحو ، انما جاء نتيجة مناورة حل وسط قامت بها بعض الدول الصـغيرة لصالح الدول الاستعمارية الغربية ، حيث قضى هذا الحل الوسط بنقل جميع المواد التفصيلية الخاصـة بمقومات السياسـة المقترحة لالغـاء التفرقة العنصرية الى توصية دولية مكملة . وترتب على هذا النقل افتقار الاتفاقية الى الكثير من المبادىء الاساسية التى كانت واردة فى مشروعها الاصلى ، والتى فقد المشروع قيمته وفاعليته نتيجة لاحالتها على التوصية . لهذا وعملا على تدارك هذا النقص اقر مؤتمر العمـل الدولى فى دورة عام ١٩٦٠ قرارا خاصـا بالتفرقة العنصرية نوه بضرورة وجود اداة لرصد ومتابعـة سياسات وتدابير التفرقة العنصرية ، ودعا مجلس ادارة مكتب العمل الدولى الى توجيه عناية خاصة وعاجلة الى التقارير السنوية الخاصة بتطبيق احكام الاتفاقية الدولية رقم ١١١ الخاصة بالتفرقة العنصرية ، والتى تطالب الدول الاعضاء بتقديمها طبقا لاحكام المادة ١٩ من دسـتور منظمة العمل الدولية . والى أن يتخذ من التدابير الاخرى ما قد يراه مناسبا لعلاج المسائل الواردة فى الاتفاقية ناظرا بوجه أخص الى حكمة وامكانية انشاء أداة خاصة لعلاج هـذه المسائل . وعلى الرغم من أن رغبة المؤتمر كانت واضـحة عند اصدار قراره فى انشاء أداة دولية خاصـة بالتفرقة العنصرية على نمط الاداتين الخاصتين بالسخرة والحرية النقابية ، الا ان مجلس الادارة لم يتورع عن تجاهل هـذه الرغبة . ورأى فى أول الامر الاكتفاء بمطالبة الدول المصدقة على الاتفاقية بتقديم التقارير السنوية عن تطبيقها بنـاء على حكم المادة ١٩ من دستور المنظمة وهذه التقارير كمـا هو معروف اجراء عادى يتبع بالنسبة لكل اتفاقية عمـل دولية . وما كان اعدادها ليحتاج الى اصدار قرار خاص من المؤتمر . ولا يمكن أن تغنى بأية حال عن الاداة الدولية المقترحة لعلاج موضوع كهذا بالغ الاهمية والخطورة .

وفى دورة يونيو ١٩٦١ أصدر مؤتمر العمل الدولى قراره التاريخى الذى ندد فيه بسياسة التفرقة العنصرية التى تمارسها جمهورية اتحاد جنوب افريقيا معلنا فى حسم ان استمرار عضوية مثل هذه الدولة فى منظمة العمـل الدولية لم يعد يتفق مع اهداف المنظمة ، وداعيا مجلس الادارة الى نصح حكومة جنوب افريقيا بالانسحاب من المنظمة الى ان يحين الوقت الذى تعدل فيه عن هـذه السياسة المنافية لدستور المنظمة ومبادئها . ويوم أصدر المؤتمر هذا القرار التاريخى على الرغم من جميع المناورات والمؤامرات لاسقاطه ، كان المفروض أن يتعـاون مجلس الادارة باخلاص على تنفيذ القرار بدون تسويف أو مماطلة. وعندما نظر المجلس فى هذا القرار ضمن القرارات الاخرى التى اتخذها المؤتمر قرر فى دورة نوفمبر ١٩٦١ تكليف المدير العام لمكتب العمل الدولى بابلاغ القرار رسميا الى حكومة جنوب افريقيا . وبناء على ذلك أبلغ المدير العام القرار الى حكومة جنوب افريقيا فى ١٧ يناير ١٩٦٢ . وجاء رد الحكومة المذكورة فى ٢٤ مارس ١٩٦٢ متبجحا ، حيث طعنت فى القرار بعدم دستوريته وأعلنت متحدية أنهـا تتجاهله ولن تعيره بعد ذلك أى اعتبار . ومع أن المدير العام يتقدم عادة الى كل دورة من دورات مجلس الادارة بتقرير عن الامور التى تستجد خلال الفترة بينها وبين نهاية الدورة السابقة ، الا انه فيما يبدو لم يعتبر رد حكومة اتحاد جنوب افريقيا من الاهمية بحيث يضمنه فى تقريره لدورة مايو او دورة يونيو أو دورة نوفمبر ١٩٦٢ أو حتى فى دورة مارس ١٩٦٣ . كما لم يكلف مجلس الادارة نفسه عناء سؤال المدير العام عما اذا قد تلقى مثل هـذا الرد ! وهكذا ظلت المشكلة مرجأة او موضوعة على الرف الى أن تفجرت تفجرا شديدا فى الدورة السابعة والاربعين لمؤتمر العمل الدولى خلال شهر يونيو ١٩٦٣ بانسـحاب الدول الافريقية والعربية من المؤتمر احتجاجا على اعطاء الكلمة لمندوب حكومة جنوب افريقيا . فكان أن أيقظ ذلك الانسحاب الخطير المفاجىء كمظاهرة سياسية ضاغطة كلا من مجلس الادارة والمدير العام من نومهما العميق ! وكشف المدير العام عن سر الرد الذى تلقاه من حكومة جنـوب افريقيا منذ اكثر من ١٥ شهرا فى مارس ١٩٦٢ . وعاد مجلس الادارة مضطرا الى مناقشة الموضوع المعلق فى الدورة التى تلى انفضاض المؤتمر مباشرة . وأسفرت المناقشـة عن قرار يقضى باتخاذ بعض الخطوات العملية فى الطريق الطويل لحل المشكلة : أولها قرار بحرمان حكومة جنـوب افريقيا من عضوية جميع اللجان والاجتماعات التى يصدر بتشكيلها أو بعقدها قرار من مجلس الادارة . ولم تكن تلك الحكومة فيما نعلم لتظهر فى الاعوام الماضية اهتماما يذكر بهذه اللجان والاجتماعات . وبالطبع لم يكن هذا القرار لينصب على حضور المؤتمر السنوى العام للمنظمة والمشاركة فى لجـانه لان أمر ذلك لا يدخل فى اختصـاص مجلس الادارة .. وثانيها واهمها ان ينظر مجلس الادارة فى دورته التالية وعلى وجه الاستعجال اية تعديلات يقتضى الموقف ادخالها على الدستور أو لائحة النظام الأساسى عملا على تحقيق رغبة المؤتمر بمقتضى قرار عام ١٩٦١ فى انهاء عضوية اتحاد جنوب افريقيا . كما قرر المجلس أيضا ايفاد المدير العام لمكتب العمل الدولى مصحوبا بوفد ثلاثى من أعضاء المجلس للتشاور مع السكرتير العام للامم المتحدة بشـان الجوانب السياسية والدستورية لعضوية جنوب افريقيا فى منظمة العمـل الدولية ، وفى الامم المتحدة ووكالاتهـا المتخصصـة بصفة عامة ، والمشـكلات التى تترتب على استمرارها فى ممارسة سياسة التفرقة العنصرية . وبناء على ذلك سافر المدير العام مصحوبا بالوفد الثلاثى الممثل لمجلس الادارة الى السـكرتارية العامة للامم المتحـدة بنيويورك فى ٢٥ يوليو ١٩٦٣ للتشاور مع السكرتير العام. الا أن هذا التشاور لم يحقق ما هو أكثر من مجـرد التنويه بوجوب الحرص على تجنب اتخاذ أى من الوكالات

المتخصصة لموقف منفرد ، او اتخاذها مواقف متعارضة . الامر الذى اثار يومئذ نوعا من التخوف من ان تكون تلك الدعوة الى الالتزام بموقف موحد فى عائلة الامم المتحدة وسيلة غير مباشرة لحرمان هيئة العمل الدولية من حرية العمل . خصوصا وان مجلس الادارة قد تطوع بتوكيد هذا التحفظ فى دورة نوفمبر ١٩٦٣ منوها هو الاخر بوجوب اتخاذ موقف متناسق او موحد مع الاجهزة الاخرى للامم المتحدة .

كان هذا هو الموقف قبل انعقاد مؤتمر وزراء العمل الافريقيين فى دورته الثانية بالقاهرة فى ديسمبر ١٩٦٣ . ولقد واجهه المؤتمر فى حسم وبصراحة واتخذ بعض القرارات المناسبة استعدادا للمعركة مهددا بانسحاب الدول الافريقية نهائيا من منظمة العمل الدولية ، اذا لم ينفذ قرار مؤتمر العمل الدولى الصادر فى دورة ١٩٦١ ويتم اقصاء اتحاد جنوب افريقيا من عضوية المنظمة . ومما زاد من اهمية وفاعلية قرارات ذلك المؤتمر انه انعقد فى الوقت الذى احتلت فيه مشكلة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا ومشكلة الاستعمار والسخرة فى الاراضى الواقعة تحت نير الاستعمار البورتغالى مكانا بارزا فى مناقشات الجمعية العمومية للامم المتحدة ومجلس الامن . الا ان حكومة جنوب افريقيا لم تكن لتعبا بهذه المناقشات وظلت تتحدى الراى العام الدولى . فعلى الرغم من قرارات الاستنكار المتلاحقة التى اصدرها مجلس الامن والامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، فان هذه الحكومة المتعجرفة استمرت فى ممارسة سياسات التفرقة العنصرية غير مكترثة بما يوجه اليها من نداءات او يصب عليها من استنكارات. بل تمادت فى غيها فزعمت متبجحة ان التفرقة العنصرية امر طبيعى يرتبط بكيانها كحكومة بيضاء ، او على الاصح كحكومة تمثل دكتاتورية اقلية بيضاء واعتبرت هذا الامر من صميم شئونها الداخلية التى لا يجوز ان تتدخل فيها الامم المتحدة ! ولقد وجدت حكومة جنوب افريقيا فى موقف بعض الدول الكبرى ما يشجعها على الاستمرار فى موقفها المتعنت رغم مشاركة هذه الدول فى استنكار سياسة التفرقة العنصرية لمجرد الاستهلاك الخارجى وعلى سبيل المجاراة ! وليس بخاف ان هذه الدول حاولت باكثر من وسيله اسقاط قرار مؤتمر العمل الدولى فى دورة عام ١٩٦١ ، الذى مر بصوت واحد رغم ما حشد ضده من ضغط ومناورات ، ثم مارست نفوذها فى مجلس الادارة ليسوف ويماطل فى تنفيذ القرار كما سبق ان اوضحنا .

ولقد حدث عقب اعلان قرارات مؤتمر وزراء العمل الافريقيين ان اعلن نائب وزير خارجية احدى هذه الدول انه لا يمكن عمليا اقصاء جمهورية جنوب افريقيا من عضوية منظمة العمل الدولية مالم يتم اقصاؤها اولا من الامم المتحدة . وواضح ان نائب وزير الخارجية المذكور انما كان يمهد للتسويف استناد الى تحفظ السكرتير العام للامم المتحدة بوجوب تجنب المواقف المنفردة او المتعارضة فى عائلة الامم المتحدة والى توكيد مجلس ادارة مكتب العمل الدولى لهذا التحفظ . وهذا ما اخذه وزراء العمل الافريقيون فى الاعتبار عندما ضمنوا مشروع القرار الذى اعدوه (بغرض ايقاف عضوية جنوب افريقيا فى منظمة العمل الدولية الى حين البت فى امر هذه العضوية نهائيا) فقرة تؤكد فى ديباجة المشروع ان مبادءة منظمة العمل الدولية باتخاذ الموقف الحاسم ضد جنوب افريقيا لا يعنى الاخلال بمبدا التعاون مع الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة فى هذا الشان ، حيث نصت الفقرة المذكورة : « مع عدم الاخلال بمبدا التعاون وتنسيق الجهود بين الاجهزة السياسية والوكالات المتخصصة للامم المتحدة التى ثبت فيها جميعا ان بقاء جنوب افريقيا غير مرغوب فيه كلية .. فان مثل هذا التعاون لا يمنع منظمة العمل الدولية فى مجال اختصاصها ، من ان تكون لها المبادءة فى وقف جنوب افريقيا من عضويتها الى حين تسوية مشكلة هذه العضوية نهائيا » . هذا كما اعد مؤتمر وزراء العمل الافريقيين دراسة مفصلة بالاحكام التفرقية فى القوانين الخاصة بشئون العمل والعمال وبالنقابات العمالية فى اتحاد جنوب افريقيا. وقد كانت هذه الدراسة هى الاساس الذى اعتمد عليه مكتب العمل الدولى فى اعداد بيانه الخاص بذلك فيما بعد .

وانها لحقيقة واقعة ان قرارات المؤتمر الثانى لوزراء العمل الافريقيين هى التى عجلت باقصاء جنوب افريقيا من منظمة العمل الدولية . فهى من حيث التوقيت وضعت مجلس الادارة واللجنة الثلاثية الفرعية التى كلفها ببحث المشكلة فى موضع حرج لا يفسح مجالا لتسويف او التمييع، بل يستوجب التصدى لمواجهة المشكلة وحسمها . ولقد اجتمعت اللجنة الفرعية لمجلس الادارة فى يناير ١٩٦٤ ، واستمعت اثناء انعقادها الى اقوال السيد عمر ديارا وزير عمل مالى يومئذ بناء على طلبه وبتفويض من وزراء العمل الافريقيين . كما تولى سيادته ايضا عرض وجهة نظر الدول الافريقية على دورة مجلس الادارة . واستجابت اللجنة لنداء المجموعة الافريقية فاوصت مجلس الادارة بان يناشد مؤتمر العمل الدول فى دورته التالية النظر فى اى طعن يقدم بصفة عاجلة ضد وفد جنوب افريقيا واعطائه اولوية المناقشة عقب افتتاح المؤتمر . وقد وافق مجلس الادارة على تلك التوصية ودعا المدير العام لمكتب العمل الدولى الى احاطة اللجنة التوجيهية للمؤتمر بها لتتخذ الاجراء اللازم فى اليوم الاول لانعقادها . كما اقرت اللجنة الفرعية البرنامج الشامل للقضاء على التفرقة العنصرية الذى اقترحه المدير العام ، وقد تضمن هذا البرنامج فيما تضمن انشاء لجنة دائمة للتفرقة العنصرية اسوة بلجنة الحريات النقابية ولجنة السخرة ، وبذلك اتيح للقرار الذى اتخذه مؤتمر العمل الدولى فى دورة عام ١٩٦٠ ان

يخرج أخيرا الى حيز التنفيذ . كما أقرت اللجنة الفرعية وأقر المجلس مشروع البيان الذى تقرر أن يصدره المؤتمر فى دورته التالية فى يونيو ١٩٦٤ داعيا حكومة جنوب افريقيا الى تعديل تشريعاتها العمالية والاجتماعية بازالة الاحكام التفرقية التى أشار اليها بالتفصيل . وكانت أهم التوصيات التى أصدرتها اللجنة الفرعية واقرها مجلس الادارة المشروع المقدم بشأن تعديل دستور منظمة العمل الدولية باضافة نص جديد يمكن الاستناد اليه لاقصاء حكومة جنوب أفريقيا من عضوية المنظمة . واقترحت صيغة هذا النص كالآتى :

« يجوز للمؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية فى أية دورة يدرج فى جدول أعمالها هذا الموضوع ، أن يوقف عن الاشتراك فى أعمال المؤتمر أية دولة عضو فى منظمة العمل الدولية تكون الامم المتحدة قد دمغتها بأنها تمارس باصرار وبصورة صارخة سياسة التفرقة العنصرية كسياسة معلنة فى تشريعاتها ، وذلك بأغلبية ثلثى أصوات المندوبين الحكوميين اثناء التصويت » ..

ومما هو جدير بالذكر أن حكومة جنوب افريقيا كانت ترقب من بعد توصيات اللجنة الفرعية . كما بعثت بمندوب مراقب لحضور مناقشة هذه التوصيات فى مجلس الادارة خلال دور انعقاده التالى فى فبراير ١٩٦٤ . وتقدم هذا المندوب بمذكرة الى المجلس ضمنها اعتراضات حكومته على هذه التوصيات وهى اعتراضات أقرب الى السفسطة والجدل العقيم ، نذكر منها على سبيل المثال :

أولا — أن الأمر يعد من الشئون الداخلية لاتحاد جنوب افريقيا ومن ثم لا يدخل فى اختصاص منظمة العمل الدولية .

ثانيا — أن سياسة التنمية المنعزلة لقطاعين من السكان فى جنوب افريقيا ظروفهما جد مختلفة لا تستهدف الابقاء على التفرقة العنصرية بل ازالتها مستقبلا .

ثالثا — أن جنوب افريقيا ليست الدولة الوحيدة التى تخالف أحكام دستور المنظمة وحقوق الانسان .

رابعا — أن التصديق على اتفاقيات العمل الدولية مسألة متروكة لحرية اختيار الدولة العضو ولا يمكن من الناحية الدستورية الزامها بالتصديق على اتفاقيات معينة بذاتها . كما أن كثيرا من الدول لا تنفذ بأمانة الاتفاقيات المصدقة عليها كما يبدو ذلك واضحا فى مناقشات لجنة تطبيق الاتفاقيات والتوصيات الدولية للمؤتمر .

وواضح من هذه الاعتراضات أن حكومة جنوب افريقيا لم تكن قد فكرت بعد فى الانسحاب من منظمة العمل الدولية . وانها كانت لا تزال تأمل فى أن تنجح الدول الاستعمارية الغربية — بنفوذها الكبير فى مجلس الادارة — فى احباط هذه التوصيات ، ولكن نتيجة التصويت جاءت على عكس ما توقعت ، حيث أقر المجلس توصيات اللجنة الفرعية بأغلبية ٣٢ صوتا ضد ١٤ مع امتناع ٢ عن التصويت وكانت الدول الاستعمارية الغربية فى المجلس على رأس قائمة المصوتين ضد هذه التوصيات . ونحن نقرر حقيقة واقعة اذا قلنا ان الموقف الاجماعى والصلب من جانب فريق العمال فى المجلس هو الذى حقق هذه النتيجة وقضى على مقاومة جنوب افريقيا نتيجة لذلك فاضطرت الى العدول عن موقف العناد والتحدى وآثرت الانسحاب . خصوصا وأن هذا الموقف جاء مصحوبا ببيانات قوية أصدرتها جميع الاتحادات العمالية الدولية ضد حكومة جنوب افريقيا وطالبت جميعا بطردها من عائلة الأمم المتحدة . وكما عجزت الدول الاستعمارية الغربية المتعاطفة مع جنوب افريقيا وصاحبة النفوذ الاكبر فى مجلس الادارة عن أن توقف التيار العنيف ضدها عند مناقشة موضوع عضويتها فى المجلس ، فانها لم تلبث أن عجزت أيضا عن وقف أو حتى اضعاف هذا التيار فى مؤتمر العمل الدولى فى يونيو ١٩٦٤. فلقد أقر المؤتمر جميع توصيات مجلس الادارة ، داعيا حكومة جنوب افريقيا الى أن تفى وتنفذ التزاماتها باحترام حرية وكرامة جميع البشر بغض النظر عن العنصر ، ولتحقيق ذلك : « الى أن تتخلى بدون ابطاء عن سياستها للتفرقة العنصرية ، والى أن تبطل كذلك جميع الاجراءات التشريعية والادارية وغيرها من الاجراءات التى تعد انتهاكا لمبدأ المساواة ولكرامة الانسان ، وانكارا مباشرا للحقوق الطبيعية لشعوب افريقيا ولحرياتها ، والى أن تضع وتتابع باستمرار سياسة قائمة على تكافؤ الفرص فى الاستخدام والمهنة ، والتسوية فى المعاملة بين الجميع بغض النظر عن العنصر ، وأن تبطل بدون استثناء جميع الاحكام القاضية بحجز بعض المهن لعنصر معين ، أو التى تفرض تمييزا على أساس العنصر فيما يختص بالالتحاق بالتدريب المهنى أو الاستخدام ، وأن تبطل كذلك جميع التشريعات التى تقضى بتوقيع عقوبات جنائية على فسخ عقد العمل ، والتى تجيز استئجار المساجين للعمل فى الزراعة أو فى الصناعة وأية صورة غير مباشرة أو مباشرة للاجبار على العمل . وأن تبطل أيضا التفرقة القانونية على أساس العنصر فيما يختص بحق التنظيم النقابى والمفاوضة الجماعية ، والاحكام المانعة والمقيدة والمفروضة على النقابات المختلطة التى تضم اشخاصا ينتمون لاكثر من عنصر واحد » .

أما برنامج العمل المرفق بتصريح المؤتمر والذى يتعين على المدير العام لمكتب العمل الدولى أن يقدم عنه تقريرا سنويا الى المؤتمر ، فلا يتسع المجال لعرضه بالتفصيل . وهو اذ يدعو حكومة جنوب افريقيا الى اتخاذ خطوات ايجابية لازالة الاوضاع التفرقية ، فانه يبتعد عن الواقع اذا ما فترض امكانية استجابة حكومة جنوب افريقيا لاتخاذ مثل الخطوات . وأعتقد مع تقديرى لهذا البرنامج وما وراءه من نوايا طيبة ، أن حكومة جنوب افريقيا لم تكن

فى واقع الامر فى حاجة الى ان يرسم لها احد مثل هذا البرنامج ، فهى التى وضعت هذه النصوص التفرقية الجائرة فى توانينها ولوائحها المنفذة لها وكانت تعلم بالتاكيد حينما وضعتها وطبقتها انها لا تتفق مع حقوق الانسان والمواثيق الدولية . فالمسالة ليست مسالة تعريفها بما



يجب أن تعرف لتصفية سياسة التفرقة العنصرية ، وانما هى مسالة مواصلة الضغط عليها حتى تقلع عن تنفيذ هذه السياسة المرتبطة اساسا بكيانها الدستورى كدولة ، والتى لا يمكن تصور عدولها عنها الا باتخاذ اجراءات اشد واكثر فاعلية من مجرد رسم مثل هذا المخطط . ومع هذا ، فان مجرد انتقال مؤتمر العمل الدولى من مجال الاستنكار العاطفى الى مجال التخطيط والتفكير فى الاجراءات العملية الواجب اتخاذها لتصفية سياسة التفرقة لعنصرية فى جنوب فريقيا ، انما يفتح الباب لاتخاذ تدابير اشد واقوى بالتعاون مع الحكومات ومنظمات العمال فى سائر انحاء العالم . ولم يكن من المستطاع فى هذه المرحلة بالطبع تضمين مثل هذه التدابير فى البرنامج ، والا لما اقر المؤتمر التصريح والبرنامج باجماع الآراء . وقد كان الاجماع فى حد ذاته هدفا حرصت الدول الافريقية على تحقيقه بقدر حرصها على اقرار مخطط اقوى .

وانه لما يزيد من خطورة الموقف ، ويضعف من فاعلية الاجراء الذى اتخذته منظمة العمل الدولية ، عجز الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة عن تصحيح الاوضاع العنصرية البشعة فى جنوب افريقيا وبقاء هذه الدولة العنصرية الفاشستية حتى الآن فى عضوية الامم المتحدة ، بل وتحديها فى موضوع جنوب غرب افريقيا . فضلا عن استمرار مساندة بعض الدول الكبرى لها بمدها بالسلاح والتوسع فى التعامل الاقتصادى معها. الامر الذى شجع على قيام دولة عنصرية اخرى مجاورة فى روديسيا التى اعلنت استقلالها من جانب واحد لتمارس الحكم العنصرى الفاشستى متحدية الرأى العام الدولى هى الأخرى . وقد ثبت فى ضوء التجربة الواقعية أن العقوبات الاقتصادية التى تفرض على دولة كروديسيا او كجنوب افريقيا ، لايمكن أن تحقق اية نتيجة ايجابية طالما هى لا تنفذ بصورة جدية، وطالما تتراخى الدول الغربية الكبرى فى تنفيذها . وتؤلف الآن جنوب افريقيا وروديسيا والبورتغال جبهة فاشستية داخل القارة الافريقية تعاون بعضها بعضا وتحظى بمساندة الدول الاستعمارية الكبرى فى السروالعلن ، وسواء بطريق مباشر أم غير مباشر . واذ كانت السلطات الاستعمارية البرتغالية تحرص، على عدم الظهور بمظهر المطبق لسياسة معلنة للتفرقة العنصرية ، الا انها تعامل السكان الوطنيين فى انجولا وموزمبيق اسوء معاملة ، وكمواطنين من درجة أدنى ، كما هو المتبع فى اسرائيل بالنسبة للعرب . ومن أبشع مظاهر سوء المعاملة تسخير العمال الوطنيين ليس فى داخل الأراضى الواقعة تحت براثن الاستعمار البورتغالى فحسب ، بل وترحيلهم اجباريا للعمل كمسخرين فى مزارع ومناجم جنوب افريقيا فى مواسم معينة من السنة ، وقد ادينت حكومة البورتغال باقتراف جريمة التسخير وباغتيال حقوق الانسان الأساسية . الامر الذى لا يتسع مجال هذا المقال لبحثه وقد نعود الى تناوله بالتفصيل فى فرصة اخرى .



العنصرية وأثرها فى الأدب الأفريقى

علي شلش



١ ـ مقدمة

العنصرية Racialism Racism هى فى أبسط القواميس الفلسفية « نظرية رجعية تبرر عدم المساواة الاجتماعية ، والاستغلال ، والحروب ، على أساس أن الناس ينتمون لأجناس مختلفة ٠ ويكمن عجز العنصرية فى أنها تنحط بالطبائع الاجتماعية البشرية الى مستوى سماتها العنصرية والبيولوجية ، وتقسم الأجناس بطريقة تحكمية الى أجناس « أعلى » وأجناس « أحط » ٠ وقد كانت العنصرية فى ألمانيا النازية هى النظرية الرسمية التى استخدمت فى تبرير الحروب العدوانية والابادة الجماعية٠وقد تعرضت العنصرية للدحض والتفنيد بشكل مقنع بسبب التطور

السريع للشعوب التى كانت متخلفة فيما مضى ، ولا سيما فى البلدان الاشتراكية ، وكذلك بسبب عدم وجود العداء العنصرى عند هذه الشعوب »

ومن الثابت تاريخيا ان العنصرية بهذا المعنى قديمة جدا ، وأن أغراضها قد ظهرت بدرجات متفاوتة فى أقدم الحضارات ، وفى أقدم الفلسفات على السواء · ويكفينا هنا أن نشير الى ما تواتر من آراء لأفلاطون وأرسطو فى التمييز بين العبيد والأحرار ، وأن نشير الى تغلغل الأفكار العنصرية فى الحضارات والفلسفات التالية وما نجم عنها من هزات وقلاقل اجتماعية · واذا كانت الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ قد احتضنت أفكار فلاسفة استنارة (ديدرو ، روسو ، فولتير) ، ورفعت شعار « الحرية والاخاء والمساواة » ، فان هذا لم يدم طويلا ، فقد نمت البورجوازية الاوربية بسرعة كبيرة ، وتراكمت رءوس الأموال ، وبدأت تتركز فى أيد قليلة ، ثم أعلنت الرغبة فى التوسع عن نفسها ، وصارت عقيدة لما عرف فى أواخر القرن التاسع عشر باسم «الامبريالية» ، تلك الكلمة التى لم يكن لها وجود فى لغة كالانجليزية قبل عام ١٨٨١ ، وان كان ما تعنيه موجودا من قديم ·

وطوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر سار أوربا الغربية ، بوجه خاص ، نقاش طويل وعلنى ، فى البرلمانات وخارجها ، وفى المؤلفات والثرثرات ، حول مسائل العصر الأساسية ، وعلى رأسها تلك المسألة المستحدثة ، مسألة الامبريالية · وكان الرأى السائد طوال ذلك النقاش هو رأى من فى أيديهم السلطة ومقاليد الأمور ، ويتلخص فى المضى فى التوسع وتحقيق الامبراطوريات التى عجز عن تحقيقها الأجداد · وكان قد ظهر فى تلك الأثناء كتاب خطير قيض له أن يحدث آثارا هامة فى العقلية الأوربية بوجه عام ، وهو كتاب : « **فى اصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى** » الذى ألفه **تشارلز دارون** ونشره فى انجلترا عام ١٨٥٩ ·

ومع أن الكتاب كان بحثا فى البيولوجيا أو التاريخ الطبيعى كما كان يسمى فى ذلك الوقت ، الا أنه أحدث آثارا كبيرة وهامة خارج مجال البيولوجيا والتاريخ الطبيعى نفسه · بل ان مؤلفه عاش حتى رأى أفكاره ونظرياته نهبا للتوسع والتفسير والتضخيم وخاصة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ·

وتقوم أفكار دارون ونظرياته على ثلاثة أسس صاغها هو نفسه فى عبارات مشهورة هى : « الصراع من أجل البقاء » ، « البقاء للأصلح » ، « الارتقاء عن طريق الانتخاب الطبيعى » · ولكن الخطير فى هذه العبارات هو ما جرى عليها من تأويل خارج مجالها الأصلى · فكأنما قد ظهرت فى الوقت المناسب ، وكأنما اشتداد الجدل حول التوسع الخارجى كان ينتظر عونا يقيم أركان فلسفته · فسرعان ما تناول المفكرون الاجتماعيون والسياسيون والاقتصاديون هذه الأفكار والنظريات ، وسرعان ما نشأ حولها شىء يشبه العلم سمى وقتذاك باسم «الداروينية الاجتماعية» · وكانت الفكرة الرئيسية التى أخذها أصحاب هذا الشىء الشبيه بالعلم من أستاذهم هى فكرة المنافسة · فقد قال هؤلاء ان البشر بدورهم يساهمون فى الصراع من أجل البقاء ، ويصارعون الأنواع الأخرى ، وهم قد فازوا فى هذا الصراع بفضل العلم والتكنولوجيا ·

وكان أكثر أهمية لدى هؤلاء الداروينيين الاجتماعيين هو الصراع من أجل البقاء على المستوى الفردى · فقد فسره معظمهم بأنه صراع من أجل وسائل الحياة ـ أى من أجل المال !

وهكذا تمخض عن الداروينية الاجتماعية ما نسميه « العنصرية » بالمفهوم العصرى · فقد انتقل الصراع من أجل البقاء من المستوى الفردى الى مستوى الجماعة ، سواء كانت هذه الجماعة قبيلة أو بلدا أو أمة أو دولة ، ثم ارتقى أكثر فانتقل الى مستوى مجموعة أو كتلة الدول أو الشعوب · ثم تمخض هذا الصراع نفسه عن صيغة نهائية هى « **الحرب** » فالمجموعة أو الكتلة ـ ملونة أو صفراء أو بيضاء أو سوداء ـ التى تقهر مجموعة أخرى تكون هى الأصلح للبقاء ، ويكون لها حق تقرير مصير منافستها · ولكن هناك مجموعة بعينها ، هى المجموعة البيضاء ، يجب أن تفوز فى النهاية بفضل ما تتميز به من صفات وخصائص تتدرج من لون البشرة وكثافة الشعر الى الذكاء والثراء · وها هو الامبريالى الانجليزى **سيسيل رودس** يحلم بعالم يسيطر عليه الأنجلو سكسونيون ، ويتوقع لهذا العالم أن يكون أفضل عالم ممكن !

وكان من الطبيعى ، والحال هذه ، أن يزعم هؤلاء الداروينيون الاجتماعيون أن البشرة السوداء هى علامة التأخر الحقيقى ، وأن السود لابد أن ينقرضوا مثلما انقرض الديناصور ، فتلك سنة التطور والارتقاء · فاذا تحقق ذلك ظهر عالم الممتازين والصفوة ، عالم السوبرمان ، وعلى هؤلاء



ت . دارون

الممتازين المصطفين أن يعدوا أنفسهم لهذا اليوم، وأن يتحدوا فى كل مكان فى مواجهة عالم الاغبياء الضعفاء غير الجديرين بالحياة ٠

ومع أن نيتشـــه هـــو الذى روج لعبـــارة « السوبرمان » الا أنه كان يكره دارون ويعتبره « انجليزيا حقيرا » ، ومع هذا أيضـــا فقد روج للعنصرية ، وكان له معجبـون كثيرون جـدا بين أنصاف المتعلمين طوال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ٠

وقد لقيت هذه الداورنية الاجتماعية فى حينها معارضة جادة ، تمثلت حينا فى عدم جواز الأخذ بالصراع من أجل البقاء فى تقييم البشر ، فهـو مبدأ يجوز على الحيـــوان والنبات ولا يجوز على البشر ، وتمثلت حينا آخر فى ان كل جنس مهما كان تقـدمه وتطوره يشارك بنصيب فى بنـــاء المجتمعات البشرية والحضارة ، بل تمثلت حينـا ثالثا فى أن المستعمرات نفسها **لا « تجزى »** ، ولا تعود بالربح على منشئيها ، قدر ما تنفصل ان عاجلا أو آجلا عن الامبراطورية الغـــازية مثلما تنفصـــل الثمرة عن الشـــجرة فور اكتمـال نضوجها ٠

لقد وجدت العنصرية فى الدارونية سندا كبيرا اذ ، وجدته مصادفة واصطنعته اصطناعا على غير ما أراد دارون نفسه ، وعلى غير ما ظهرت آراؤه ونظرياته ٠

٢ ـ تطبيقات :

ولو أننا حاولنا اليوم أن نراجع أثر العنصرية فى الأدب فلا شك أن المهمة ستكون جد عسيرة ، لالنقص المادة ، وانما لاتساعها ووفرتها الشديدة فتـــاريخ الامبريالية الحـديثة ، أى التوســـع الاستعمارى المصحوب بالاحتكار والاستيطان ، هو نفسه العنصرية ٠ واذا كان الأدب هو مرآة عصره، فلا شك أنه قد عكس على صفحته شتى مظاهر هذه العنصرية ٠ ولكننا سنحاول هنا أن ننظر الى هذه الصفحة فى أضيق الحدود ، من خـلال الأدب الأفريقى جنوب الصحراء الكبرى ، حيث لعبت الامبريالية دورها بمنتهى الحرية ، وحيث لعب اللون دوره بوضـــوح شديد فى مأســاة الانسان الأفريقى فى تلك المناطق الشاسعة التى تحرر معظمها فى السنوات الأخيرة ٠

والحق أن دراســـة أثر العنصرية فى الأدب الأفريقى لا تكمل دون دراسة أثرها فى أدب دعاتها ورسلها أنفســهم ٠ وهنا أيضـــا نواجه اتساعا فى المادة ووفرة شديدة ٠ ولكن حســبنا فى هذا المقام أن نتوقف قليلا عند نموذج واحـد يعد من أبلغ الأمثلة على وطأة العنصرية واشتداد ساعدها فى أعقـــاب الدارونيـــة ، ونعنى بهـذا النموذج قصيدة « **عبء الرجل الأبيض** » للشاعر الانجليزى **ريدارد كبلنج** (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) الذى أهلته قصـــيدته هـــذه للفوز بلقب « **شـــاعر الامبراطورية** » ، وربما للفوز بجائزة نوبل التى حصل عليها عام ١٩٠٧ !

يقول كبلنج فى قصيدته الطويلة هذه :

تبن عبء الرجل الأبيض ـ

أرسل أجود نسلك ـ

عد أولادك بالمنفى

كيما يلبوا حاجة مأسوريك ،

كيما يلبثوا فى عدة حرب ثقيلة ،

فوق قوم هائجين ومتوحشين ــ
فأسراك الجدد أقوام عنيدة ،
نصفها شيطان ونصفها الآخر طفل .

***

تبنَ عبء الرجل الابيض
فى صبر كيما تبقى وتنبت

***

وتستمر القصيدة بعد ذلك بتكرار الدعوة لتبنى عبء الرجل الأبيض ، وتكرار العزف على نغمة التفوق الأبيض وتخلف الملونين ، وهى نغمة أفسدت القصيدة كلها بالخطابة والمباشرة وحرمتها من أبسط مقومات الشعر الجيد كما يلمسها قارىء كبلنج فى قصيدته المشهورة « لو » على الأقل !

هنا يبدو عبء الرجل الأبيض صريحا ، فهو عبء أهلته لحمله أسباب تفوقه الطبيعى ، ولكنه عبء واجب الأداء ، لأنه واجب وطنى ، يجب ألا يقف فى سبيله أى عائق . وكأن كبلنج يعبر من ناحية أخرى هنا عن آراء مالتوس فى زيادة السكان وضرورة حلها بالحروب أو المجاعات أو الأوبئة ، وهى آراء ارتبطت بالداروِنية الاجتماعية فيما بعد . اذ يقول كبلنج :

تبن عبء الرجل الأبيض ــ
فحروب السلام المتوحشة
تسد فم المجاعات
وتوقف المرض .
وحين يوشك هدفك على أن يتحقق
تكون قد سعيت الى غاية الآخرين ،
فارقب الكسلان والحمق الوثنى
والا قضى على أملك . (١)
وكلمة الكسلان هنا

معناها الحيوان الأورد الذى يعيش فى أشجار الغابات الاستوائية . وقد كتبها الشاعر بالحروف الكبيرة ، لتكون استعارة يعنى بها تلك الاقوام العنيدة الشيطانية التى وصفها فى مطلع قصيدته . والحيوان المذكور معروف بكسله الشديد وغبائه وطفيليته وتعلقه بالأشجار !



فولتير

هذا الموقف الصريح فى عنصريته لايمثله كبلنج وحده ، فما أكثر الأدباء الأوربيين الغربيين ــ انجليز وفرنسيين وألمان ــ الذين صوروا الانسان الأفريقى الاسود فى صورة زريه ، ووصموه بأحط الصفات ، على حين اضفوا على انسانهم الأبيض أعظم الصفات ونسبوا اليه أجل الأعمال !

ومقابل هذا الموقف وقف الأدباء الأفريقيون موقفا مزدوجا اذا صح التعبير . فقد كان عليهم أن يدحضوا الموقف العنصرى من ناحية ، وان يصوروا آثاره الجسيمة فى واقعهم من ناحية أخرى .

أما دحض الموقف العنصرى فقد تمثل فيما عرف باسم الزنوجة . والزنوجة Négritude كلمة دخلت معجم اللغة الفرنسية فى الثلاثينات ، وكان لها دوى كبير فى شعر الأفريقيين الفرنسى بخاصة ، ثم تواترت فى اللغات الأخرى بعد ذلك . سكها فى الأصل **ايميه سيزير** شاعر جزر المارتنيك المشهور ، وأحد ثلاثة مع **ليوبولد سنجور وليون داماس** قادوا حركتها فكرا وشعرا، وجعلوها محورا يدور حوله الأدب الأفريقى المكتوب بالفرنسية طيلة ما يقرب من العقدين ، ومادة للجدل اختلف حولها الكثيرون .

لقد سعت السيطرة الاستعمارية الى استئصال العناصر القومية فى الكيان الأفريقى وطلائه باللون الأبيض · وحين اقبل بعض الافريقيين – ممن واتاهم حظ التعلم – على اتمام تعليمهم فى العواصم الأوربية كباريس ولشبونة اكتشفوا أن الدروس المضيئة فى الحرية والاخاء والمساواة التى درسوها فى الكتب الأوربية ليست سوى عبث بلا طائل · فاذا هم يقعون فى أول مأزق : كيف تكون حرية واخاء ومساواة بين أبيض وأسود ؟ ان هـــذا الا كلام مطبوع على الورق ، ولو أريد له أن يرى النور على أرض الواقع فسبيله هو الواقع الأبيض فحسب !

من هـــذا المأزق التراجيكوميدى ، اذا صح التعبير ، تبدأ حالة مؤلمة من الغربة والنفى ، يعانيها المثقف مبدعا أو غير مبدع ، وتحاصره حصارا مستميتا ، فى اليقظة والحلم · يقول أديب جنوب أفريقيا لويس نكوزى : « ان الوعى الأسود يبدأ بالصدمة التى يواجهها المرء اذ يكتشف أنه ليس أسودا فحسب ، وانما يكتشف أنه ليس أبيضا أيضا » ! ·· نعم ، فالسواد سواد والبياض بياض ولن يلتقيا اذا صحت الاستعارة من كبلنج !

وكان حل هـــذا المأزق عند ثالوث الزنوجة – سيزير وسنجور وداماس – هو أنهم توصلوا بعد جهد عنيف الى ضرورة استعادة وجههم المفقود الذى حاول العنصريون طلاءه وتزييفه · وكانت الاستعادة تعنى التمسك باللون الأسود والأرض الأم ، التمسك بهما الى درجة حب الانسان من خلالهما مبرأ من أى تمييز أو تميز · وفى هـذا يقول سارتر فى تقديمه لمنتخب الشعر الأفريقى الذى أصدره سنجور لزملائه عام ١٩٤٨ ان الزنوجة عنصرية معادية للعنصرية ، وانها تمثل لحظة النفى ورد فعل مركب synthèse التفوق والامتياز الأبيضين ، وانها القضية – الضد antithèse فى تسلسل جدلى يؤدى الى مركب نهائى يتمخض بدوره عن انسانية عامة خالية من العنصرية ·

يقول سيزير فى قصيدته الطويلة « دفتر عودة الى الوطن » :

زنوجتى ليست صخرة ، يهوى صممها
على ضجيج النهار
زنوجتى ليست غشاوة من الماء الآسن
على العين الميتة للأرض
زنوجتى ليست برجا
ولا كاتدرائية
انها تخترق لحم الأرض الأحمر
انها تخترق لحم السماء المتوهج
انها تثقب الاكتئاب المعتم
فى صبرها المستقيم

فى هذه الفترة التى اشتهرت أكثر من القصيدة نفسها نكاد نحس بالزنوجة منطقة حفرها الشاعر لنفسه وخصصها لاقامته واكتساب وجوده الحق والمطلق على الرغم من سيرياليتها الواضحة التى ميزت شعر سيزير الباكر بأسره ·

والزنوجة هنا تصور ، أو مفهوم ، أو نظرة ، أو موقف ، سمها ما شئت قياسا على كون العنصرية نفسها فكرة أو تصوراأو نظرة ، أو موقفا · ولكن العنصرية لم تكتف بأن تكون نظرة أو موقفا · فقد ارتفعت الى مستوى السلوك ، وتجسدت تجسدا ملموسا طوال فترة ازدهارها فى أفريقيا ، وهى لا تزال تتجسد كل يوم فى أجساد القارة التى لم تتلخص منها بعد ، ولاسيما فى أقصى الجنوب ·

الزنوجة رفض لما سمى فى التاريخ الامبريالى للقارة باسم مرحلة التحضير أو التمدين ، وعود الى الماضى البعيد ، الى النبع الصافى للحياة ، يوم كان كل شىء أسودا ، بسيطا · يقول داماس:

أعيدوا الى عرائسى السوداء
لألعب الألعاب الساذجة لغرائزى ،



ج ج · روسو

لأستريح فى ظل شرائعها ،
لأستعد شجاعتى ،
جسارتى
لأحس بأن نفسى هى نفسى ٠

وسنجور أيضا فى شعره دائم التغنى بأفريقيا وكل ما هو أفريقى واسود :

أيتها المرأة العاريه ،
أيتها المرأة السوداء ،
المتدثرة بلونك
الذى هو الحياة ٠
فى اطار جمالك
شببت وكبرت فى ظلك
وأعمتنى
حلاوة يديك
هنا فى قلب الصيف
ورائعة النهار
أجد الارض الموعودة ٠

***

واذا تركنا الشعر الى النثر لوجدنا أثر الزنوجة واضحا فى القصة والروايه ، ففى روايه « **الأفريقى** » التى ترجمت مؤخرا الى العربية ، نجد مؤلفها **وليم كونثون** دائم الاعلان عن الاسلوب الأفريقى فى الحياة ، ودائم الاكتشاف للقارة وشخصيتها ٠ وفى رواية « **نظرة على الملك** » التى **كتبها كامارا لاى** بالفرنسية نجد بطلها الشحاذ شديد الاعتداد بمقومات أفريقيته ، محتقرا للبيض ، مقللا من شأن أعمالهم !

وأما تصوير آثار الموقف العنصرى فى الواقع الأفريقى فقد كان يكشف دائما ، ويتسع لكل صغيرة وكبيرة ، ابتداء من السخرة فى العمل الى حب البيضاوات يصور شاعر جنوب أفريقيا مازيسى كونينة أطفال بلاده الذين يموتون على مرأى ومسمع من مستعمريهم فيقول :

أطفال ، أطفال ، وآخرون يتحللون
آخرون يسقطون على الأرض
يتعثرون بجثث صلبة
وصدى الضجيج والضحك والصراخ
يرن على السحب

***

ويقول الشاعر الكينى جوزيف كاريوكى فى حبيبة بيضاء

تعالى يا حبيبتى ، من الشوارع
التى تنقسم فيها العيون القاسية
وتعكس فيها واجهات المحلات
ما بيننا من اختلاف

وعندما يزداد السخط والألم ازاء عنصرية البيض يبدا الشاعر الأفريقى فى كراهيتهم ، والكراهيه انفعال سلبى ، ثم تتطور الكراهية فتصير تمردا وثورة عليهم ٠ يقول ليون داماس:

ازدهرت كراهيتى على هامش الثقافة
هامش النظريات ، هامش الهراء
الذى حشونى به منذ ميلادى
حتى صار كل ما فى يطمح الى أن يكون زنجيا
فى الوقت الذى ينهبون فيه افريقيتى ٠

وفى الرواية والقصة تفصل العنصريه تفصيلا٠ وهذا **رينيه ماران** يصور محنة الزنجى فى ظل العنصرية على لسان بطل روايته « **جوما ، كلب الغابة** » فيقول :

« ان كون الانسان زنجيا لهو صنعة تأتى فى ذيل الصنائع ٠ وهو ليس صنعة ، بل عبودية ٠ فهل هزأ السود بلون الأبيض ؟ هل ازدروا عادات الأبيض ؟ كلا بلا شك ٠ فالأسود كان أسودا ، والأبيض كان أبيضا ٠٠ » ٠

« غير أن البيض كانوا يهزأون بالسود بسبب لون بشرتهم ٠ وبسبب سوادهم كانوا محط تقريع وكراهية ٠ وكان الأفضل للمرء أن يكون أحقر كلب فى الغابة ٠٠٠ ومع أن البيض يزعمون بان الزنوج يشبهون القردة الا أنهم يتركون القردة فى سلام ٠٠

« أما بالنسبة للزنجى ٠٠٠ أكان ثمة طرق تشق ؟ كان على الزنوج أن يشقوها ٠ أكان التجار يحتاجون الى مطاط ؟ كان على الزنوج أن يوفروه ٠٠٠ أكانت الخزائن ، خزائن الحكومة النهمة ، تحتاج الى مال ؟ كان على الزنوج أن يدفعوا الضرائب ٠٠٠ الزنوج ، فى كل مكان وزمان ٠

« لقد كان الزنجى صالحا لأن يسجن ، صالحا لأن تفرض عليه الضرائب ، صالحا لأن يكون دابة نقل » ٠

انها صورة مكثفة تجسد العنصرية كما يشقى بها الانسان الأفريقى ، وهى صورة لا تحتاج الى رتوش أو مزيد من الايضاح ، فضلا عن أنها تلخص العنصرية كموقف نظرى وسلوك عملى ٠

واذا كان الأفريقيون بكفاحهم وعرقهم قد تخلصوا من معظم العنصرية التى وقعت عليهم ، فانهم مطالبون ببذل المزيد من الكفاح والعرق حتى يتخلص مواطنوهم الذين لا يزالون يرزحون تحت نير السيطرة والعنصرية فى أنجولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا ، وحتى يتلقى العالم من أفريقيا لنا أن نسير مع الكتاب لا حذو النعل بالنعل بل ، قبل ٠

***

الصراع العنصرى فى أمريكا

محمد عيسى

«ان كل ماأذكره هو الالم ، الالم الذى لايوصف ولايترجم فى كلمات . انت لاتعرف معنى أن تولد فى بلد أبيض ولونك اسود . اذ سرعان ماتفقد كل أمل فى الخلاص .

«ذلك أن اللون ليس واقعا شخصيا . ولكنه واقع سياسى . وهذه الحقيقة البسيطة يجد العرب شقة بالغة كى يفهمها .

«واليوم يقف الزنوج فى وجه العاصفة ، وفى وسط الفوضى العارمة ، يشاركون فى صنع مصير الامة التى لم تقبلهم قط ، وجاءوا اليها مكبلين بالاصفاد . واذا لم يخطىء السود والبيض معا فى آداء واجبهم الآن تمكنوا من وضع حد للكابوس العنصرى ، أما اذا لم نجرؤ على التغيير اليوم فربما صدقت نبوءة تلك الانشودة التى استمدها العبيد من الانجيل وكانوا يترنمون بها ، وتقول هذه الانشودة :

— لقد أعطى الله نوحا علامة قبل الغرق ، وهى علامة قوس قزح ، ولكن لم يبق هناك ماء ، انها النار فى المرة القادمة» .

تلك هى رؤية الكاتب الزنجى الامريكى «جيمس بالدوين» لمشكلة الزنوج فى أمريكا الذين يعيشون فى كابوس عنصرى فظ ، كابوس لابد من وضع حد له ، بالتفاهم بين البيض والسود ان أمكن ، والا فان النار أى الثورة فى المرة القادمة .

والواقع أن المشكلة العنصرية فى أمريكا تكمن فى أن «الزنجى فى أمريكا ليس مواطنا وانما هو مشكلة» . وقد أكد هذه الحقيقة باحثان امريكيان هما لويس كيليان وتشارلز كريج فى كتابهما . «الازمة العنصرية فى أمريكا» .

وتفسر هذه الحقيقة سر الاضطرابات والثورات العنصرية التى تجتاح امريكا منذ مايربو على ثلاثة قرون ونصف قرن أى منذ عام ١٦١٩ حتى هذه اللحظة .

ومعنى هذا أن الازمات العنصرية التى تهب فجأة على المجتمع الامريكى ، كما أنها لاتصدر عن ملابسات عارضة أو مؤقتة لاتلبث أن تزول بزوال مسبباتها انما هى ، فى الواقع ، أزمات عميقة تمتد جذورها الى اعماق التاريخ الامريكى .. ليس أدل على ذلك من أن الكاتب الامريكى

«جوزيف بوسكن» قد اكد ان العنف ضد الزنوج وغيرهم من الجماعات العرقية يعد جزءا اصيلا من تاريخ العلاقات العرقية للولايات المتحدة» .

التاريخ العنصري

منذ مايزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن خلت ، وطأ عشرون زنجيا جلبوا من افريقيا ارض امريكا لاول مرة. وكان ذلك على وجه التحديد فى عام ١٦١٩ . ثم توالت شحنات العبيد الى امريكا ، عبر الاطلنطى ، عاما بعد عام . بيد ان الرق لم يكن قانونا فى ذلك الحين . وانما بدأ الاعتراف القانونى بالرق كنظام فى عام ١٦٦١ . وقد بدأ تطبيق نظام الرق فى «مستعمرة» فرجينيا . ثم مالبث ان انتشرت القوانين التى تحكم الرق الى المستعمرات الاخرى شمالا وجنوبا . (كانت امريكا خاضعة آنذاك للاحتلال البريطانى) .

ومن ثم ، فقد اطلق عدد من المؤلفين الامريكيين انفسهم على تلك الفترة التى تمتد من ١٦١٩ حتى ١٦٦١ «حقبة الدخول فى العبودية» . وهكذا غدت «العبودية القانونية» امر واقعا . واصبح الزنجى «الحر» ظاهرة غريبة شاذة .

غير انه عندما اندلعت ثورة الاستقلال الامريكى شعر الزنوج بالامل فى ان يحققوا خلاصهم بانتصار الثورة . ولكن الثورة الامريكية تنتصر . وتصدر اعلان الاستقلال وحقوق الانسان «الابيض» . ومن ثم ، لم يجد الزنجى حقوقه فى هذا «الاعلان التاريخى» . ومنذ تلك اللحظات البعيدة بدأت الامة الامريكية تعانى من الازمات العنصرية التى بدأت تكتسح البلاد من حين الى آخر .

وهنا يؤكد الباحثان الامريكيان لويس كيليان وتشارلز جريج أن ولايات الجنوب المعروفة باضطهادها الضارى للزنوج واستثمارها لهم فى حقولها ومزارعها قد اعترضت على توماس جيفرسون عندما حاول ان يضع المشروع الاول لاعلان الاستقلال نصا يدين الملك جورج الثالث ملك بريطانيا لانه شن حربا ضارية ضد الانسانية عندما فرض تجارة الرقيق على المستعمرات الامريكية .

ولم يكن غريبا ، والامر كذلك ، ان يقول المؤرخ الزنجى بنجامين برادلى فى كتابه « التاريخ الاجتماعى للزنوج » :

« ان الجيل الاول من الوجود القومى الامريكى انما يمثل عصور ظلام التاريخ الزنجى . ففى ذلك الجيل عجز الامريكيون عن حل مشكلة وضع الزنجى عندما يحصل على حريته : هل يبعدونه عن المجتمع الامريكى ؟ ام يدمجونه فيه كجزء منه ؟ »

وبالرغم من صدور قرار « تحرير الرق » عام ١٨٦٢ عقب نشوب الحرب الاهلية الامريكية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، الا ان تحرير الزنوج من الرق لم يكن مقدمة منطقية لاندماج الزنوج فى كيان المجتمع الامريكى الابيض . ومن ثم ، فقد اكد الباحث الامريكى « سيلبرمان » : « هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان تحرير العبيد — كما اكد جنر ميردال — لم يرتبط بأى تغيير فى عقلية الرجل الابيض . بل لقد فرض هذا القرار على الجنوب اثر هزيمته فى الحرب الاهلية ، بيد ان الجنوب حارب هذا القرار فكريا وتنظيميا وقانونيا » .

وهنا يقول الكاتب الزنجى « لوماكس » تعليقا على نتائج الحرب الاهلية : « ان الشمال كسب وخسر الحرب ، وان الزنوج خرجوا من المعركة الدامية صفر اليدين » .

ولئن كانت الحرب الاهلية قد تمخضت عن تعديلات دستورية عرفت باسم التعديل ١٣ والتعديل ١٤ والتعديل ١٥ وهى جميعا تحرم الرق والسخرة ، وتنص على مساواة المواطنين الامريكيين امام القانون ، واعطاء حق الاقتراع لجميع المواطنين دون تفرقة بسبب اللون او

الجنس . بيد أن هذه « الحقوق الدستورية » ظلت نصوصا جامدة وعاطلة عن التنفيذ .

وهنا يؤكد جنر ميردال انه بعد مرور عشرين سنة من الحرب الاهلية اكتشفت الزنوج انهم لم يتحرروا وانهم مازالوا فى حياة الجهل والعبودية والتبعية وانهم لم ينتقلوا الى طبقات الملاك ولا يزاولون حرفة أو يعرفون صنعة وانما مصيرهم الموت نتيجة للحاجة والفاقة والمرض .

وفى الواقع يحلل لنا الثائر الزنجى الامريكى ستوكلى كارمايكل حقيقة الحرب الاهلية وبواعثها بطريقة واضحة حين يقول : « لم تشتعل الحرب الاهلية الامريكية من اجل تحرير الزنوج ، وانما قامت الحرب من اجل من الذى يحكم امريكا : الشمال ام الجنوب » ولم تكن قضية الزنوج ذات أهمية كبيرة . وقد اندلعت هذه الحرب سنة ١٨٦١ ، ولكن لنكولن لم يوقع وثيقة تحرير العبيد حتى سنة ١٨٦٣ . وقال لنكولن اكثر من مرة انه اذا ماكان باستطاعته أن ينقذ وحدة امريكا دون أن يحرر العبيد لفعل ، لان مهمته كانت ان يولى عناية للولايات المتحدة وليس للشعب الاسود .

وما يؤكد صدق تحليل كارمايكل هذا لحقيقة الحرب الاهلية الامريكية ان ولايات الشمال (المنتصرة) سرعان ما عقدت تسوية سياسية مع ولايات الجنوب (المهزومة) . وقد حدث ذلك ابان انتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٨٧٦ . وقد تمت هذه التسوية على اساس ان تدعم قيادات الجنوب المرشح الجمهورى للرئاسة مقابل انهاء الوضع العسكرى وانهاء التنظيمات المفروضة على الجنوب وكان ان عادت ولايات الجنوب الى ممارسة اضطهاد الزنوج .

بل لقد ظهر فى تلك الاونة جمعية ارهابية بيضاء هى « الكو كلوكس كلان » التى استهدفت ارهاب الزنوج والتمثيل بهم . وقد اتسع نطاق هذه الجمعية حتى شمل كافة ارجاء الولايات المتحدة الامريكية . وقد صاحب ظهور هذه الجمعية مقترحات « بيضاء » تطالب بتهجير الزنوج الى افريقيا والبحر الكاريبى حتى تصبح امريكا بيضاء لا تشوبها أية بقع ادمية سوداء .

الحلم والكابوس

وهكذا اخذ الاضطهاد العنصرى ضد الزنوج الامريكيين يزداد عنفا وضراوة مع مرور الايام . ولم يقتصر هذا الاضطهاد على ولايات الجنوب ، كما قد يتبادر الى ذهن البعض ، بل انفجر التوتر العنصرى فى ولايات الشمال كذلك ، على نحو ما حدث عام ١٩٠٨ فى مدينة سبرنجفيلد بولاية الينوى .

وقد تمخض هذا التوتر العنصرى الاخير عن ظهور أول منظمة زنجية لقيادة الزنوج والعمل على تحقيق مطالبهم ، وهى « الجمعية الوطنية لتقدم الشعوب الملونة » التى تاسست عام ١٩٠٨ . ثم اعقبها ظهور منظمة زنجية اخرى هى الرابطة المدنية القومية التى تاسست عام ١٩١٠ . وفضلا عن ذلك فقد شهدت تلك الفترة ، أى مطلع القرن العشرين ، بداية ظهور الاسلوبين الاساسيين للحركة الزنجية وهما اسلوب اللاعنف واسلوب العنف .

وقد كان المعبر انذاك عن اسلوب اللاعنف الزعيم الزنجى « بوكر ت . واشنطن » الذى كان يدعو الى الاعتصام بالصبر والايمان بالتطور التدريجى وصولا الى تحقيق مطالب الزنوج . وكان يرى ان الزنوج اذا ما عملوا فى اخلاص وجد ، فان البيض سوف يكافئونهم باعظم الفرص الاقتصادية ، وربما يمنحونهم فى النهاية المساواة الكاملة فى المجتمع الابيض !

وعلى العكس تماما من بوكر واشنطن ، كان الزعيم الزنجى « د . ب دوبوا » يدعو الى الى « العنف » منهاجا لتحقيق مطالب الزنوج العادلة وحقوقهم كان يرى ان الزنوج لن يتسنى لهم الهرب من وضعهم المجحف بقبولهم واذعانهم له . ومن ثم كان دوبوا يقف موقفا ثوريا حين طالب فى ذلك الحين بضرورة تحدى التفرقة العنصرية ، وقصر الزنوج على شغل الاعمال اليدوية التافهة . وقد كان دوبوا هو الروح المحرك للجمعية الوطنية لتقدم الشعوب الملونة خلال مرحلة تكوينها .

وهنا يشير عدد من الدارسين لتاريخ الزنوج فى الولايات المتحدة الى ان دور دوبوا يتمثل فى انه مكن الزنوج ـ عبر رؤيته الثورية تلك ـ الى ان ينهضوا للدفاع عن حقوقهم ضمن نطاق القانون الامريكى .

بيد ان الزنوج لم يستطيعوا تحقيق اية مكاسب اقتصادية او اجتماعية . بل ، لقد زادت حدة مشكلتهم ازاء رفض المجتمع الامريكى الابيض لهم واصراره على عدم الاندماج فى كيانه ، مثلما اندمجت اقليات عرقية اخرى مثل الايرلنديين والبولنديين والايطاليين ، بل واليهود . تلك الاقليات العرقية التى ذابت فى المجتمع الامريكى واخذت مكانتها فيه . ومن ثم بات واضحا للزنوج ان سلم الاندماج فى المجتمع الابيض قد ذوى تماما ، بل لقد تحول « الحلم » الى كابوس عنصرى فظ . ذلك ان القاعدة التى غدت تحكم العلاقات العنصرية فى المجتمع الامريكى هى :

ـ « اذا كنت أبيض اللون فتقدم الى الامام ، واذا كنت ملونا فقف جانبا ، اما اذا كنت اسود اللون فتراجع الى الخلف » .

وتاسيسا على ذلك ، كانت كلما تقدمت امريكا

خطوة تكنولوجية الى الامام ، كلما تراجع الزنوج خطوات اخرى الى الخلف . وهكذا تتفاقم الازمة الاقتصادية والنفسية للزنوج . وقد ازدادت هذه الازمة عندما بدأت امريكا طور الثورة الصناعية الجديدة او ثورة التشغيل الآلى automation فقد هددت هذه الثورة التكنولوجية الهائلة الزنوج أول ما هددت . ذلك أن هذه الثورة لا تستوعب الا العمال المهرة ، اما العمال غير المهرة ، ومعظمهم من الزنوج ، فيطردون من العمل على الفور . فاذا أدركنا ان القاعدة التى تحكم العمل فى المؤسسات الامريكية هى : « الزنجى آخر من يعمل وأول من يطرد من العمل » .. لاصبح واضحا لنا ان الزنوج هم أول ضحايا التطور التكنولوجى الذى يجتاح أمريكا الآن . وقد أشار الى ذلك الكاتب الامريكى « مايكل هارنجتون » عندما قال فى كتابه « أمريكا الاخرى » : ان الزنوج هم أول ضحايا البطالة التى صاحبت التطور التكنولوجى الامريكى » . ومن ثم فقد أصبح الزنجى فى نظر أمريكا القرن العشرين « وجود ليست له ضرورة اجتماعية أو اقتصادية » على حد تعبير جريدة «التايمز» البريطانية .

« ثورة » اللاعنف

وهكذا ، تبدد حلم اندماج الزنوج فى بنيان المجتمع الامريكى ، وأصبح الزنجى هذا « الرجل الخفى » الذى « لا يعرف أحد اسمه » وجودا لا ضرورة له بعد التطور التكنولوجى الهائل .. وهنا زادت ضراوة الاضطهاد العنصرى الابيض ، فكان ان بدأت موجات التوتر العنصرى الاسود تجتاح المجتمع الامريكى من حين الى آخر . ذلك ان الولايات المتحدة قد شهدت طيلة خمسينات هذا القرن توترات عنصرية فى طول البلاد وعرضها . وكان ابرز انفجار عنصرى أسود شهدته الولايات المتحدة هو ذلك الانفجار الذى اندلع عام ١٩٥٥ فى ولاية اتلانتا . فقد قررت الزنوج مقاطعة شركة الاتوبيس لمدة ٢٨١ يوما حتى أفلست الشركة تماما . وقد ابرزت احداث ١٩٥٥ هذه زعامة زنجية جديدة كان لافكارها تأثير واضح على حركة الزنوج طيلة الخمسينات وحتى بداية الستينات ، وهى زعامة « مارتن لوثر كنج » القس المتزن الذى بشر « باللاعنف » (والساتيا جراها) اسلوبا للحصول على الحقوق المدنية للزنوج .

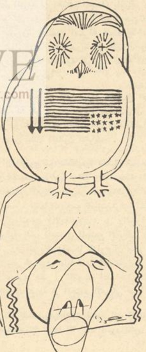
وقد قاد مارتن لوثر كنج عشرات المسيرات الزنجية السلمية بقصد ايقاظ ضمير الرجل الابيض حتى يمنح الحقوق المدنية للزنوج . غير ان هذه المسيرات السلمية كانت تصطدم دائما بجدار صلد من اللامبالاة البيضاء . حتى جاء صيف عام ١٩٦٣ . فقد شهد هذا الصيف الحار ثورة الزنوج فى أمريكا وهى الثورة التى انتشرت فى حوالى الف مدينة أمريكية تقريبا . وتحولت فيها الشوارع المصقولة الهادئة الى معارك طاحنة بين البوليس الابيض والجماهير السوداء .

ولكن لماذا اختار الزنوج صيف عام ١٩٦٣ ليقوموا بالثورة ؟

لقد كان عام ١٩٦٣ هو عام الاحتفال بمرور مائة سنة على اعلان تحرير الزنوج . ولذا فقد قرر الزنوج الذين « نفد صبرهم » الاحتفال بطريقة مثيرة . بالثورة .

وهنا يفسر لنا « مارتن لوثر كنج » فى كتابه (لماذا نفد صبرنا) الاسباب الثلاثة الجوهرية لهذه الثورة ، وهى :

أولا : اليأس القاتل الذى أصاب الزنوج نتيجة للمعدل البطيء الذى يتم به القضاء على التفرقة العنصرية فى المدارس . فعلى الرغم من القرار الذى أصدرته المحكمة العليا عام ١٩٥٤ والذى يقضى بالقضاء على التفرقة العنصرية من المدارس ، الا ان تنفيذ هذا القرار كان يتم ببطء شديد . ففى بداية عام ١٩٦٣ ، أى بعد تسع سنوات



من صدور هذا القرار ، كان عدد التلاميذ الزنوج الملحقين بالمدارس المختلطة فى ولايات الجنوب لا يتعدى ٩ ٪ من مجموع التلاميذ . ومعنى هذا ، كما يقول لوثر كنج ، انه « اذا سارت الامور على هذا المنوال فلن يصبح الاندماج فى مدارس الجنوب حقيقة الا بعد عام ٢٠٥٤ » .

ثانيا : يأس الزنوج المطلق من سياستى الحزبين الامريكيين وهما : الحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى . ففى عام ١٩٦٠ كان الحزب الديمقراطى أثناء حملة انتخابات الرئاسة يعد الزنوج بتحقيق قانون الحقوق المدنية . وكان الحزب الجمهورى يدلى بتصريحات تنطوى على تأييد لحق الزنوج فى اصدار قانون الحقوق المدنيـة . ثم حـل عام ١٩٦١ ، وتلاه عام ١٩٦٢ وشعر الزنوج بان الحكومة لاتقدر مسألة الحقوق المدنية حق قدرها . وأدركوا ، من ثم ، ان السياسة الحزبية فى أمريكا لن تحقق لهم أية مكاسب جوهرية .

ثالثا : ادراك الزنوج التناقض الفاضح الذى يتردى فيه مفهوم الحرية فى أمريكا . ففى حين حادت أمريكا أن تتورط فى حرب نووية أكثر من مرة باسم الدفاع المزعوم عن الحرية فى العالم ، كانت تغتال حرية المواطن الاسود فى الداخل !

بيد أن ثورة ١٩٦٣ ، رغم وضوح أسبابها هـذه ، لم تحقق للزنوج أية مكاسب اقتصادية أو قانونية . ولكن، ما من شك فى ان تأثيرها المعنوى على الزنوج كان عظيما . فمن خلال الحركة الجماعية ضد المجتمع الابيض استعاد الزنجى ذاته التى كاد يطمسها الاضطهاد العنصرى الشرس طوال ما يزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن .

ولكن هذه الحركة الجماعية الزنجيـة كانت تفتقر الى زعامة ثورية ، زعـامة لا تؤمن بالمهـادنة واللاعنف الاخـلاقى ـ « ذلك اللاعنف الذى يجرح دون أن يدمى ويشفى على من يؤمن به مسحة من النبل » على نحو ما كان يؤمن مارتن لوثر كنج زعيم ثورة ١٩٦٣ .

ومن ثم فان جماهير الزنوج الذين تفترسهم العنصرية البيضاء صباح مساء سرعان ما تجاوزوا مثاليات لا عنف مارتن لوثر كنج الى الايمان بالعنف سبيلا لنيل حقوقهم من المستغلين البيض . وكان ان اندلعت فى مدينة لوس انجلوس فى صيف عام ١٩٦٥ ثورة زنجية جماهيرية عارمة . ذلك ان الجمـاهير الســوداء الغاضبـة قد خرجت من « الجتو » من الحوارى « تحرق وتدمر دون أن يكون لها « قيادة » ودون خطة مرسومة » . وأخذ مارتن لوثر كنج يلهث « وراء » هـذه الجماهير مرددا مـواعظ اللاعنف الرقيقة الحالمة التى لم تعرها الجماهير السـوداء آذانا صاغية . وهنا أكد الدارسون لثورة الزنوج فى أمريكا أن ثورة ١٩٦٥ كانت ايذانا بسـقوط القيـادات الزنجيـة المعتدلة . وكانت تعنى أيضا سقوط امكانية المصالحة أو التفاهم مع البيض أجل .. « لم يبق هناك ماء » ولم يعد أمام الزنوج غير « النار » يضرمون بهـا الاحيـاء والمـدن البيضاء .

وهنا يمكن القول أن ثورة الزنوج عام ١٩٦٥ كانت بمثابة المفترق التاريخى على طريق « أسلوب » النضـال الزنجى . فقد شقت هذه الثورة مسارا جديدا لنضال الزنوج . لقد بدأ « العنف » كاسلوب لمقاومة العنصرية البيضاء يتصدر الحركة الزنجية . وبدأ يستقر فى أذهان الزنوج ان العنف هو أسلوب الخلاص الوحيد من ليـل الاضطهاد العنصرى الطويل .

السلطة السوداء

لئن كانت ثـورة الزنوج عام ١٩٦٥ قد أكـدت أن « العنف » هو السبيل الوحيـد للخـلاص من العنصرية البيضاء ، فان أحـداث مسـيرة الزعيم الزنجى جيمس ميريدبث عام ١٩٦٦ ابرزت شعار « السلطة السوداء » كهدف جديد تطمح جماهير الثورة الزنجية الى تحقيقه . ولـكن كيف حدث ذلك ؟ .. فى يونيو ١٩٦٦ نظم الزعيم الزنجى جيمس ميريدبث مسيرة زنجية سلمية تبدأ من مدينة ممفيس حتى جاكسون بولاية الميسيسبى . وكانت تضم حوالى ١٣٠ شخصا . بيد أن أحد العنصريين البيض أطلق على ميريديث ثلاث رصاصات أصابته باصابات بالغة . وهنـا تحول ميريديث ، كما قالت مجلة « التايم » الامريكية ، من شخص الى رمز التف حوله الزنوج . ورغم نقـل ميريديث الى المستشفى ، الا ان المسيرة الزنجية الغاضبة استمرت ، واستقطبت جماهير زنجية متعاظمة بلغ عددها حوالى ١٦ الف شخص . وقد تصدر هذه المسيرة الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج . واستمرت واحد وعشرون يوما قطع الزنوج خلالها ١٣٢ ميلا .

وقد أكدت « مسيرة ميريديث » هذه لاول مرة شعار « السلطة السوداء » . وقد اعترفت بذلك مجلة التايم الامريكية (١٩٦٧/١٢/١) عندما قالت : « لقـد كان الزنوج يتغنون بشعار السلطة السوداء فى مسيرتهم التى اخترقت شوارع ميسيسبى عام ١٩٦٦ . وقد أصـبح هذا الشعار ينطوى على روح جديدة من التحدى »

وهنا ، لعل أبرز ما قدمته حركة السلطة السوداء على صعيد النضال الزنجى فى أمريكا أنها عزلت ـ كمـا تقول تقول « التايم » أيضا ـ حركة الحقوق المدنية التى

كانت تعتمد من البداية اعتمادا كبيرا على استراتيجية البيض وزعامتهم » .

وكان من الطبيعى أن يتصدر حركة السلطة السوداء هذه زعماء جدد ابرزهم ستوكلى كارمايكل وراب براون ورون كارنيجا وفلويد ماكسيك . بيد أن ستوكلى كارمايكل قد استطاع بفكره الثورى ووضوح رؤيته لحركة النضال الزنجى أن يصبح زعيم حركة السلطة السوداء والمعبر عن اهدافها واشواقها .

ولعل دور كارمايكل النضالى يتمثل أساسا فى أنه حاول بوعى ثورى أن يربط حركة الزنوج فى امريكا بحركة التحرر فى العالم كله . وفى اطار هذه الرؤية يؤمن كارمايكل « بالنضال المسلح » وصولا الى السلطة فى امريكا . ومن ناحية اخرى ينظر الى المجتمع الامريكى عبر منظور الاشتراكية العلمية . وهنا تكمن خطورة كارمايكل على المجتمع الامريكى الراسمالى الابيض .

ويعبر كارمايكل عن افكاره هذه خير تعبير حين يقول :

ـ « فى ظروف هذا العالم الراهن نجد انفسنا نحن السود نقف فى صف واحد مع شعوب العالم الثالث لاننا نعتبر انفسنا (او نحن بالفعل) مستعمرات داخل الولايات المتحدة الامريكية ، على حين أن شعوب العالم الثالث عبارة عن مستعمرات خارجها . ومن ثم فان القوة الاستقلالية التى تقهر هذه الشعوب وتستغلها هى نفسها التى تقهرنا وتستغلنا ، فهى تسرق ثروات العالم الثالث كذلك ، وهكذا يمكن القول انه حتى اذا ما اختلفت اهدافنا ومطامحنا وايديولوجيتنا فان عدونا واحد ، والطريق لتحررنا جميعا هو أن نوحد نضالنا ونهزم العدو المشترك وعلينا أن نتحد وننسق فيما بيننا لاننا لا نحارب راسمالية معزولة فى اطار ضيق وانما نحارب الراسمالية العالمية كلها . وطالما أن قوى الامبريالية العالمية قد وحدت نضالها على نطاق العالم ، فعلينا نحن ايضا أن نوسع نضالنا على امتداد العالم الذى يعانى من الاستغلال » .

وانطلاقا من هذا التصور الشامل لعالمية المعركة ضد الامبريالية الامريكية ، كان كارمايكل يرى أن الولايات المتحدة اخطبوط ذو اذرع عديدة ممتدة فى العالم وعينيه فى الداخل . وقد لوت له كوبا ذراعا ، ولوت فيتنام ذراعا اخرى ، اما بقية الاذرع فمازالت طليقة ، وحينما تنفجر الانتفاضات تمد الولايات المتحدة هذه الاذرع الى الخارج، فاذا ما استطعنا أن نجعل شعوبا اخرى تلوى بقية هذه الاذرع فقد يتسنى لنا فى هذه الحالة أن تفقأ عين الاخطبوط الامريكى فى الداخل » .

ولا يريد كارمايكل أن يلحق الهزيمة بالاخطبوط الامريكى لاسباب عنصرية فحسب ، وانما لاسباب انسانية فى المقام الاول : انه يريد أن يحرر العالم من « الطبيعة الاستعمارية » للولايات المتحدة الامريكية .

وقد ظل كارمايكل بافكاره الثورية المتوهجة هذه يعبىء الزنوج فى امريكا من اجل الوصول الى السلطة ، ويمد جسورا نضالية مع حركات التحرر فى العالم الثالث من اجل « تدويل » نضال الزنوج .

غير أن كارمايكل يفاجىء العالم عام ١٩٦٨ بترك امريكا والرحيل الى غينيا للاقامة فيها . وقد ظل رحيل كارمايكل المفاجىء هذا الى افريقيا يشوبه الغموض حتى شهر فبراير الماضى عندما ادلى بحديث الى الصحفى البريطانى « جوناثان بور » المحرر بصحيفة «الجارديان» ، وقد كشف كارمايكل فى هذا الحديث أسباب رحيله الى فيتنام الشمالية ، عندما قال انه قام عام ١٩٦٨ بزيارة لهانوى عاصمة فيتنام الشمالية وهناك قال له المناضل العظيم الراحل هوشي منه :

ـ « مستر كارمايكل .. لم لا تذهب الى افريقيا . ان افريقيا هى المكان الذى يتعين عليك أن تقيم فيه » .
ثم التقى كارمايكل ، بعد ذلك ، بالرئيس الغينى أحمد سيكوتورى وقوامى نكروما ودارت بينهم مناقشات مطولة عن نضال الزنوج فى امريكا . وقد اقتنع كارمايكل بعدها بضرورة الرحيل الى افريقيا والنضال فوق ساحتها السمراء .

وقد أصبح كارمايكل الآن من اشد المؤمنين بحركة الوحدة الافريقية باعتبارها احد الحركات الثورية التى يتعين عليها أن تلوى اذرع الاخطبوط الامريكى وتلحق به الهزيمة . وهو يقول فى ذلك :

ـ « ان حركة الوحدة الافريقية هى التى يتعين عليها قطع اذرع الاخطبوط الامريكى فى افريقيا . ذلك أن هذه الحركة هى التعبير السياسى الناضج عن « القوى السوداء » . فهى تعنى قيام بلد واحد ، وحكومة واحدة ومن ثم ، فان هذه الحكومة الافريقية سوف تدافع عن الافريقيين فى كل مكان ، وحيث يتعرضون للتفرقة العنصرية والاستغلال الاقتصادى » .

ولئن كان كارمايكل قد رحل الى افريقيا ليلوى اذرع الاخطبوط الامريكى هناك ، فان زميله راب براون قد تزعم حركة السلطة السوداء . ثم ظهرت حركة زنجية عنيفة هى حركة الفهود السود .. وهكذا يزداد الصراع العنصرى فى امريكا عنفا وشراسة ..

سوف يخرج هيجل من بين القوسين

مجاهد عبد المنعم مجاهد

ينادى العقل فلا يستجيب له سوى خلصائه. أصفى أصفيائه .. محبوه من محبى الحكمة .. فيبدو أنهم الوحيدون فى عصرنا الراهن الذين ما زالوا يعتبرونه شمسا هادية ، وحتى فلاسفة الوجودية ، اذا ما هاجم بعضهم العقل ، فانهم يلجأون الى العقل نفسه يهاجمونه به .. العقل هو حب الفلاسفة وأملهم .. بيتهم وأفقهم .. وطنهم وعالمهم .. هواؤهم الذى بغيره يموتون . وسط هستريا الحس والحدس واللامعقول والعبث ينادى العقل طالبا الحماية ، فسرعان ما يلبيه حواريوه ربيبو الحكمة .. بل قبل ان ينادى يلبون ..

وها هو صوت من أصوات الحكمة العاقلة يلبى النداء .. صوت من أخلص الاصوات التى ترى فى الفلسفة حارسا للحقيقة يرتفع بالحديث عن هيجل قمة الفكر العقلانى ، وهو يعرف مقدار الصعوبة التى يشق طريقه وسطها وهو يكتب الجزء الاول من «هيجل أو المثالية المطلقة» (مكتبة مصر – ١٩٧١) ويدرك أن مشروعه مخاطرة كبرى قد يعتورها النقص ، ولكنه يهتدى بهيجل القائل «ان أصغر عمل متحقق لهو أكبر قيمة من أجمل فكرة لم تستطيع أن تتجاوز دائرة الامكان فبقيت مجرد مشروع» (ص ١٠) وبهذه اللقطة الوجودية يشرع فى دراسة فيلسوف الفلاسفة مؤمنا بأن «العمل الناقص أهون شرا من الامتناع تماما عن أى عمل !» (ص ١١)

فاذا ما خرج لنا الدكتور زكريا ابراهيم بكتاب جديد عن الفيلسوف الألمانى هيجل فيجب علينا أن نفرح . لقد أشرق عهد جديد لتناول الفلاسفة العقليين الخلص لا الفلاسفة العقليين الممتزجين بالحدس .. كما وضعت طوبة فى سد ينبى ليقاوم التهريج .. وتأسس للعمق درب يكون قدوة للآخرين كى يشقوا لهم دروبا على غراره .. ويزداد فرحنا أكثر أن المؤلف قرأ هيجل فى ضوء غير الضوء الهيجلى نفسه فدخل مع المفكر الألمانى فى حوار الامر الذى يثرينا نحن المفتقدين منذ زمن طويل الى لغة المتحاورين ..

واذا كان الدكتور زكريا ابراهيم قد حدد فى كتابه المنهج الجدلى عند هيجل على أنه « ليس..



هيجل

سوى الشعور بالشكل الذى تتخذه الحركة الباطنية لمضمونه » (ص ١٤٢) ٠٠ واذا كان قد أقدم على هذا الكتاب ف « لم نستطع أن نكبه الا بروح هيجلية ٠٠ ولسنا نعنى بذلك أننا قد اقتصرنا فى هذه الدراسة على متابعة هيجل حذو النعل بالنعل ، بل نحن نعنى أننا سايرنا فى بحثنا طبيعة المنهج الجدلى فكنا (جدليين) فى دراسة صاحب أكبر (فلسفة جدلية)» (ص ١١)٠ واذا كان المؤلف يرى أن « للديالكتيك فعالية فلسفية تتمثل فى القدرة على تمييز العرضى من الجوهرى (أو الضرورى) والانتقال باستمرار من الظاهرى الى الباطنى ، والتصاعد دائما من الأدنى الى الأعلى » (ص ١٥٩) ، أفلا يتوجب علينا أن نتمثل هذه التعاليم ونحن نتناول الكتاب عرضا وتقييما حتى نكون أمناء لهيجل ومؤلفه ؟ ألا يحق لنا أن نسير مع الكتاب لا حذو النعل بالنعل بل نسقط منه بعض التفريعات الثانوية فنكشف الجوهرى فيه ، وننتقل مما هو ظاهرى الى ما هو باطنى ونصاعد من الأدنى الى الأعلى ؟ وألا يحق لنا أن نتبين جدلية المؤلف فى تناوله لفيلسوف الجدل ؟ وبهذا ألا تكون مهمتنا قاصرة فحسب على كشف (الشكل) الذى تتخذه الحركة الباطنية لمضمون الكتاب تمشيا مع تعريف المؤلف نفسه للجدل الهيجلى ؟

يلخص المؤلف مفاتيح الفكر الهيجلى فى عبارة واحدة : « ان الحقيقة – عند هيجل – هى (الكل) والفلسفة – فى رأيه – لابد من أن تتمثل على شكل (نسق) علمى ، والحقيقة الكلية – أو الوجود الواقعى – صيرورة ، وليست الصيرورة هنا سوى عملية (التناقض) مع ما يقترن بها من (سلب) ، والروح نفسها (تاريخ) وأخيرا المطلق (ذات) لا مجرد (موضوع) » (ص ٢٤) ٠٠ وكل هذا من أجل ماذا ؟ ٠ من المؤكد أن هذه الفلسفة ستظل مجرد محاولة لصياغة الوجود بأسره على صورة نسق عقلى متكامل٠ولا غرو ،فقد أخذ هيجل على عاتقه أن يضع كل شىء فى موضعه «داخل ذلك (الكل) المتسق الذى تجمع بين عناصره وحدة عضوية ديناميكية » (ص ١٩) وللفيلسوف مهمة عند هيجل يراها المؤلف فى أنه « لم تعد المهمة الكبرى التى تقع على عاتق

الفيلسوف هى العمل على تغيير العالم أو تعديله ، بل العمل على فهمه والتكيف معه ! » (ص ٢٤) • التكيف مع العالم لا تغييره ! لكن المؤلف يقول : « وسنرى فيما بعد أن القول بحلول (اللامتناهى) فى (المتناهى) انما يمثل فكرة هامة من الأفكار الهيجلية الأساسية » (ص ٦٠) ويعرف المؤلف اللامتناهى عند هيجل بقوله : « اللامتناهى — عنده — باطن فى صميم المتناهى ، فهو لا يزيد عن كونه تلك الحركة التى بمقتضاها يعلو المتناهى على ذاته » (ص ٢٠٤) فلماذا اذن يعلو المتناهى عن ذاته ان كان الهدف هو التكيف مع العالم ؟

ينشأ هيجل فى كنف الدين ، وفى الوقت الذى كان يتناول فيه فى بدء حياته المشكلات الدينية ، كان يتناول أيضا المشكلات السياسية •• فما هى العلاقة بين الاثنين ؟ خاصة وأن المؤلف يفسر جدل هيجل على أنه « منطق علاقة كما هو فى الوقت نفسه منطق حياة » ؟ (ص١٦٧) يقول المؤلف : « ولو أننا ألقينا الآن نظرة عامة على تطور هيجل الروحى حتى نهاية عام ١٨٠٠ لوجدنا أن اهتمام هيجل بالمشكلة الدينية لم يكن فى الحقيقة مجرد اهتمام لاهوتى يدور حول (مشكلة الخلاص) •• وانما كان اهتماما ميتافيزيقيا يدور حول تحديد علاقة المتناهى باللامتناهى » (ص٦٣) •• اذن فان هيجل يبدأ ثوريا لكن مع عام ١٧٩٣ (ويلاحظ أن هيجل كان عمره آنذاك ٢٣ عاما فقط) « وجد نفسه مضطرا الى مراجعة نفسه ومعاودة النظر فى تحمسه للثورة الفرنسية مما جعله ينتقل من فيلسوف ثورى **هدام** الى فيلسوف مصالح محافظ» (التشديد من عندنا) (ص ٣٤) • وعن حقبة ١٨٠٠ ينقل المؤلف عن «نيل» قوله : « أن هيجل يرى انه اذا أراد الفيلسوف لنفسه الا يقع (فى الخطأ) فانه عليه أولا وقبل كل شىء أن يتقبل العالم الحاضر ، لا لكى يبرر الوضع القائم ، وانما لكى يحيل اللحظة المتناهية الى مجلى من مجالى الحقيقة اللامتناهية » (ص ٦٤) •• وهكذا يصبح هيجل ثائرا مرة أخرى ويظل ثائرا فى حقبة كتاب «فينومينولوجيا الروح » الذى نشر عام ١٨٠٦ لكنه ينقلب على ثوريته فى عام ١٨١٧ (عام نشر موسوعة العلوم الفلسفية) ، فينقل المؤلف عن بربيه قوله : « ربما كانت النزعة الأساسية التى تغلب على كل تفكير هيجل — فى هذه الموسوعة — انما هى نزعة (التصالح) التى تريد أن تقضى على شعور النفس بالقلق فى عالم الأشياء » (ص ٨٩) غير أن المؤلف يورد عبارة من المحاضرة الافتتاحية التى ألقاها هيجل عام ١٨١٨ مع تعيينه فى جامعة برلين يقول فيها : « ان الشجاعة فى الحق ، والايمان بقدرة العقل لهما الشرطان الضروريان لقيام الفلسفة ، ولما كان الانسان فى صميمه روحا (أو عقلا) فان فى وسعه بل ومن حقه أن يعد نفسه أهلا لأسمى ما فى الوجود • ولكن مهما فعل الانسان فانه لن يستطيع أن يكون فكرة صحيحة عما ينطوى عليه عقله من عظمة وقدرة • ومع ذلك فانه اذا آمن بسمو عقله فلن يستطيع شىء أن يقف فى وجه هذا الايمان » (٨٩ — ٩٠)

فى عام ١٧٩١ يخرج هيجل مع شلنج ليزرع شجرة الحرية « وقد كانت ألمانيا — فى ذلك الوقت — ضحية للفساد السياسى وسوء الادارة ، والانقسامات الداخلية ، فكان من الطبيعى لمفكر وطنى مثل هيجل أن يشغل نفسه بالتفكير فى حل ناجح لمشكلة بلاده » (ص ٣٨) • وفى الحقبة من ١٧٩٤ الى ١٧٩٩ اهتم هيجل بالحاضر لا لكى يبرره ، غير أن المؤلف يقول بعد هذا مباشرة : « والمتأمل فى الأحداث السياسية التى عاصرها هيجل ابان هذه الفترة قد يجد مبررا لذلك الميل الواضح لديه نحو العمل على التوفيق بين المتناهى واللامتناهى • وآية ذلك أن هيجل قد شاهد فى الفترة من سنة ١٧٩٤ الى سنة ١٧٩٩ استقرارا للنظام البورجوازى فى فرنسا ، فلم يلبث أن أدرك ضرورة التصالح مع الواقع ، بدلا من التمرد على الأوضاع الراهنة » (ص ٦٥) •

واذا كان المؤلف يقول «لم يكن هيجل فيلسوفا انعزاليا أو مجرد أستاذ جامعى منطو على نفسه ، وانما كان أيضا رجلا اجتماعيا يهتم بأحداث السياسة وأخبار المجتمع ، فضلا عن أنه كان انسانا رقيقا مرهف الحساسية مولعا بالفن» (ص ٣٥) فاننا نجده يرجع مصادر فلسفة هيجل لكانت وفيشته وشلنج فقط •• والم تكن لصداقته مع الشاعر

هولدرلين أثر عليـــه ؟ وألم يورد المؤلف بعض اقتباســـات هيجــل من كتابات ديدرو الروائية لا الفلسفية ؟ ألم يتأثر ببعض أبطــال جوته فى اتجاهه الدرامى على نحو ما أورد المؤلف نفسه ؟ ألم يكتب هو الشعر أيضا ؟

وفجأة ينقطع الحديث المفروض أن يكون موصولا بين هيجل الشـــاب وهيجــل صاحب كتـــاب « فينومينولوجيا الروح » بعرض للمنهج الجدلى ٠ والدكتور زكريا يرى أن جوهر الديالكتيك عنــد هيجل هو ادراك الوحدة فى التناقض « ولا غرو فقد تصور هيجل الديالكتيك على غرار هيرقليطس فجعل منه عملية توفيق الأضـــداد فى الفــكر والأشياء على السواء » (ص ١٣٩) وأكد القول بعد هـذا : « الديالكتيك انما يعنى النفــاذ الى (الوحدة) الكامنة فيما وراء التعدد » (ص ١٤٣) (ولنلاحظ أن المؤلف قد وضع خطا تحت الوحدة) ٠٠ ثم راح يؤكد الأمر بعد هذا : « الديالـكتيك عند هيجل ليس الا مجـرد تعبــير عن وحــدة الأضداد » (ص ١٥٥) ٠٠ ولكن عندما نصل الى ص ٤٠٣ نجده يقول : « وهيجل يبرز لنا أهمية (السلب) فقرر أن التعبير عن الذات المطلقة لا يتم الا من خلال ذلك السلب ، بمعنى أنه ليس مجرد (نعم) مطلقة ، بل هو (لا) تواجه بها (لا) أخرى ، وبذلك نتجاوز مرحلة السلب الضرورية» ويدعم هذا الرأى بعــد هذا نقلا عن هيبوليت : « واذا كان قد سبق لهيجل ـ فى بعض مؤلفــاته الفلسفية المبكرة ـ أن قال ان المطلق هو (وحدة الهوية واللاهوية « أو الاختلاف » ، فاننا سنجده الآن يؤكد مرة أخرى أن (الروح) « أو المطلق » ليس مجرد (هوية) فحسب ، بل هو أيضـــــا (تناقض) ، أو هو على الأصح (هــوية الهــوية والتناقض) (ص ٤٥٣) ٠

واذا كان المؤلف يقول : « الشك) هــو لباب خبرة (الجدل) » (ص ٢٣٤) ويقول نقــلا عن هرتمان: « ان الديالكتيك هو هذا التقدم المضطرد للمعرفة البشرية حين تعمد الى تصحيح أخطائهــا يوما بعد يوم ، ملقية أضواء جديدة ـ بفعل هذا التصحيح نفسه ـ لا على الأشياء وحدها بل على ذاتها أيضا » (ص ١٤٦) فانه يعود فيعتبر الجدل مجــــرد وصف : « نحن نوافق كوجيف على أن ديالكتيك هيجل قد اتخذ طابعا وصفيا باعتبــاره تعبيرا عن **(الخبرة)** التى يحصلها الوعى فى ذاته وعن موضوعه (التشديد من عندى) ٠ (ص ١٧٠) الجدل هنــا وصــف آلى مع أنه كان فى ص ١٦٠ « تعبيرا عن النشاط الابداعى للعقل البشرى فى سعيه نحو ملاحقة حركة الأشياء » ٠٠

الجدل جوهره الشك ، ونقــلا عن جارودى : « وواضح من هذا الطابع المميز للشك عند هيجل أن ثمة غائية تكمن وراء الجدل الهيجلى بأسره مادام كل مضمون هو بمثابة سلب أو نفى للكل الأصلى أو اللامتناهى الكلى ٠ وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أن (الكل) هو الدعامة التى يستند اليهـا السلب أو هو الركيزة التى يقوم عليها الواقع ٠ وهذا التصور المثالى للكل بوصفه باطنا فى كل لحظة من لحظات التطور انما هو سمة أساسية من سمات الفكر الهيجلى » (ص ١٨٧) ٠ اذن فليس الجدل ادراكا للوحدة فى التناقض والا لمــا أمكن أن يقول المؤلف ص ٢٣٩ : «الحق أن ما يسميه هيجل باسم (شقاء الوعى) انما هو (التناقض) نفسه باعتباره روح (الجدل) » ؟

غير أن الديالكتيك ليس سوى انعكاس للواقع: « ان ديناميكية التصور عند هيجل انما هى صدى لديناميكيـة الواقــع ، أو بالأحــرى ان الفــكر الديالكتيكى انما هو صورة لديالكتيك الأشـــياء » (ص ١٤٦) ويؤكد المؤلف أن (الديالكتيك عنده (هيجل) قد كان د ئما أبدا قانونا لتطور الوجود وحركة الفكر فى آن واحد » « ص ١٤٧) ولــكن فى ص ١٦٤ نجد أن « الديالكتيك عند هيجــل انما هو عبارة عن العقل الأزلى حين يحقق ذاته فى الفكر البشرى وفى التاريخ بل وفى الطبيعة أيضا ويصبح الجدل مجرد تعشيق وتشبيك المتناهى فى اللامتناهى : « الجدل الهيجلى بأسره هــو مجــرد محاولة لتجاوز هذا الفصل الذى لا مبرر له بين المـاهية اللامتناهية من جهة والوجود المتناهى من جهة أخرى » (ص ٣٧٣) ٠

فماذا يحدث اذا استخدمت الجدل بهذا المفهوم أو بمعنى أدق بهذه المفاهيم العــديدة وطبقته فى دراسة المعرفة مثلا ؟ ما هى الصورة التى ستكون لدينا عن جدل المعرفة عند هيجل ؟ نقلا عن جان فال « يبدو الوعي لنفسه ـ بشكل مباشر ـ وكأنه

الوجه الآخر المضاد لذلك الوجه الذى تحدد على نحوه ! «هذا (الانقلاب) الذى يخضع له الوعى ثم ذلك (الجهد) الذى يبذله فى سبيل تكميل ذاته فى صميم هذا (الانقلاب) نفسه انما يمثلان لباب (العملية الديالكتيكية) التى ينطوى عليها كتاب (الفينومينولوجيا) » (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧)٠ بوضوح شديد يعرض المؤلفرحلة المعرفة الواردة فى كتاب « فينومينولوجيا الروح » وهى رحلة تسير فى مسارين : مسار ترقى النفس من الحس الى الوعى بالذات ومسار ترقى البشرية من العبودية الى الحرية ٠٠ والمؤلف ينفى عن هيجل فهمه للحرية فى اطار وجودى : « حقا ان كوجيف قد تأثر بدراسته الطويلة لكتاب هيجل (فينومينولوجيا الروح) فكان أميل الى تفسير كل ديالكتيك هيجل فى ضوء نظرية (الحرية) عنده باعتبارها (سلبا) ولكن من المؤكد أن هذه النظرية لا تمثل سوى لحظة من لحظات التفكير الهيجلى ، دون أن يكون لها هذا الطابع الحاسم الذى جعل كوجيف يعتبر هيجل (وجوديا) قبل الأوان » (ص ١٧١) ٠٠ ولكننا نجد المسحة الوجودية نقلا عن هيبوليت فى قول المؤلف : «ان (الوجود) الذى تملكه (الحياة) لايمكن أن يكون هو وجود (الجوهر) الثابت المستقر فى ذاته ، بل هو وجود (الذات) التى لا تكف عن الحركة والاغتراب والقلق٠٠ الخ ٠ ومن هنا فقد لانجانب الصواب اذا قلنا ان الحياة عند هيجل هى تلك الحركة التى ترد (الآخر) الى ذاتها ، لكى لا تلبث أن تهتدى الى ذاتها فى ذلك (الآخر) ٠٠ وليست هذه الحركة سوى مجرد تعبير عما فى الوجود نفسه من اختلاف وتعارض وتناقض، وكان هيجل قد شاء أن يتابع الصوفى الألمانى يعقوب بوهمه فى محاولته ادراك (لا) فى الـ (نعم) وادراك الـ(نعم) فى الـ (لا) » (ص ٢٠٨) ٠٠ الوعى يتحرك من الاحساس الى الادراك الحسى الى الوعى بالذات ، والوعى بالذات هو ادراك الكل واستشعاره « واذا كان (الوعى بالذات) هو فى صميمه حركة يتجاوز بمقتضاها (المتناهى) ذاته آملا من وراء ذلك ألا يبقى على ما هو عليه ، وكان (اللامتناهى) هو مجرد (قلق) يعتور (المتناهى) فيدفع به الى العلو على ذاته ! (ص ٢١١) ٠٠ غير أن الوعى بالذات لا يتم الا من خلال العمل٠٠ وعن هيبوليت « العمل هو الواسطة التى يتم من خلالها للوعى الفردى بلوغ مستوى الحقيقة الكلية أو الجوهر الروحى الشامل » (ص ٣٠٢) وعن جارودى يقول المؤلف متسائلا : «فهل يكون معنى هذا أن هيجل لم يرد فى خاتمة المطاف سوى أن يقرر مع جوته أنه (فى البدء كان الفعل) ؟ ٠ هذا ما يرد عليه بعض النقاد بالايجاب ولكن على شرط أن نفهم أن (الفعل) هنا ليس هو الفعل بصفة عامة ، أو الفعل المجرد ، الذى هو فى الحقيقة مجرد فكرة الفعل ٠٠ بل هو الفعل المعين المحدد الذى يقوم به الفرد حين يشارك (من خلال نشاطه الواقعى) فى تطوير (الكلى) أو العمل على ترقيته » (ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨)٠٠اذن فسعى (الأنا) هى أن تصبح (نحن) مغتنية ومستشعرة بالكل، بالتاريخ ، بالبشرية ، باللامتناهى ٠٠ و « سنرى فى خاتمة دراستنا لجدل الفينومينولوجيا كيف أن كلمة الروح (فى هذا الكتاب) لم تكن تعنى سوى خبرة (الروح الموضوعى) حين يستحيل الى (روح مطلق) ٠ واذا كنا قد رأينا فى البداية أن الروح هو (المباشر) الذى يوجد فى ذاته ولذاته ، فسنرى فى النهاية أن الروح سيصبح هو (علم الذات بالذات) ، أعنى «الحقيقة الحية التى تعرف ذاتها بذاتها لآنها قد أصبحت حقيقة ويقينا فى آن واحد» (ص ٣٠٥) ٠٠ فأى شىء تستشعره الذات فى التاريخ ؟ انها تستشعر أن دراما التاريخ كلها ليست سوى علاقة بين السيد والعبد ٠٠ فـ « ليس فى وسعنا أن نتحدث عن الانسان بصفة عامة ، بل لابد من أن نتحدث دائما عن سيد وعبد ، مادامت الحقبة البشرية ـ فيما يرى هيجل ـ لابد من أن تنطوى بالضرورة على عنصر سيادة وعنصر عبودية ، أو موجودات مستقلة وأخرى مفتقرة ٠ وهيجل يمضى الى حد أبعد من ذلك فيقرر أن التاريخ البشرى بأسره هو تاريخ التفاعل الذى يتم بين السيادة والعبودية ، وكان الجدل التاريخى كله ليس الا مجرد جدل السيد

والعبد » (نقلا عن كوجيف) (ص ٢١١) ٠٠ والانسان يستعين بالعقل لكى يتحرر ويخرج من الحيوانية الى الانسانية لتحقيق الوحدة الكامنة خلف الاختلاف » وواضح من هذا التصور الهيجلى لمفهوم (العقل) أننا هنا بازاء نزعة مثالية ترى فى الوظيفة العقلية مجرد أداة للكشف عن الوحدة الكامنة وراء الاختلاف » (ص ٢٥١) فكيف تكون نزعة مثالية والمؤلف يقول « لابد للعقل – فى نظر هيجل – من أن يثرى ذاته بكل ما فى الطبيعة والتاريخ من مضامين حتى يصل الى درجة الوعى الحقيقى بطابعه الكلى (أو الاجتماعى) لا الجزئى (أو الفردى) » ؟ (ص ٢٥٨ – ٢٥٩) ٠ فكيف اذن ينتهى المؤلف وقد انتقلت الروح من الروح الذاتية الى الروح الموضوعية الى الروح المطلقة – كيف ينتهى مع هيبوليت : « ونحن نعرف كيف أن كل مقصد الفلسفة الهيجلية انما ينحصر ٠٠ فى الوصول الى ادراك الحقيقة باعتبارها يقينا ذاتيا » ؟ (ص ٤٢٠) مع أن المؤلف يقول قبل هذا : « والواقع أنه حينما يتسنى للارادة الفردية أن تتسامى بذاتها الى مستوى الارادة العامة ، فانها تصبح عندئذ ارادة (مواطن) لا ارادة (انسان خاص) » ؟ (ص ٣٦١) ٠

فما الذى يا ترى قد فعله المؤلف بهيجل ؟ ٠٠ ألم يقل فى البدء : « سنحاول أن ننصت الى صوت هيجل نفسه واثقين أنه أقدر من هؤلاء جميعا على التعبير عن نفسه ! » (ص ١٤) ؟ فكيف تبرز صورة هيجل على أنه المثالى المادى الوجودى الماركسى الطوباوى الواقعى المتدين الملحد الفردانى الأنثروبولوجى ؟ هل حدثت هذه (الخلطة) (بالرغم من) المؤلف أم (بارادة) المؤلف ؟ وهل فى هذه (الخلطة) ان كانت متعمدة تبدو أصالة المخاطرة التى يقوم بها ؟ ٠

اننا بالمونتاج السابق الذى صنعناه من كتاب الدكتور زكريا ابراهيم انما نستهدف أن يكون مونتاجا جدليا يستبعد العرض ليستكنه الجوهرى باحثا عن (الشكل) الذى هو روح مضمون الكتاب ٠٠ فكيف جاءت النتيجة ؟ لقد تكونت لنا صورة لهيجل حقا لكنها صورة فينومينولوجية ٠٠ ان ما قام به الدكتور زكريا انما هو – ما يمكن أن نسميه – قراءة فينومينولوجية لهيجل ٠٠ لقد وضع المؤلف هيجل الانسان ، الكل ، بين قوسين وتوقف عن اصدار الحكم عليه ، ثم أخذ يشرحه شرائح : هيجل الجدلى ، هيجل الفيلسوف ، هيجل صاحب نظرية المعرفة ، هيجل عالم الجمال ، هيجل فيلسوف التاريخ الخ (على نحو ما سيستكمل الأمر فى الجزء الثانى) ٠٠ وراح يقرأ المؤلفات الهيجلية فى ضوء الفلسفة الفينومينولوجية ، فاستحال الجدل الى خبرة على نحو ما قال نقلا عن هرتمان : « ليس الديالكتيك سوى تلك الحركة المختبرة (أو المعاشة) التى يقوم بها الوعى فى سعيه المستمر نحو التقدم » (ص ١٤٤) وما دام الجدل خبرة فيمكن أن يكون مستمدا من الذات ويمكن أن يكون ادراك الوحدة فى التناقض ويمكن أن يكون ادراك التناقض فى الوحدة ٠٠ لقد قام المؤلف باحالة متبادلة بينه وبين النصوص الهيجلية وقام بوصف ، وصف انفعالى ، فتفتت الكل الذى هو هيجل وأصبح أجزاء فيكون هناك أحيانا تفسير ذاتى لعلاقة الأخ بالأخت من خلال علاقة هيجل نفسه بأخته ويكون هناك تفسير اجتماعى لعلاقة اليد بالفكر ، ويكون هناك تفسير وجودى من حيث اغتراب الذات واستعادتها وقلقها وغربتها ٠ يمكن أن تنفى الصبغة الدينية مرة ويمكن أن تثبت مرة أخرى ٠٠ يسلخ هيجل عن التاريخ حينا ويكون مغمورا حتى النخاع فى مجرى التاريخ أحيانا كثيرة ٠٠ تصبح المعرفة يقينا ذاتيا تارة ، وتكون ذات طابع بيداجوجى تارة أخرى ٠٠ يكون « تعدد المذاهب الفلسفية على مر التاريخ ليس الا مجرد تعبير عن الترقى التدريجى أو التطور المستمر للحقيقة» (ص ١٣٩) وتصطف فى الوقت نفسه فى خط واحد قائمة من الشراح متنافرة ولكنها منظومة بقوة آسرة ساحرة على يد الفينومينولوجيا وهى قائمة تضم هرتمان ودونت وجارودى وهيبوليت وكوجيف ٠٠ والنتيجة ؟ ٠٠ **لا تكون لدينا فحسب قراءة فينومينولوجية**

لهيجل، بل يكون لدينا أيضا هيجل فينومينولوجي. والا فما معنى هذا التكون التصاعدى لصورة هيجل على هذا النحو والتى تترسم خلف الكلمات بشكل ضمنى ثم تتضح فى النهاية فى تعبيرين فريدين دلالة على هـــذا التكون ؟ ففى صفحة ٤٤٥ يقول المؤلف : « وقد سبق لنا أن لاحظنا ـ خلال المراحل المتعاقبة للفينومينولوجيا ـ أن اليقين الذاتى لم يكن يملك التعادل مع الحقيقة الموضوعية . وقـد كان هذا (التناقض) نفسه بمثابة المحرك الأصلى **للديالكتيك الفينومينولوجى**» (التشديد من عندى) وقال فى صفحة ٤٤٦ : « وهكذا جاءت مثالية هيجل المطلقة .. مثالية روحية قـد ترسخت دعائمها فى أعماق الوجود . وهذا ما حدا ببعض الشراح الى القول بأن الفينومينولوجيا بأسرهـا ليست الا (**خبرة ديالكتيكية**) واحدة نتحقق فيها عن طريق التجربة من صحة (الدليل الانطولوجى)» (التشديد من عندى أيضا) . ديالكتيك فينومينولوجى وخبرة ديالكتيكية..!! بين هذين القوسين يوضع هيجل.. لا نعرف بالضبط مراحل ثوريته وكيف يكون ثوريا عندما تشتريه الدولة ورجعيا عنـدما لا يكون عليه ضغط ؟! لا نعرف بالضبط كيف تجتمع السياسة والدين فى نفس واحدة.. لا نعرف بالضبط متى كان متصـالحا ؟ كل ما نعـرفه بالضبط أننا لا نعرف ذلك (الكل) الذى كان هو هيجل والذى كان يسعى اليه دوما لأن الكل ـ كمـا قال المؤلف نفسه ـ هو الحقيقة .. كل ما نعرفه بالضبط أن فيلسوف التاريخ لا يجـد فى الكتاب تاريخه .

ولا شك أن ثراء الحوار بين المؤلف وهيجل ، بين فينومينولوجيا المؤلف وهيجل الفينومينولوجى أرض خصبة لاثراء فكر القراء.. ويمكننا أن نقول مع المؤلف نفسه : « وقد يكون فعـل التحصيل أو الكسب ـ بالنسبة الى الوعى ـ أكثر أهمية مما يتم كسبه أو تحصيله » (ص ٤٥٧) .. وقد يكون الكتاب بما فيه من ثراء وعطاء وبراعة مزج بين المتناقضات لرسم صورة شعورية عن هيجل دافعا لاخراج هيجل من سجن القوسين لرسـم صورة جديدة له ، وذلك بعد أن اغتـرب داخـل القوسين وغرق جدله الاحتمالى فى عبـارات ذات شكل قطعى تمتد فى تكرار من لاشك الى لا غرو . وبما نعرفه عن تمردية هيجل التى لمح المؤلف نفسه بعض سماتها قد يخرج هيجل من القوسين ليملى على أحدنا ذات يوم فلسفة فى اطار هيجلى لا باطار غيره من المذاهب وفى شكل جدلى وهى تتكون والا خانت التاريخ الذى هو لحمها مطبقين على هيجل الانسان المثقف تعريفه هو للثقافة على النحو الذى أورده المؤلف نفسه له : « ليس معنى (الثقافة) عند هيجل أن ينمى الفرد مواهبـــه وقدراته على نحو متسق متكامل ، لكى يحقق لشخصيته ضربا من النضج العضوى ، بل ان معنى (الثقـافة) عنده أن يعارض الفرد ذاته ، وأن ينفصل عن نفسه لكى لا يلبث أن يهتدى الى ذاته من خـلال عملية التمزق أو الانفصال نفسها ! ومعنى هذا أن السمة الأساسية التى تميز مفهوم (الثقافة) عند هيجل هى سمة (التمزق) و (الوساطة) ؟ وهو ما حدا ببعض الشراح الى اقامة تفرقة حادة بين التربيـة الهيجلية من جهة ، وكل من التربيـة الانسانية الكلاسيكية والتربية العقلية التنويرية من جهـة أخرى » (ص ٣٣٩) .. وقد يكون أحدنا هـذا الدكتور زكريا ابراهيم نفسه الذى يستعد لاصدار الجزء الثانى عن هيجل خاصة وأنه قد ذكر ص٤٦٣ أى قبل خاتمة الكتاب بثـلاث صفحات فقط : « الواقع أن (الفينومينولوجيا) ليست مجـرد (نزعة ظاهرية) أو مجرد وصف للخبرة المتناهية بل هى تشتمل أيضا على فلسفة نظرية تتجـاوز نطاق (نظرية المعرفة) .. غير أننا قد نرى هيجل ـ قبل أن يقوم بعملية الاملاء ـ ليقدم الشـكر للدكتور زكريا ابراهيم بكتـابة هـذا عنه الذى تمشى مع نظرته هو القائلة بأن « أصغـر عمـل متحقق لهو أكبر قيمة من أجمل فكرة لم تستطع أن تتجاوز دائرة الامكان فبقيت مجرد مشروع » (ص ١٠) . بل بالفعل سوف نراه يقدم الشكر ولا غرو !

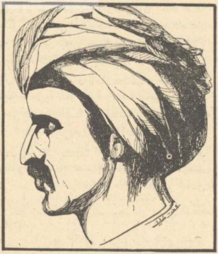
رفاعة رافع الطهطاوى

رائد الفكر المصرى الحديث

سعد عبد العزيز

كان الفكر المصرى فى أواخر العصر المملوكى ، فى حال من الركود والخمول ، والتخلف ، فقد جمدت الحياة الثقافية ، والاجتماعية والسياسية، وتوقف نشاط الناس ، ولم يعد أحد يتشوف الى رؤية تتخطى حدود ذلك المجتمع المغلق المنهار الذى ينأى عن كل مظاهر الرقى والتطور .. ولم يكن الامر يتوقف عند هذا الحد ، وانما جاء الغزو التركى فى عام ١٥١٧ لكى يزيدنا سوءا ، ومواتا .. فرأت مصر أحلك أيامها على يد الحكام العثمانيين ، وخيم عليها ظلام كثيف ، خصوصا ، بعد أن رحل صفوة علمائها ، ومهندسيها ، ومفكريها ، وأدبائها فقد اقتادهم « سليم الأول » معه الى « الاستانة » ، حين رحيله عن مصر .

لقد صارت مصر ولاية عثمانية ، يقيم فيها وال تركى ، له ديوان يشغله موظفون يتحدثون اللغة التركية ، ولا يتخاطبون مع الباب العالى الا بها ، فقد كان من أهداف السياسة العثمانية ، العمل على أن تنسلخ مصر من كل مظاهرها العربية ، فلم يدخر العثمانيون جهدا من أجل



رفاعة رافع الطهطاوى

تحطيم كل ما ينتمى الى التراث الاصيل للثقافة العربية الكلاسيكية ٠

ولئن بقى الأزهر الجامعة الدينية التى تحتفظ بقيمتها ، وتأثيرها فى العالم الاسلامى ، فانه ، مع هذا ، كان يقف متعنتا ، مناهضا لكل حركة من حركات التطوير والتجديد ٠٠ **ولم تكن طريقة تلقى العلوم بالأزهر تبعث على تفتح الأذهان وتفتقها ٠٠ فهى طريقة سمعية آلية ، تقوم على الأذن والذاكرة ٠٠ فالأساتذة يخاطبون فى طلابهم أذنا تسمع الكلمات ، وذاكرة تحفظها ثم تعيدها كما سمعتها ٠٠ فليس من الضرورى أن يفكر الطالب فيما يحفظ ، وأن يمعن النظر فى كل ما يتلقاه ٠٠ وليس من الضرورى أن يهتز وجدانه ، ويتعاطف مع كل ما يترى عليه من صنوف العلم ، فذلك انحراف عن حدود المعرفة الدينية التى ينبغى أن يلتزم بها ، ومن ثم كان** من المحظور أن يتلقى الطالب أى علم جديد ، أو يتنبه الى العلوم الدنيوية ، فذلك يقضى — فى نظر علماء الدين — الى زعزعة العقائد ، وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خير الدنيا والآخرة ٠

وكان المذهب الشائع فى التعاليم الدينية هو مذهب أهل السنة ، الذى لا يعرف فى تفسير القرآن سوى الأخذ بالنص حرفيا دون الالتزام بطريقة أخرى كالاجتهاد ، أو ترجيح العقل كما تفعل المعتزلة مثلا ٠٠ **لهذا كان « أهل السنة » يميلون الى النقل ، ويؤثرونه على العقل فى تفسير الظواهر الانسانية والاجتماعية** — ذلك الكتاب وسع كل شىء فلا ينبغى أن نبحث عن شىء آخر ينظم شئوننا سواه — الأمر الذى جعلهم ينظرون الى الانسان على أنه عبد يجب أن يطيع أوامر الله ، بلا تردد ، أو تفكير ، ويجب أن يرضى « بالمكتوب » ، فذلك قدر محتوم لا مفر منه ٠٠ ولقد كان لهذا التفكير الغيبى ، رد فعل سىء على الناس ، فاستسلم بعضهم «للمقدر والمكتوب» ، وتحايل البعض الآخر ، بالسحر والخرافة والخزعبلات ، لمقاومة مايتعرض له من أذى ومكروه ٠

ومن هنا تقاعس الناس ، واستبد بهم اليأس والقنوط ، فلم يعد فى مقدورهم أن يحطموا ذلك الحصار النفسى الذى أصاب حياتهم بالشلل والجمود ، وبالتالى لم يمنحهم هذا الواقع الآسن المتحجر رؤية جديدة لمجرى الاشياء ، وتخيلها فى صور ديناميكية حية ، فقد كان من المسلم به أن النفوذ الى حقائق الاشياء أمر لا يتأتى الا عن طريق الكشف الروحى الذى يعد وقفا على الانبياء وحدهم ٠٠ فالثقة بقدرة الفرد على الخلق والابتكار انما هى ضرب من المحال ٠٠ فلم يكن فى استطاعته الا أن يكون متلقيا يأخذ عن سابقيه ، وينسج على منوالهم كى لا يتهم بأنه قد خرج عما هو شائع ومألوف ٠

وعلى هذا ، كان التفكير — فى تلك الفترة — يرتكز على قوتين أساسيتين هما : قوة الدين التى توحى بالمعايير والقيم والتصورات ، وقوة الماضى الممثلة فى التراث الذى **تتوارثه الاجيال،جيلا بعد جيل ٠**

لقد تميز الواقع المصرى — فى ضوء هاتين القوتين ، بحركته المتجمدة ، **فقد بقى مرتدا مشدودا الى الخلف ، متمركزا على حالة زمنية واحدة ، هى الماضى الذى اندثر ولم يعد كائنا ٠٠** وكان من نتيجة ذلك **أن صارت رؤيتنا للحاضر** او المستقبل شبه **معدومة ٠٠ مما أدى الى** انعدام الاحساس بالزمن ، **وبالتالى انعدام الاحساس بالتغير والصيرورة ٠**

لكن الحياة فى مصر لم تستمر على هذا النحو طويلا ، فسرعان ما تغير كل شىء على أثر غزو نابليون لمصر ، فقد اهتز المصريون لهذا الغزو بشدة ، وأحسوا بصدمة عنيفة حين اقتحمت الجيوش الفرنسية ديارهم ، فلم يكن هناك بد من أن ينفضوا عنهم غبار الماضى ، ويعدوا أنفسهم لمواجهة أول مظهر من مظاهر التحدى الغربى لهم ٠٠ ومن خلال أحداث الحملة ، **استطاع المصريون أن يتنبهوا الى قوتهم الكامنة حين رفضوا الخضوع للاحتلال فعملوا على مقاومته ، والثورة عليه ٠٠ فلم تنطل عليهم حيل نابليون الذى ادعى أنه مبعوث العناية الالهية ، وانه رجل الأقدار الذى جاء ليخلصهم من بطش المماليك والعثمانيين ٠**

ويهمنا أن نذكر أن الحملة الفرنسية قد أحدثت ردود فعل عميقة فى الواقع المصرى ٠٠ ويبدو

ذلك بوضوح فى مدى التغيير الذى طرأ ، فيما بعد ، على حياتنا الثقـــافية ، والاجتماعيه ، والسياسيه٠٠ **فلأول مرة تصطدم العقلية المصرية الشرقية بالفكر الغربى** الذى يمثل حضارة القرن الثامن عشر ٠٠ فكان من أثر هذا الصـــدام ان تولد تيار الفكر المصرى الحديث الذى تولى ريادته رفاعه رافع الطهطاوى فتحقق على يديه اول لقاء مثمر بين الشرق والغرب ٠

بدأ رفاعة الطهطاوى حياته العلمية ، تلميـــذا بالازهر يتلقى الدرس على أيدى نخبة من الشيوخ والفقهاء كان على رأسهم الشيخ « **حسن العطار** » الذى أولاه عنايه ورعايه خاصه ٠٠ وكان هـــذا الشيخ قد تنبأ بما سيحظى به تلميذه من مكانة عاليه فى تاريخنا الحديث فقد لمس ما يمتاز به من ذكاء مبكر وأحس بما يجيش فى نفسه من آمال ورغبات ٠٠ الأمر الذى جعـــله يفطن الى ان الطهطاوى سوف يكون امتدادا طبيعيا لطموحـــه ورغبته فى التغيير ، والتجديد ، فقد كان دائمـــا يردد على مسمعه ذلك القول : « **ان بلادنا لابد ان تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من العـــلوم ، والمعارف ما ليس فيها** » ٠

ولقد حدث ذلك بالفعل ، فقد حقق **الطهطاوى** كل ماكان يصبو اليه أستـــاذه من اهـــداف ، واستطاع أن يقود ـ دون كلل ـ حركات التحرر والتنوير والاصلاح حتى نهاية الشوط ، وكانه فى ذلك يستوحى كلمات « العطار » ، ويحيلها الى أفعال ثورية ماتزال تؤثر فى مجرى حياتنا الفكرية ، والاجتماعيه ، والسياسية حتى الآن ٠

لم تقف رعـــاية « حسن العطار » للطهطاوى عند مرحلة معينة ، فقد كان يتبناه فى كل مراحله التعليمية ، والوظيفيه ٠٠ ففى بادىء الأمر ، كان يقربه من مجلسه عن أى تلميذ آخر ، وكان يبثه مايحس به من ميل نحو النهوض بالبلاد فكريا واجتماعيا ، وقد راح يعدد له الفوائد التى عادت اليه من خلال احتكاكه بعلماء الحملة ، وكيف أنه تعلم على أيديهم اللغة الفرنسية التى كشفت له عما أحرزوه من آيات التقدم فى العـــــلوم ، والفنون ، والآداب ٠٠ وحين كلف « **محمد على** » الشيخ حسن العطار بأن يختار له واعظا يرافق البعثة المصرية الموفدة الى فرنسا ، لم يتردد فى تزكية الطهطاوى حتى تم اختياره ٠٠ وحين عـــاد الطهطاوى الى مصر حاملا معه أول كتاب ألفه وهو « **تخليص الابريز فى تلخيص باريز** » ، **الذى ضمنه كل خبراته ، ومشاهداته وأفكاره الثورية، لم يسعه الا أن يتوجه به الى أستاذه ، راجيـــا تعضيده بمقدمة للكتاب حتى لا يتعرض ـ حين نشره ـ لهجوم المتزمتين المتعصـــبين** ، فلقى منه ترحيبا كبيرا ، ولم يتردد فى أن يقدم المخطوط الى « محمد على » ، ويقرأ له بعض فصوله ، حتى نال رضاه وأمر أن يترجمه الى اللغة التركية ، وأن تطبع النسختان ـ العربية والتركية فى مطبعه بولاق وأن توزع نســـخ الطبعتين على موظفى الحكومة ٠٠ وبذلك أمكن للطهطاوى أن يحقق أول كسب فكرى وأدبى له ٠ وهكذا نرى كيف كان يقف الشيخ حسن العطار الى جانب تلميذه فى كل المناسبات ٠

كان رفاعة الطهطاوى زاخر النفس بمعـــانى حياة جديدة ، متحفزا لعمل خطير هو اصـــلاح المجتمع المصرى وذلك عن طريق تعليم أبنائه ، وتنوير عقولهم ٠٠ فما ان عاد الى وطنه عـــام ١٨٣١ حتى راح يلقن تلاميذه كل ماتلقـــاه من علوم على أيدى الاساتذة ، والمستشرقين ، وأئمه الحضارة الحديثه ، فاستطاع بذلك أن يخلق منهم أساتذة للأجيال المقبلة ، كما استطاع أن يجعل منهم مترجمين يتولون معـــه نقل ذلك التراث الحضـــارى العـــريق ٠٠ كان يكتب ، ويلقى المحاضرات ، وينشر المجلدات ، ويعـــالج نواحى التربية والاقتصاد والسياسة ، داعيـــا الى هدم الآراء الفاسدة والأفكار المتخلفة ، مستعيضا عنها بالأفكار التى تنبىء بالتقدم والرقى والتحضر ٠٠ ولم يكن يهدف من وراء رغبته فى التغيير ، أن يهون من قيمة تاريخنا أو يعمل على طمس ملامح الشخصية المصرية ، وانما أراد أن يرقى بحياتنا الى مدارك الحضارة الحديثة التى لم نكن نعرفها من قبل ٠٠ ففى الوقت الذى كان يعمل فيه من أجل تطوير حاضر الوطن ، وازدهار مستقبله ، كان لا يفوته أيضا أن يبصر وطنه بروعة ماضيه ، وخلود حضارته ، **ومن هنا كان تفكير الطهطاوى أصدق تعبير عن ذلك اللقاء الذى تمتزج فيه روح الشرق بمقومات الحضارة الغربية ٠٠ فهو رسول تلك الحضارة الذى عاد الينا مبشرا بها ، وهاديا اليها ، وهو أيضا فقيه مستنير من فقهاء الاسلام الذين يتمسكون بشريعته ، ولا يحيـــدون عن صراطها** ٠٠ فلا غرابة اذا رأيناه يؤمن بأن المفكر الثائر لا يمكنه أن يفلت من أسر التراث ، فمهما كان متحررا ، فهو لا يســـتطيع أن يرى عالمه بعيون مجردة من قيد الماضى ، وتأثيره الملح ، فاذا كان هناك صدام مستمر بين قيم الماضى ، وقيم الحاضر ، فذلك لا يحول دون أن يخرج (الجديد) من جوف (القديم) وينبثق « الحديث » من ثنايا

ما هو « تقليدى » ٠٠ لهذا كانت حركة الاصلاح التى دعا اليها «مفكرنا الفذ» تقوم أساسا على انتقاء ما يلائم العصر من عناصر القديم والجديد ٠٠ ومن جلال التمازج بينهما أمكن للطهطاوى أن يفجر ثورته الفكرية التى نقلتنا من عصر الركود العثمانى الى أضواء العصر الحديث ٠ واذا أردنا أن نحيط بكل الخيوط التى يتألف منها نسيج تلك الثورة الفكرية التى أحدثها الطهطاوى فى مجتمعنا المصرى ، **فعلينا أن نرجع الى كتاب (الابريز) الذى ضمنه كل الأفكار والمعتقدات التى آمن بها ، واتخذها نبراسا يهتدى به فى بناء حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية** ٠ ومن هنا كان لابد أن نركز اهتمامنا على مضمون هذا الكتاب لكى نكشف عن جذور الفكر الطهطاوى وكيف امتدت فروعه فى مجرى تاريخنا الحديث ٠

ولعل ما يثير الانتباه ذلك العنوان الذى اختاره المؤلف لكتابه ٠٠ فنلاحظ أن هناك جناسا بين كلمتى (تخليص) و (تلخيص) ، وبين كلمتى (ابريز) ، و (باريز) ٠٠ وذلك يدل على أن الطهطاوى كان لا يزال متأثرا بتقاليد الكتابة المعروفة فى ذلك الوقت ٠٠ وهى تقاليد قوامها الصنعة والتكلف والافتعال ٠٠ فقد كان تزويق اللفظ وتنغيمه من أهم صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال الذى جمد فيه التفكير ، وانعدم الاهتمام بالأفكار ، فكان على الكاتب أن يوجه اهتمامه الى شىء آخر وليكن التلاعب بالالفاظ ٠

ومما يلفت النظر أن الطهطاوى يردد فى هذا الكتاب اسم مصر مرارا وتكرارا ، فهى لا تغيب عنه فى أية لحظة ، فقد كان يذكرها كلما وقعت عينه على صورة رائعة من صور الحضارة الفرنسية ، فلا يسعه الا أن يقرنها بصورة مصر كى يستجلى أوجه الاختلاف بينهما ، **فكان الكتاب** أشبه بسلسلة من المقارنات التى لا تنقطع بين الحياة فى مصر ، والحياة فى باريس ، وبذلك أمكنه أن يستنهض همم المصريين وأن يجعلهم يتشوفون الى حياة أرقى وأفضل ٠

لقد قضى هذا الفتى الصعيدى الازهرى فى باريس خمس سنوات كاملة ،استطاع خلالها أن يمتص كل ما تواتر اليه من مؤثرات حضارية وثقافية ٠٠ وكم أذهله ما يسود المجتمع الفرنسى من حرية ومساواة وعدل ، فهو فى نظره مجتمع ديمقراطى بالدرجة الاولى ٠٠ فالناس فى هذا المجتمع ، سواسية ، أعزاء ، لهم كل الحقوق المشروعة ٠٠ فلا يوجد تمييز بينهم ، ولا يستبد بهم حاكم ، فلا تعرف حياتهم ألما أو سخرة أو اضطهادا ٠

يقول فى صفحة ٤ من كتاب **(الابريز)** : **((فهذا الدستور يملى على الحاكم أن يحكم بالعدل والانصاف ، فذلك من أسباب تعمير الممالك ، وراحة العباد ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران ٠٠ هناك تسود المساواة بين سائر من يوجد فى فرنسا من رفيع ووضيع ٠٠ حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ٠٠ »** ونلاحظ أن الطهطاوى يعمد الى الاستطراد فى حديثه عن مظاهر العدل فى الحياة الفرنسية ، وكأنه يوحى من وراء ذلك بمدى ما تحتاجه مصر من عدل وانصاف يقول : « **ان قلوب الرعية خزائن ملكها ٠ فما أودعه اياها وجده فيها ٠٠ فلا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل** » ثم يستطرد فى هذا الصدد قائلا : « **ان العدل هو المعول عليه فى أصول سياستهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار ، أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار ٠٠ ان سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك ، لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الاحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة** » ٠

وعلى هذا يمكن القول ، **بأن تفكير الطهطاوى كان تفكيرا ديمقراطيا ليبراليا ، ويمكن أن نلمس ذلك من خلال عرضه المستفيض المسهب لصورة الحياة الديمقراطية فى المجتمع الفرنسى** ، وهو يؤكد انتمائه لهذا اللون من التفكير حين يقوم بترجمة « الدستور الفرنسى » لكى يكون نبعا يتدفق بالفكر الديمقراطى الليبرالى فى مصر ٠

ولم تكن صور الحياة فى المجتمع الفرنسى التى اطلع عليها ، هى وحدها التى أوحت اليه بأفكاره الديمقراطية والليبرالية ، وانما كانت له قراءات جادة للمفكرين الفرنسيين فى هذا الصدد ٠٠ فقد تأثر ـ الى حد بعيد ـ بكتابات (مونتسكيو ١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) ، خصوصا كتابه المعروف باسم **(روح القوانين)** ٠ وينعكس تأثير « مونتسكيو » بوضوح فى نظرة الطهطاوى لمفهوم الديمقراطية ، فهى فى نظره لا تعدو

أن تكون شكلا من أشكال الفضيلة ٠٠ والفضيلة هنا ليست لها دلالة أخلاقية أو دينية وانما هى لون من الوان الحب ٠٠ انها حب الوطن ، وحب الارض التى ننتمى اليها وحب المنفعة العامة وايثارها على المنفعة الخاصة ، وحب القوانين العادلة ٠ وعلى هذا ، تصبح الفضيلة هنا ذات معنى سياسى كلى ينطوى على تلك المعانى الجزئية التى ذكرناها سلفا ٠

كذلك يرى الطهطاوى أن المواطن فى ظل الديمقراطية مطالب بالخضوع للقوانين من تلقاء نفسه ، مادام هو الحاكم والرعية فى آن واحد ، ومادام هذا الخضوع الضرورى لبقاء الديمقراطية لا يتحقق الا برضاه ٠٠ أما الحكومة الاستبدادية فهى فى رأيه لا تلتزم بالفضيلة السياسية ، أى أنها لا تأخذ بمبدأ العدل والمساواة ، وانما تقوم على مبدأ ارهاب الشعب واخضاع أفراده للعبوديه ، فحين تنمحى الديمقراطية تنمحى فى أعقابها المساواة ويصبح الحاكم فردا مستبدا ، لا يعرف سوى أساليب الكبت والقهر الارهاب ٠

كذلك يرى « رائد فكرنا » أن « الحرية » انما هى ضرورة ملحة لاستقامة الحياة الديمقراطية ٠٠ والحرية – فى نظره – ليست هى أن يعمل المرء ما يريد ، بل أن (يقدر المرء أن يعمل ما ينبغى عليه أن يريد وألا يكره على عمل مالا ينبغى أن يريد) ، وبالتالى فالحرية هى الحق فى أن يعمل المرء ما تجيزه القوانين « العادلة » ومن هنا يمكن أن نتبين تأثير الثقافة اللاتينية على ذهن رفاعة الطهطاوى ٠٠ فمن خلال التجربة التعليمية التى مارسها فى باريس ، استطاع أن يمتص كل ما كان يترى عليه من مؤثرات المجتمع الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، واستطاع أن يدرك العلاقة الصحيحة التى يجب أن تتحقق بين الحاكم والرعية فقد رأى نموذجا لتلك العلاقة حين ثار الشعب الفرنسى على حكومة الملك « شارل العاشر » فى يوليو سنة ١٨٣٠ فلم يغفل عن تسجيل هذا الحدث فى كتابه (**الابريز**) فراح يعلل أسباب (خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم) فقد ذكر أن الملك قد أمر بالاطاحة بحرية النشر ، وفرض الرقابة على الصحف والمطبوعات، الامر الذى أدى الى احتجاب الصحف واضراب العمال وثورة الشعب على الحكومة ونشوب حرب أهلية ٠٠ ولم يقف هذا المفكر الثائر عند سرده لأحداث الثورة فحسب ، وانما تمادى الى تقييم آثارها ونتائجها ٠٠ ففى الفصل الثالث من كتاب (**الابريز**) رأيناه يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ، وكيف أدى به عناده الى التنازل عن العرش ، ويستطرد الطهطاوى فيذكر كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر ، وكيف حاكمهم ٠ ولقد أثار اعجابه ذلك الاسلوب الساخر الذى استخدمه الفرنسيون فى النيل من ملكهم ، فكانوا يهزأون به عن طريق – الصور الكاريكاتيرية التى كانت تظهر فى الصحف أو تلصق على الجدران ، وكانوا ينشرون فضائحه وجرائمه فى أوراق مطبوعة ٠٠ وذلك كله فى نظر الطهطاوى ، أصدق دليل على مدى ما كانوا ينعمون به من حرية وديمقراطية ٠

وينتقل « **الطهطاوى** » الى قضية أخرى يثيرها فى ثنايا (الابريز) ، وهى قضية التعليم، فنراه يأخذ على الازهر طريقته التقليدية العقيمة فى تنشئة الأجيال ، وكيف أن أساتذته يحصرون اهتمامهم فى دائرة ضيقة لا تتعدى مواد الشريعة، وكيف أدى هذا التضييق الى املاق المدارس المصرية من التعليم الحديث ، وافتقارها الى مسايرة روح التطور والتجديد ٠٠ وذلك ما يتناقض تماما ومناهج التعليم فى فرنسا ٠٠ فهناك يتلقى الطالب – فى بادىء الامر – تحصيلا دراسيا عاما ، ما أن يفرغ منه حتى ينتقل الى مرحلة التخصص فى فرع من فروع العلم ، فيوجه ذهنه الى كل ما يحيط به من أفكار وأبحاث ، ساعيا الى ابتكار تلك الاضافات التى تعمل على اثرائه وتجدده ٠

وكان اعجابه لا حد له بدور الثقافة فى باريس ، فكان يرتاد المكتبات ، ومتاحف النبات والحيوان والجيولوجيا والاكاديميات المختلفة ٠ والكليات المتخصصة ٠٠ فمن خلال ارتياده لتلك الاماكن استطاع أن يلمس مدى التحضر والتقدم الذى أحرزه الفرنسيون فى ذلك الوقت ، الامر الذى جعله يؤكد بأن تحضر الامة يقاس بمقدار ماتكتسبه من أنواع المعارف والآداب والعمران ٠٠ يقول فى صفحة ٧ من كتاب الابريز « من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر

معرفتها ، وبعدها عن حالة الخشونة ، والتوحش والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والاداب التى لا ينكر انسان أنهــا تجلب الانس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتزة بين الامم الافرنجيه بكثرة تعلقها بالفنــون ، والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا ٠٠ » ، وهنا لم يغفل الطهطاوى ذلك الدور الذى قامت به مصر فى تاريخها القديم ، فقد منحت انسانيتها وحضارتها للعالم ، ويرى أنه قد حان الوقت لكى تعيد مصر مجدها وعزها من جديد ٠

ومن الظواهر التى أثارت انتباه الطهطاوى ، ظاهرة الصحافة الفرنسية ، التى تعد فى نظره ، كشفا حضاريا مثيرا فهى تعمل على تسجيل كل ما يطرأ على العالم من صور وأحداث ، فتطلعهم على أوجه الحياة المتغيرة المتجددة ، وتنقل اليهم ما يرد من أخبار سياسية واجتماعية وثقافية ٠٠ يقول الطهطاوى فى هذا الصدد : « **ان الانسان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله ، فى تلك الورقات اليومية المسماة (بالجورنالات) ، جمع (جورنال) ٠٠ فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخل المملــكة أو خارجها ٠٠ انها تتضمن أخبارا تشوق الانسان الى العلم بها ، على أنها ربما تضــمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهـات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ٠٠ ومن فوائدها : أن الانسان اذا فعل فعلا عظيما أو رديئا وكان من الامور المهمة ، كتبه أهل (الجورنال) ليكون معلوما للخاص والعام ، لترغيب صـاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلمته فى هــذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيهــا بحسب القوانين المقررة فيكون مثــل هذا الامر عبرة لمن يعتبر ٠٠ »** ٠

كان رفاعة الطهطاوى يضع نصب عينيه ذلك الهدف الذى راح يناضل من أجله حتى آخــر رمق ، وهو اصلاح المجتمع المصرى ، ونقله من عصر التخلف والركود العثمانى الى مجال الحضارة والرقى ، فقد راعه أن يرى الشعب فى حال من البؤس والجهل والحرمان ، فهــو لم يتحرر من الشقاء فى عهد محمد على ، فقد ظل يعانى من الغبن والقهر وأعمال السـخرة ، فلم يذق طعم الحرية ، ولم يكن له الحق فى ملكية أرضه ، فقــد تملك محمد على كل أراضى مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعيه وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعه، وقد أساء هذا النظام الى الشعب اساءة بالغة ، ذلك لانه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود ٠٠ ولم يغمض الطهطاوى عينيــه عن اغتصاب محمد على لارض المصريين ٠٠ أنظر اليه وهو يوحى بتنديده للحاكم الغاصب من خلال كتابه المترجم : (مواقع الافلاك فى وقائع تليماك) صفحة ٧٢٣ حيث يقـول : « هل الانسان الذى يغصب من الآخر قطعه ارض يكون غاصبا ، ومن يسلب وينهب اقليما كاملا لا يسمى سالبــا ، وناهبا ، فهل الملك يجوز له أن يثق بحــاله ولا يخاف أن يقع فى خطأ جسيم يطلب حقوقا لا اصل لها ، ويحسب أن ذلك هينا ، وهو عند الله عظيم ، فكثيرا ما يترتب على اســتيلاء الملك واغتصابه حقوق الغير مالا يحصى من المفاسد ، والضرر ، فقد يفضى الى الخراب والقحط والقتل والامراض الوبائية ، وفساد الاخلاق وما يعقب ذلك من كل آفة سماوية وبلية أرضية ، وربمــا امتدت الوخامة الى القرون المتتالية ، المتعاقبة » ٠

وأبى الطهطاوى أن يقف عند حد التنــديد والتشهير بهذا النظام الجائر ، وانما رأيناه يحث المصريين على التمرد ، ومقاومة طوفان الظلم الذى يكاد يغمرهم ، فهو يقول فى صـفحة ٦٩٧ من نفس الكتاب : « من ذا الذى يحجز جريان الظلم فى مجراه الواسع ، ويمنع انتشار الجــور ٠٠ لا يحجز هــذا الطوفان الفايض بطغيانه على الاهالى والبلدان غير الخروج عن طاعة هؤلاء الملوك وسلوك سبيل العصيان ٠٠ » ٠

ولئن كان رائد ثورتنا الفكرية قد رفض كل ألوان الظلم والشقاء التى تقع على بلده ، وادان كل حاكم مستبد عاش فى عصره ، فهو ـ مع هذا ـ لم يكتف بذلك ، وانما أراد أن يجسم تلك الصورة المثالية التى طالما داعبت خياله عن الحاكم العادل ٠٠ فهو يقول فى كتاب (مواقع الافلاك) صفحة ٧٠٩ : « من خواص الملك الذى يحســن السياسة والاحكام ، أن يعرف انتخاب الرؤساء العظام للمصالح الجسام ، فالملك اذا عرف انتخاب من فيه صلاحية للأحكام ، فهو ملك مدبر مملكته بأعجب تدبير ، وهو رئيس عظيم وأمير جليل » ، ثم يقول فى صفحة ٧٠٤ « **ان الحــاكم المدبر للاصلاح ، هو خير الناس الفضلاء ، وأكمل أرباب الصلاح ، فمتى أراد الانسان أن يفعل ما تمدح به جميع الأزمان ، فليحرص على السعى فى مثل**

هذه المصالح الخيرية الباقية الذكر على ممر الدهر والأوان ٠٠ » .

وبذلك استطاع الطهطاوى أن يضرب المثل فيما ينبغى على المفكر أن يؤديه نحو بلده ، فلا يصح أن يكون فى معزل عن قضايا وطنه ، وانما ينبغى أن يكون ضميره الحى الذى ينبض بآماله وأمانيه .

واذا كان الطهطاوى يدين بعلمه وثقافته لمصر التى هيأت له الفرصة لكى ينهل من معين الحضارة الحديثة ، فانه لم يفته أن يرد اليها كل ما يدين به من فضل ، فكان أول مفكريها الذين لم يألوا جهدا من أجل تطويرها فكريا وعلميا وحضاريا ٠٠ فلا غرابة اذا رأيناه يؤمن بأن الأمة الواعية المستنيرة انما هى أصلب عودا ، وأشد بأسا من الامة الجاهلة ، ومن هنا ، بدأ نضاله ضد كل ما يعيق مصر عن اضفاء الصبغة الحضارية عليها . ولقد أدرك أن كل مظاهر الحضارة انما هى من نتاج العلم الحديث ، فهى تجسيم رائع لخلاصه كشوفه وأبحاثه ، ومن ثم راح يدعو الى حيـــاة علمية متحررة منفتحة على كل التيـــارات التى تجرى فى العالم المتحضر خصوصا فرنسا ٠٠ وفى هذا الصدد يقول فى كتابه (مناهج الالباب) صفحة ٢٩ : « **العلم هو الحكمة ٠٠ يقول تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ، فالحكمة هنا ترجع الى العلم النافع والافعال الحســـنة الصائبة ٠٠ والعلم ، بهذا المعنى ، يمثل العلوم النظرية والعلمية ، يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها ، فجميع العلوم النافعـــة ، عقليه ونظرية وعملية داخلـــة بهذا المعنى ٠٠ ان العلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وانفع ما اكتسبه الكسب . ان العلوم شريفة ، ولكل علم منهـــا فضيله ، والاحاطة بجميعها أمر محال** » .

لكن « الطهطاوى » كان يعى تماما أن طريق العلم فى بلده ، طريق شاق غير ميسور ، فقد راعه أن يتفشى الجهل بين المصريين بشكل يدعو الى الرثاء ، ولم أحزنه ان ينظر الرجل الى المرأة المصريه الشرقية على أنها ليست جديرة بالتعليم ، ولا تستحق ثقة الرجل وتقديره ٠٠ فما يزال يحتجزها فى البيت وكأنها احـــدى أمتعته ، ويفرض عليها الحجاب وكأنه رمز لعفتها ، وقد فاته أن العفة لا ترتبط بالحجاب بقدر ما ترتبط بالتربية الصحيحة . ولعل ذلك ما دفع الطهطاوى الى أن يؤلف كتابه المعروف : « المرشد الأمين الى تعليم البنات والبنين) حيث صور فيه حـــاجة البلاد الى تثقيف الفتــــاة التى هى بمثابة أم المستقبل ، وما كاد يمضى عام واحد على صـــدور كتابه حتى رأينا أول مدرسة تشيد لاستقبـــال البنات ٠٠ وهـــكذا دأب الطهطاوى على نشر الوعى الثقافى بين المصريين ، فعمـــل على تأليف (**اتحاد الشبيبه المصريه**) الذى أخذ على عاتقـــه الدعوة الى فتح المدارس والتوسع فى التعـــليم الحر ٠٠ ولم يكد الربع الثالث من القرن الماضى يتم دورته حتى كانت « الكتاتيب » التى أغلقها العثمانيون ، تنتشر على نطاق واسع فى القرى حتى بلغ عـــــددها ٥٫٣٧٠ ، وكثرت المدارس الاجنبيه حتى بلغ عددها ٧٠ مدرســـة واقترح الطهطاوى انشاء « مدرسة الألسن » لسد حاجه البلاد من التراجمة ، فعهد اليـــــه بادارتها ، واستطاع خريجوها أن يترجموا ما يقرب من ألف كتاب ، فضلا عن أنه ترجم اثنتى عشرة رساله فى مختلف العلوم والفنون ، كما ترجم بعض قطع من الشعر الفرنسى منها نشيد « **المارسلييز**) . ومن ثم بدأت ينابيع الحياة الفكرية تتفجر فى مصر قويه رائعة ٠٠ ولم يقف جهـــد الطهطاوى فى الترجمه عند هذا الحد ، بل عمد الى مراجعـــــه القواميس العربية وتعريب المصطلحات الاجنبيه ، ومن الغريب أنه تمت على يديه — لأول مرة — ترجمة العلوم البحتة كعلم الهندسة ، والطب ، والفلك ، فنجده هنا يترجم (الميكانيكا) بعلم (الحيل) ، و (التاريخ الطبيعى) بعلم (التولدات أو المواليد الثلاثة) ، والفلك أو الجغرافيا بعلم (الهيئة) ، وعندما قام بترجمة (الدســـــتور الفرنسى) نشـــــطت ذاكرته فى البحث عن مصطلحات من تاريخ النظم الاسلاميه تعـــادل المصطلحات الفرنسيه ، فرأيناه يضـــــع مقابل La loi كلمة (شريعة) ومقابل Le Tresor كلمـــة (بيت المـــال) ، ومقـــابل Public Department (عمالة) .

وبذلك أمكنه أن يحيى التراث العربى ، وأن ينحت منه قوالب التعبير الثقافيه ، والجملية التى تقابل القيم الفكرية الجديدة ، وجدير بالذكر أنه كان يعانى فى ذلك كثيرا ، فاللغة العربية — فى ذلك الوقت — قد تحجرت منـــذ قرون طويله ، وأصبحت عاجزة عن تسمية معطيات الحضـــارة الحديثة ، وقد ضاعف من جهده فى هذا العمل ، اصراره على أن يصوغ ترجمته بطريقـــة التنغيم اللفظى ، فكان يسعى دائما فى ترجماته العربيه الى التوفيق بين الجرس والمعنى فى أن واحـــد ، حتى يتمشى فى ذلك مع الذوق الأدبى الشائع فى مصر .



واذا كان الطهطاوى قد آمن بأن تغيير المجتمع لا يتحقق الا عن طريق تعليم أبنائه ، واطلاعهم على أحدث ما يجرى فى العالم المتحضر من علوم وفنون وآداب ، واذا كان قد اتخذ من (الترجمة) أداة يستعين بها فى حركة التنوير والتثقيف فى بلاده ، فانه مع هذا ، لم يكن ينظر الى الترجمة على أنها تحمل فى جوفها كل الصيد ٠٠ وانما كانت فى نظر عملا ضروريا لمرحلة التمهيد التى تعقبها مرحلة التشييد ٠٠ تلك المرحلة التى يتاح لنا فيها التعبير عن شخصيتنا المصرية التى لا ينبغى أن نطمس ملامحها بدعوى التحضر ، والتعلق بأذيال التراث الثقافى الغربى ومن هنا رأيناه يعمل على احياء حركة التأليف لكى تساير حركة الترجمة فى عملية البناء والتطوير ٠٠ فرغم انبهاره بالثقافة اللاتينية ، الا أن ذلك لم يجعله يتنكر لبيئته المصرية أو يخرج على تقاليدها وعرفها ، فكل ما كان يريده أن ينهل المصريون من معين هذه الثقافة ٠٠ فهى مدد حى يستلهمون منه ما يعنيهم على خلق رؤية جديدة للأشياء ٠٠ وهنا يتصدى للتقليديين ، ويأخذ عليهم تجمدهم وتنكرهم لحركات التغيير والتجديد انظر اليه وهو يقول فى كتاب (مناهج الألباب) صفحة ٤٤١ : « ليس كل مبتدع مذموم ، بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم ، فان الله سبحانه وتعالى جرت عادته بطى الأشياء فى خزائن الأسرار ليتشبث النوع البشرى بعقله وفكره ويخرجها من حيز الخفاء الى حيز الظهور حتى تبلغ الانتشار والاستشهاد فمخترعات هذه الأعصر ، من أعظم ثمرات العقول يرثها على التعاقب الآخر عن الأول ، ويبرزها فى قالب أكمل من السابق ، وأفضل ، فهى نفع صرف لرفاهية العباد وعمارة البلاد » ٠

وعلى هذا ، لم يعتمد الطهطاوى فى ادراكه الثورى على التراث وحده ، بدعوى أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، كما أنه لم يقنع بما يمليه عليه الحاضر من صور وأحداث ، وانما كان يرنو دائما الى المستقبل ، متشوفا الى معرفة جديدة تتخطى حدود الماضى ٠٠ وتعمل على « تحريك » الواقع المصرى ، وتخليصه من أنماطه السلوكية والفكرية التى صارت أشبه بالثوابت المقدسة ٠

وبعد فقد استطاع الطهطاوى أن يخلق فى مصر ثورة حقيقية شاملة ، انها ثورة تنتمى الى الفكر الديمقراطى الليبرالى الذى سيطر – أواخر القرن التاسع عشر – على حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية وقد حمل لواء هذه الثورة فيما بعد ، كل من يعقوب صنوع ، وقاسم أمين ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس محمود العقاد ٠

في ذكرى وفاة
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

عبد الحى محمد قابيل

من سمات العصر الذى نعيش فيه ازدهار الثقافة والحضارة فى الغرب ، ومحاولة البحث عن الحضارات القديمة ، ومن بينها الحضارة الاسلامية ، التى لم تنل بعد كل ماتستحق من عناية . وكان لابد للعلماء والمفكرين العرب أن يسهموا فى ذلك ، وأن يبينوا ما فى الثقافة الاسلامية من أصالة .

وممن أخذوا على عاتقهم حمل هذه الرسالة استاذنا المغفور له الدكتور احمد فؤاد الاهوانى رئيس قسم الدراسات الفلسفية والنفسية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وقد توفى فى الثالث عشر من شهر مارس من العام الماضى ، فكانت وفاته رزءا جسيما وخسارة كبيرة ـ على حد تعبير استاذنا الجليل الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ـ لكل زملائه وطلابه وعارفى فضله من المشتغلين بالفكر العربى والاسلامى .

حياته :

ولد احمد فؤاد الاهوانى بحى الحنفى بالقاهرة فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٨ ، وتعلم فى طفولته بالكتاب وفى صباه بالمدرسة الابتدائية ، وقضى فيها أربع سنوات حتى حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٢١ ، ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية وحصل على البكالوريا سنة ١٩٢٥ ، وهو العام الذى افتتحت فيه الجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة الآن ـ فالتحق بكلية الآداب وحصل ـ مع سبعة من أقرانه حملة لواء الفلسفة ـ على الليسانس سنة ١٩٢٩ .

وكان من بين هؤلاء السبعة الاعلام أستاذنا الراحل المغفور له الدكتور محمد مصطفى حلمى ـ أستاذ التصوف بآداب القاهرة ـ الذى يحدثنا عن تلك الفترة الجامعية التى عاشها مع زملائه ومن بينهم الدكتور الاهوانى ، ويقول :

«فى سنة ١٩٢٥ حولت الجامعة المصرية من جامعة اهلية الى جامعة حكومية وكنا وقتئذ سبعة من الطلاب قد التحقنا بالسنة الاولى من قسم الفلسفة بكلية الآداب بهذه الجامعة الحكومية التى كانت الهيئة القائمة على التدريس فيها من كبار الاساتذة الاجانب فى الجامعات الاوربية ، ولم يكن بين أعضاء هيئة التدريس هذه الا أستاذ مصرى واحد هو أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين، فلم نكن نتلقى بطبيعة الحال محاضرات بالعربية الا محاضراته التى كانت فى الادب العربى ، على حين كنا نتلقى بطبيعة الحال المواد الاخرى بلغات أصحابها من أساتذة باريس وبروكسل ولندن وغيرها ، فدرسنا الفلسفة فى أول عهدنا بالدراسة الجامعية فى السنة الاولى على يد أستاذ جليل القدر من أساتذة السوربون هو الاستاذ اميل بربيه، ثم على تعاقب السنين الدراسية حتى آخر مرحلة الليسانس على أيدى الاساتذة الاجلاء : لالاند ، وريه ، واسرتيبه ، وروجييه ، وبوابيه ، الا الفلسفة الاسلامية التى أبى أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين الا أن يقوم بتدريسها

أستاذ مصرى مسلم فعين لها المغفور له أستاذنا الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى عام ١٩٢٧ ، كما كان قد عين من قبل فى عام ١٩٢٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمى ، أستاذا لعلم الاخلاق ، فكانت الفلسفة الاسلامية والاخلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعا» (مقدمة الترجمة العربية لكتاب «مقال عن المنهج» لديكارت ، ترجمة محمود الخضيرى ، ص ٤٧ – ٤٨) .

هكذا كانت اصالة المنبع الذى استقى منه أساتذتنا الاجلاء علمهم ، وهكذا كانت جلالة معلميهم وأساتذتهم الذين لقنوهم الفلسفة ، وكانت الفلسفة الاسلامية فى ذلك **الوقت من أحق فروع الفلسفة بالعناية والتركيز** ، وبفضل الدكتور طه حسين قيض الله تعالى لها من يرعاها من بنى جلدتها ، ويرعى ذلك النبت الطيب الذى هيأه ورعاه ليقوم عليها بعد ذلك ، وينهض بها ، وكان الاستاذ هو المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أما النبت الطيب فهو طلاب الفلسفة السبعة حتى تخصص اغلبهم فى دراسات الفلسفة الاسلامية ، وعكف عليها ، دراسة واحياء والآن ندع الدكتور الاهوانى بنفسه يصور لنا أستاذه بقوله :

«مصطفى عبد الرازق صاحب مدرسة بمعنى الكلمة ، اوحى الى تلاميذه بالكشف عن التراث الاسلامى ، ووجه كل واحد نحو اتجاه خاص ، ونذكر من تلاميذه الذين تابعوا السير فى الطريق الذى رسمه : محمود الخضيرى ، وأحمد فؤاد الاهوانى ، ومحمد مصطفى حلمى ، وعثمان أمين ، ومحمد عبد الهادى ابو ريده ، وعلى سامى النشار ، وعبد الرحمن بدوى ، اشتغل هؤلاء جميعا بنشر مخطوطات قديمة لم يسبق نشرها ، فكان لعملهم ؛ على مدى زمن طويل ، أثره فى كشف الستار عن جانب كبير فى الفلسفة الاسلامية» .

وبعد أن حصل أحمد فؤاد الاهوانى على الليسانس سنة ١٩٢٩ ، وقد خانه الحظ فى الحصول على التقدير الذى يكفل له البقاء فى الجامعة أو السفر الى الخارج لاستكمال دراسته ، لم يمل البحث والدأب ، وصمم على مواصلة دراسته وهو خارج الجامعة ، وفى هذا مايكشف لنا عن أصالته وتعلقه بدراساته ، **فحصل على دبلوم معهد التربية العالى سنة ١٩٣١ ، وعين مدرسا بالمدارس الثانوية من سنة ١٩٣١ الى ١٩٤٤ ، ثم مفتشا للفلسفة بفروعها الثلاثة : المنطق ، وعلم النفس ، وتاريخ الفلسفة .**

فى تلك الفترة لم يتوقف الدكتور الاهوانى عن البحث والتنقيب ومحاولة السير للحاق بأقرانه ، وكان موضوع رسالته للحصول على الدكتوراه يكشف عن جانب آخر من شخصيته العلمية ، وهو **«التعليم فى راى القابسى»** ، والقابسى هذا هو أحد المفكرين الاعلام فى الفكر الاسلامى ، وقد تناول الدكتور الاهوانى فى بحثه التعريف بشخصه وفكره ، ثم حقق له كتابا فى موضوع الرسالة هو : **«الرسالة المفصلة لاحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين»** واذا تصفحت هذا البحث وجدته أشبه بالموسوعة ، يضم حديثا علميا فى التربية ، والفلسفة الاسلامية ، وعلم الكلام ؛ وقد طبع هذا البحث فى كتاب بعنوان **«التربية فى الاسلام»** وقد قدم له أستاذ الفلسفة الاسلامية وشيخ مدرستها المغفور له **الشيخ مصطفى عبد الرازق** قائلا :

«موضوع التعليم ومناهجه موضوع جليل الشان فى كل العصور وفى كل الامم . وقد عنى به الباحثون من العلماء والفلاسفة ، فالفوا فيه الرسائل ، وكتبوا فيه الكتب ، منذ عهد بعيد ؛ ولايزال موضع اهتمام المفكرين والمعلمين ..» ثم يقول عن الكتاب : «وهذا أثر من تلكم الآثار القيمة ، وهو كتاب «تفضيل أحوال المعلمين والمتعلمين لابى الحسن على بن محمد القابسى المتوفى ٤٠٣ هـ .. ينهض لنشره الباحث المجتهد الدكتور احمد فؤاد الاهوانى ، وينشر معه بحثا فى «التعليم فى رأى القابسي ..» ومن البحث والنص المخطوط تتألف الرسالة التى نال بها اجازة الدكتوراه من كلية الآداب .

وكتاب القابسى فى الواقع كتاب جليل الفائدة للباحثين فى التعليم وتاريخه عند المسلمين ، وهو يصور حالة التعليم فى عصره من نواح قلما فطن لها مؤلفو ذلك الزمان .

وقد عنى الاستاذ الاهوانى فى بحثه القيم بأن يترجم للقابسى ثم يعرض موضوعات كتابه عرضا جديدا ، فراعى فيه تنظيمها وتوضيحها ، وردها الى أصولها ، وربطها بمذاهب الفقهاء ومقالات المتكلمين .

وعنى الدكتور الاهوانى أيضا بأن يبرز مافى آراء المؤلف من طرافة وما فيها عرضة للنقد ، وأن يوازن بين مذهب القابسى والمذاهب الحديثة فى التربية والتعليم

ويقول الدكتور الاهوانى ايضا فى تقديمه لكتابه هذا مؤكدا ولاءه للفلسفة الاسلامية ومتابعة نهجها ، رابطا فى بحثه بين التربية والفلسفة الاسلامية :

«التربية الاسلامية هى ايضا جهاز اجتماعى يعبر عن روح الفلسفة الاسلامية من جهة ، وهذا الجهاز هو الذى يحقق تلك الفلسفة من جهة أخرى» .

وقد نال الاستاذ الدكتور الاهوانى ببحثه هذا اجازة الدكتوراه عام ١٩٤٣ ، **ونقل الى الجامعة مدرسا سنة ١٩٤٦ ، والتقى هناك بزملاء قدامى من بينهم الدكتور**

عثمان امين - وفى سنة ١٩٥٠ اصبح استاذا مساعدا، ثم استاذا لكرسى الفلسفة الاسلامية سنة ١٩٥٨، ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية والنفسية سنة ١٩٦٥، وقام على رياسته الى ان احيل الى المعاش سنة ١٩٦٨، وعين استاذا غير متفرغ مع بداية العام الدراسى ٦٩/١٩٧٠، الذى انتدب فيه للتدريس استاذا بالجامعة الجزائرية، وهناك اختطفه القدر من بين طلابه، ولقى ربه يوم الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠، واودع جثمانه الطاهر فى مثواه الاخير بارض مصر الطيبة يوم السبت ٢١ مارس سنة ١٩٧٠، بين دموع احبائه اساتذة وطلابا ومواطنين.

اعماله العلمية:

وهب احمد فؤاد الاهوانى الجانب الاكبر من حياته للعلم، متنقلا بين البلدان العربية وغير العربية للدراسة والبحث، مشاركا بجهده اينما حل، وكان من نتاج ذلك الكثير من البحوث والاحاديث والمقالات والمؤلفات التى اثرى بها المكتبة العربية فى مجالات الفلسفة وعلم النفس والتربية، فضلا عن جهوده التى لاتنسى سواء بالكلمة او بالرأى فى مجالات عديدة قومية وسياسية.

سافر - رحمه الله - اثناء السنوات ١٩٣٥، ١٩٣٦، ١٩٣٧ الى اسبانيا والمانيا وايطاليا وفرنسا دارسا وباحثا.

وانتدب فى العام الدراسى ٥٥/١٩٥٦ استاذا زائرا بجامعة واشنجطن بسانت لويس عاصمة ولاية ميسورى بالولايات المتحدة الامريكية، وكان هناك بمثابة سفير للفكر العربى والاسلامى. **والقى سلسلة من المحاضرات باللغة الانجليزية، جمعها فى كتابه: الفلسفة الاسلامية ارخ فيها لاعلام الفلسفة الاسلامية باسلوب سلس عذب، عارضا للكندى والفارابى وابن سينا، ثم انتقل للفلسفة الاسلامية فى اسبانيا عارضا لابن باجه وابن طفيل وابن رشد، كما انه لم ينس ان يعقد فصلا فى كتابه عن الفلسفة المصرية المعاصرة، متحدثا عن الجهود الفلسفية التى شارك بها المصريون فى هذا المضمار، وبخاصة من محمد عبده، مصطفى عبد الرازق، ابراهيم بيومى مدكور، عباس العقاد، سلامة موسى، اسماعيل مظهر، زكى نجيب محمود، وظهر هذا الكتاب فى مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧.**

وشارك - رحمه الله - فى عدة مؤتمرات فى البلاد العربية وغيرها وهى: مؤتمر ابن سينا فى بغداد سنة ١٩٥٢، ومؤتمر ابن سينا فى طهران سنة ١٩٥٤، حلقة بحث فلسفة العصر الوسيط بكولونيا سنة ١٩٥٩، مؤتمر فلسفة العصر الوسيط بكولونيا سنة ١٩٦١، مؤتمر الغزالى بدمشق سنة ١٩٦١، مؤتمر ابن خلدون بالقاهرة سنة ١٩٦٢، واسهم فيها ببحوث قيمة هى: نظرية الشعور عند ابن سينا، نظرية ابن سينا السياسية (باللغة الفرنسية)، تطور المصطلح الفلسفى العربى (باللغة الانجليزية)، الميتافيزيقا فى الاسلام (باللغة الانجليزية)، الحاسة الدينية عند الغزالى، ابن خلدون وتاريخ العلوم.

واختير - رحمة الله عليه - خبيرا بلجنة الفلسفة بمجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٥٠، وبذل فيها جهدا كبيرا فى خدمة اللغة العربية ومصطلحها، مشيرا الى مقابلة فى اللغات اليونانية والفرنسية والانجليزية، واستطيع ان اضيف الى هذا مؤلفاته الاخرى، وهى كثيرة:

(ا) فى الفلسفة اليونانية: ساهم الدكتور الاهوانى فى نشرها وتقديمها لابناء العربية سهلة سلسة، تأليفا تارة، وترجمة لبعض النصوص تارة اخرى، وتعد مؤلفاته فيها من اول المصادر التى يرجع اليها، وقد منحه ملك اليونان عام ١٩٥٤ وسام الاستحقاق تقديرا لهذه الجهود، ومن انتاجه فى هذه الناحية:

١ - فجر الفلسفة اليونانية، طبع عيسى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٥٤.

٢ - ايساغوجى لفرفريوس الصورى - طبع عيسى البابى الحلبى - القاهرة.

٣ - افلاطون - سلسلة نوابغ الفكر الغربى - دار المعارف - القاهرة.

٤ - كتاب النفس لارسطو - ترجمة بالاشتراك مع الاب قنواتى. طبع عيسى البابى الحلبى بالقاهرة.

(ب) وفى مجال الفلسفة الاسلامية، بذل جهودا متصلة، محاضرا وكاتبا، باحثا ومؤلفا، محققا وناشرا للتراث القديم. اتجه اليها منذ عهد مبكر، وتتلمذ لاستاذه مصطفى عبد الرازق، وقدر له أن يسافر عام ١٩٣٥ فى رحلة الى اسبانيا بحثا عن المخطوطات القديمة، وهاهو ذا يقول فى مقدمة كتابه «الحرب الاسبانية» (القاهرة ١٩٣٨):

«فى شهر يولية سنة ١٩٣٥ بارحت مصر الى الاندلس، فى صحبة طلبة معهد الاثار الاسلامية، وقد تفضل بمرافقتنا فى ذلك الحين الاستاذ عبد الحميد العبادى استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة المصرية.

ولم اكن فى ذلك الوقت طالبا فى معهد الآثار ، ولكنى كنت أنشد البحث عن مخطوطات اسلامية ؛ فى مكتبة الاسكوريال احدى ضواحى مدريد ، أو فى مكتبة مدريد الاهلية ، وليس من الغريب أن يحتوى مكتبات الاندلس على تراث العرب الاسلامى فقد كانت حضارتهم زاهرة زاهية ، بل كانت تلك الحضارة فى القرون الوسطى هى المنهل العذب الذى ارتشف منه الغرب ، وبنوا على أساس ماأخذوه منها حضارتهم الحديثة .. وأقلعت بنا الباخرة .. وفى نفسى امل العثور على ماأنشد من مخطوطات فلسفية اسلامية ، وهى تختص اذا شئت التحديد بابن رشد فيلسوف الاندلس العظيم» . ومن مؤلفاته فى هذا المجال :

١ - ابن سينا - سلسلة نوابغ الفكر العربى - دار المعارف بمصر .

٢ - الكندى «فيلسوف العرب» - سلسلة أعلام العرب .

٣ - التربية فى الاسلام - دار المعارف بمصر .

٤ - القيم الروحية فى الاسلام - منشورات المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

٥ - الفلسفة الاسلامية «السلسلة الاسلامية» .

٦ - مكتبة الانجلو المصرية

وله عدة تحقيقات هى :

١ - أحوال النفس لابن سينا

٢ - كتاب الكندى الى المعتصم بالله فى الفلسفة الاولى .

٣ - تلخيص كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل اخرى .

٤ - الشفاء لابن سينا - المدخل - بالاشتراك مع آخرين .

٥ - الشفاء لابن سينا - المقولات - بالاشتراك مع آخرين .

٦ - الشفاء لابن سينا - السفسطة - بالاشتراك مع آخرين .

٧ - الشفاء لابن سينا - الجدل - بالاشتراك مع آخرين .

٨ - المغنى للقاضى عبد الجبار - الجزء السادس (التعديل والتجوير)

(جـ) وله محاولات فى مجالات فلسفية أخرى ، مترجما ومؤلفا ، ونذكر من بينها :

١ - جون ديوى - سلسلة نوابغ الفكر الغربى .

٢ - أصول الرياضيات لبرتراندرسل بالاشتراك مع الدكتور محمد مرسى أحمد .

٣ - مباهج الفلسفة لول ديورانت .

٤ - البحث عن اليقين لجون ديوى .

(د) وراجع الترجمات الآتية :

١ - مقدمة الفلسفة الرياضية لبرتراند رسل - ترجمة الدكتور محمد مرسى أحمد .

٢ - علم الجمال لهويسمان - ترجمة دكتورة أميرة حلمى مطر .

٣ - مدخل لقراءة افلاطون - لالكسندر كواريه - ترجمة عبد المجيد ابو النجا .

٤ - المبادىء الاخلاقية فى التربية لجون ديوى - ترجمة عبد الفتاح هلال .

٥ - الحضارة العربية لجاك رسلر - ترجمة غنيم عبدون .

٦ - الزمان والازل لستيس - ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم .

(هـ) وله فى علم النفس بوجه خاص دراسات متعددة ، نذكر منها :

١ - خلاصة علم النفس - لجنة التاليف

٢ - الحب والكراهية - سلسلة اقرا .

٣ - الخوف - سلسلة اقرا .

٤ - النسيان - سلسلة اقرا .

٥ - النوم والارق - سلسلة اقرا

٦ - طريقة دبكرولى - تاليف هامايد .

(و) وفى الفلسفة العامة :

١ - معانى الفلسفة - مكتبة عيسى البابى الحلبى

٢ - فى عالم الفلسفة - مكتبة النهضة .

٣ - القومية العربية - السلسلة الثقافية .

٤ - المعقول واللامعقول - سلسلة اقرا .

٥ - أسرار النفس - مكتبة الآداب .

٦ - ميزان الحق - (مقالات فى النقد) - مكتبة الانجلو المصرية .

هذه هى أعمال الدكتور الاهوانى الكبرى ، وله مقالات عديدة فى المجلات العلمية والفلسفية كمجلة تراث الانسانية ، ومجلة الازهر ، ومجلة منبر الاسلام ، ولاأنسى اثره فى طلابه ومريديه ؛ لقد كان يأنس اليهم ، ويفسح لهم صدره ، ويعاونهم مااوسعه .. ودراسات الماجستير والدكتوراه بآداب القاهرة فى السنوات الاخيرة مدينة له بفضل كبير . ولم يحل هذا الجهد المتصل دونه والاسهام فى بعض أوجه النشاط السياسى والاجتماعى وكان قدوة لمن حوله فيما يقول ويفعل .

هذه هى بعض الجوانب الوضاءة لاستاذ جليل فقدناه على غرة ، وان فقده لخسارة كبيرة لعالم الفكر والادب . وكم عز رحيله العاجل على اخوانه ومحبيه من اساتذة نعموا بصحبته ، وطلاب افادوا من درسه وبحثه . تغمده الله برحمته ، والهم آله الصبر ، وجزاه عنا خير الجزاء .